خفقات دامعة

رباب فؤاد

خفقات دامعة ... رباب فؤاد
الطبعة الأولى: ديسمبر ٢٠١٢
الطبعة الثانية: نوفمبر ٢٠١٤
تصميم الغلاف: م. دعاء السيد
تنسيق وتدقيق لغوي : رباب الشهاوي
المدير العام : رباب الشهاوي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠١٢/٢١٥١٩ طبعة أولى
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/٢٢٠١٢ طبعة ثانية
الايداع الدولي: ISBN ٩٧٨-٩٧٧-٨٥١٥٣-١-٢

Alfouad_publishing@hotmail.com
https://www.facebook.com/Rabab.ElShahawy





خفقات دامعة

رباب فؤاد الشهاوي

رواية



إهداء

إلى أهلي وأصدقائي

إلى كل من شجعني على الكتابة

إلى كل من دفعني إلى الاستمرار

وإلى

الشخص الذي أساء إلى هذا العمل في طبعته الأولى،

وبسببه ظهرت دار الفؤاد

شكراً لإساءتك... فلولاها لظللت مجرد كاتبة

أغلب أحداث هذه الرواية مستوحاة من قصة حقيقية وردت
في بريد الجمعة قبل أكثر من عشر سنوات
هكذا رأيتها بقلمي، وهكذا عشت مع أبطالها
أتمنى أن يكونوا بخير
رباب

(١)

وقفت في منتصف ردهة شقتها تتأمل أركانها في صمت، وذكرياتها تتدفق بسرعة البرق عبر عقلها منذ ارتبطت بزوجها وحتى رحيله.

فالطبيعي أن يحمل كل ركن من أركان المنزل ذكرى لها مع زوجها على مر سنوات زواجهما العشر، إلا أنها اعتادت أن تكون جميع أحداث حياتها غير طبيعية.

منذ صغرها وهي مختلفة،

لم يكن سواد عينيها الغامض ولا الشلال الحريري الفاحم الذي يتوج رأسها ولا جمالها البريء ورقتها ولا حتى أصلها الطيب هو مبعث شعورها بالاختلاف، فهي في ذلك مثل أغلب مثيلاتها.

ولكنها كانت مختلفة.. أو هكذا كانت تشعر.

دائمًا ما شعرت بهذا الاختلاف وهي تلمح أية فتاة في مثل عمرها تتعلق بذراع والدها أو تتقافز حوله.

دائمًا ما آلمها ذلك المشهد، لكنها كانت تتغاضى عنه بداخلها وهي تهتف لنفسها "أبوك في الجنة أيتها الحمقاء. يجب أن تفرحي له."

شبت عن الطوق وأصبحت في ريعان الشباب، وهي لا تزال تشعر بالاختلاف.

فتربيتها المحافظة منعتها من الاختلاط بأي من الزملاء بالجامعة دون داع، لذا لم يطرق الحب قلبها، وهي لم تسع إليه.

كانت تلمح نظرات الإعجاب بها وبالتزامها، لكنها كانت تحمل أمانة.

أمانة قلبها وبراءتها التي ادخرتها لمن سيكون زوجًا لها.

ثم جاء هذا الزوج، ولكن حتى ارتباطها به كان مختلفًا..

كانت قد ادخرت كل أحلامها ومشاعرها من أجل زوجها المنتظر الذي سيحتويها بحنانه ويعوضها ما افتقدت إليه،

لكن حياتها معه كانت على النقيض تمامًا مما أرادت..

عاشت معه عشر سنوات في إحدى دول الخليج، حيث كان يعمل مهندسًا بشركة بترول. عشر سنوات لم تزر فيها أمها سوى مرات قليلة

صادفت مواعيد ولاداتها لأطفالها الثلاثـة. وفي هـذه المـرات كـان زوجهـا يعد شقتهم ويجهزها للانتقال إليها،
وذلك لأنها، بحكم اعتيادها على مخالفة المألوف، تزوجت دون أن يكون لديها شقة..
فقد اشترى زوجها الشقة ولم يبـدأ في تأثيثهـا إلا بعـد أن تـزوج وأنجـب ولدين واكتشف حمل زوجته للمرة الثالثة.
وهكذا فعلى عكس أي زوجة تدخل عشها لأول مرة مـع زوجهـا مرتديـة ثوب الزفاف الأبيض، دخلت هـي شـقتها برفقـة أطفالهـا وأمهـا مرتديـة السواد حدادًا على زوجها الراحل.
لم لا وقد اعتادت أن تكون مختلفة!!!
أو بالأحرى، فقد اعتـادت أن تـوهم نفسـها بأنهـا مختلفـة بـدلًا مـن أن تقتنع بأنها سيئة الحظ.

ومن أعماقها انطلقـت زفـرة ملتهبـة حملـت بعضًـا مـن حزنهـا وخوفهـا وتوترها، هذا لأن زفرة واحدة مهما بلغت قوتها لن تسـتطع حمـل أكـثر من جزء بسيط مما يعتمل في نفسها.
لم تشعر بالراحة إلا عندما قفزت دمعاتها السـريعة إلى عينيها الجميلتين وفرت خارجهما لتغرق وجهها الحزين وهي تسترسل في ذكرياتها الأليمة.
كان من الصـعب عليهـا أن تُفاجـأ بوفـاة زوجهـا وعودتهـا إلى مصــر في منتصف العام الدراسي وما ترتب عـلى ذلـك مـن مشـاكل لا حصــر لهـا واجهتها، كعادتها، وحدها في الغربة بحكم اختلافها عن سائر بنات حـواء الطبيعيات. اختلافها الذي لم تختره ولم تسعد به يومًا.
فقد ذاقت مرارة اليتم وهي بعـد برعمـة صـغيرة تتفـتح للحيـاة حيـنما استُشهد والدها الطيار المقاتل في إحدى المناورات التدريبية بسبب عطل أصاب طائرته المقاتلـة وأدى لانفجارهـا، واليـوم حُكـم عليهـا أن تعـيش التجربة مرة ثانية وهي ترى أولادها يجرعون من نفـس الكـأس التـي لم تفارق مرارتها حلق أمهم بعد.

فرغم صغر سنها وجمالها الهادئ، رفضت (أم هالة) أن تُحضر رجلًا غريبًا ليحتل مكان ومكانة زوجها الراحل ويتحكم في مصير ابنتها الوحيدة، وقضت أحلى سنوات عمرها راهبة في محراب ابنتها لا يهمها سوى سعادتها.

وعندما وضحت معالم الأنوثة على وجه(هالة) تقدم الكثيرون لخطب ودها ويدها في ذات الوقت إلا أنها رفضتهم جميعًا لأن هدفها كان أسمى من ذلك بكثير.

كان هدفها هو أن تُسعد أمها، التي طالما شقيت من أجلها، برؤيتها طالبة في الجامعة ثم معيدة ثم دكتورة جامعية...هكذا كان حلمها.

وفي عامها الأخير بكلية التربية أعلنتها ساكنة الشقة المواجهة لشقتهم بالخبر الذي تسعد لسماعه أي فتاه.."لدي العريس المناسب لك يا (هالة)."

تخضب وجه الفتاه يومها في شدة وفرت مع حيائها إلى غرفتها، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تسمع والدتها تستفسر عن أخلاق العريس وعائلته وغيرها من تلك الأمور، بل وسمعتها تحدد موعدًا مع جارتها بعد أن أكدت لها هذه الأخيرة طيب أصله وأنه شاب تتمناه أي فتاه، وختمت قولها إنها لم تكن لتفرط فيه لو كان لديها ابنة، وأن (هالة) هي ابنتها التي لم تنجبها.

وفي حضور خالها، حضر العريس بصحبة والده 'العمدة المهيب' الذي شملها بنظرة فاحصة أعادت إلى ذهنها جميع المشاهد السينمائية التي وصفت حزم وشدة العمدة، رغم أن هيئة الرجل لم تكن تدل على مهنته. فعدا طول قامته الواضح وشاربه العريض، كان أنيقًا في السترة الكاملة.. كان نموذج العمدة المعدل.. 'العمدة العصري'، ولا عجب في ذلك إذ كان يعمل محاميًا قبل أن يرث المنصب عن والده.

وبلمحة سريعة للعريس أدركت (هالة) أنه نسخة مصغرة من والده..طول القامة، ملامح الوجه التي تنم عن رجولة واضحة، لون العينين الأسود الذي ينافس سواد شعره، حتى الوقار والحزم، وهو ما

جعل (هالة) تقول لنفسها 'حقًا لكل أمريء من اسمه نصيب، صدق من أسماه (حازم)'
وبعد أن تبادلا الحديث قليلًا، وبعد أن أعملت (هالة) فكرها طويلًا وترددت كثيرَا وافقت أخيرَا على الارتباط بـ(حازم) وقلبها يتمزق لأنها ستترك أمها وحيدة، إلا أن أمها أقنعتها بأنها ستقيم مع أخيها ولن تكون وحدها، وأن ما يسعدها حقًا هو رؤية ابنتها الوحيدة تعيش في سعادة.
وفي غضون أسبوعين تمت الخطبة وعاد(حازم) إلى عمله في الخليج على أن يعود فيما بعد ليتزوجا.
ولكنه لم يعد، فقد رفض رئيسه السماح له بالنزول فما كان منه إلا أن أرسل لوالده توكيلًا عقد به على (هالة)... وعاد الشعور بسوء الحظ، أو ما تسميه هي الاختلاف، يخنقها.
وبدلًا من أن ترتدي ثوب الزفاف وتجلس إلى جوار عريسها وسط الأهل والأحباب في حفل زفافها، ارتدته وجلست على مقعد في الطائرة المتجهة إلى حيث زوجها وسط أناس لم ترهم من قبل.
وهكذا بدأت حياتها الجديدة في بلد لا تعرفه ولا تعرف أهله ولا عاداتهم.
ربما لم تكن الوحيدة التي تزوجت بهذه الطريقة، لكن ما آلمها كان الاختلاف عن كل توقعاتها وأحلامها كباقي الفتيات.
صحيح أن (حازم) كان معها إلا أنه....
"هل ستظلين واقفة هكذا يا(هالة)؟"
انتبهت لصوت أمها الهادئ فمسحت دموعها سريعًا وهي تقول بصوت لم تفارقه الدموع ـ"هل نام الأولاد؟"
تنهدت أمها في إرهاق قائلة ـ"نعم، استلقوا في أسرّتهم بعد جهد جهيد...إلا أنهم في انتظار قبلتك المعتادة."
هزت رأسها في هدوء واتجهت ببطء إلى حجرة أبنائها لتقبلهم، وعندما عادت جلست إلى جوار أمها على الأريكة وشردت ببصرها بعيدًا، لتبادرها أمها بحنان ـ"لابد وأن تتماسكي جيدًا يا حبيبتي، فأولادك بحاجة

إليك."
تنهدت(هالة) في عمق وهي تقـول ـ"الأمر لـيس بهـذه السـهولة.. لقـد حدث كل شيء فجأة."
ربتت أمها على كتفها في حنان قائلة ـ"إنه قدره يـا ابنتـي، وقـدرك أنـت الأخرى."
قالت بصوت يحمل نبرة ضيق وحنق ـ"قدره؟! قـولي عادتـه، فهـو دومًـا يفعل ما يشاء وقتما يشاء."
قالت أمها باستنكار ـ" استغفري لربك ولا ترددي هذا القول ثانيـة .'ومـا تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت'."
عادت دموع(هالة) للانهمار ثانية وهي تسـتغفر اللـه قبـل أن تقـول في حنق ـ"ولكنه كان يعلم أن عمله خطير وأنه من الممكن أن يمـوت في أي لحظة."
سألتها أمها في حيرة ـ"وماذا أردته أن يفعل؟ أن يـترك عملـه وأن يجلـس إلى جوارك؟ لو أنني وغيري اتبعنا منطقك هذا لكان أبوك وآلاف الشهداء من رجال الجيش على قيد الحياة ولما تحررت سيناء. أهذا ما تريدينه؟"
ازداد انهمار دموعها وهي تقول بصوت مختنق ـ"على الأقل كان يتـوخى الحرص، لقد أخبرني قبل وفاته أن حفّار الـنفط الـذي يعمـل عليـه لـيس على ما يرام وأنه أخبر المسئولين في الشـركة بذلك إلا أن الشـركة لم تحرك ساكنًا، والنتيجة انفجار الموقع بأكمله ومصرع ثلث العاملين به. والأدهى أن مديري الشركة يتهمون عمال ومهندسي الموقع بالإهمال حتى يتهربـوا من دفع قيمة التأمين على حياتهم."
ربتت أمها على كتفها ثانية قائلة بحنان ـ"يا حبيبتي أنت لسـت بحاجـة لقيمة التأمين مهما بلغت."
قالت بعناد ـ"إنها ليست لي، إنهـا لأبنائـه مهـما بلغـت حتـى لـو كانـت خمسة قروش، لقد حرمتهم هذه الشركة من أبيهم ويعلم الله كم طفـلًا آخـر فقـد والـده بسـبب هـذه الـذمم الخربـة. لـذا لـن أتوقـف عـن مقاضاتهم، ووالد(حازم) معي في هذا الأمر."

استسلمت والدتها لإصرارها واكتفت بهـز رأسـها وهـي تسـأل ابنتهـا في اهتمام ـ"وهل ستعملين مُدرسة كما أخبرت حماك؟"
أومأت (هالة)برأسها إيجاباً وهي تجيب أمها في ثقـة قائلـة ـ"نعم، لقـد اتفقت مع مديرة مدرسة الأولاد الجديدة عـلى أن أعمـل معهـا مُدرسـة علـوم لطلبـة الإعـدادي، وسـأعمل حتـى نهايـة الفصـل الـدراسي تحـت الاختبار إلى أن يـتم تعيينـي مـع بدايـة العـام الـدراسي الجديـد. فأنـت تعلمين أنني لم أتسلم تعييني الحكومي وبالتالي فقدته."
مطت أمها شفتيها قائلة بعدم اقتناع ـ"مازلت غير مقتنعة بمسألة عملك تلك..فـ."
قاطعتها ابنتها في هدوء قائلة ـ"يا أمي يا حبيبتي...لو أنفقت على أبنـائي من ميراث أبيهم لن يبـق منـه شيء عنـد تخـرجهم، تكفينـا مصـروفات المدرسة الخاصة التي قبلت أبنائي بها في منتصف العام الـدراسي. وجـود راتبي سيخفف الحمل قلـيلًا، ولـولا بُعـد نظـر حـماي مـا حصـلت عـلى معاش(حـازم). يبـدو أنـه كـان يشـعر بمـا سـيحدث يومًـا مـا عنـدما أشرك(حازم) في التأمينات الاجتماعية، وهكذا سيمكننا العيش في مستوى قريب من مستوى معيشتنا السابق."
أضافت أمها في حنان ـ"لقد نسيت معاشي أنا الأخرى و...."
قاطعتها(هالة) قائلة في سرعة ـ"أمي...يكفيك ما قاسيته مـن أجـلي منـذ وفاة أبي 'رحمه الله' وحان الوقت لأرد بعضًا من أفضالك...معاشك خاص بك وبأدويتك و..."
قاطعتها أمها بدورها قائلة باستنكار ـ"هل تدفعين لي ثمن إقامتي معك؟"
اغرورقت عيناها وهي تحتضن والدتها هامسة ـ"معاذ اللـه...أنا بحاجـة إليك يا أمي، بحاجة شديدة إليك."
مسدت الأم شعرها قائلة بعد تنهيدة طويلة ـ"أعلم ذلك يا بنيتي...أعلم ذلك."

****

(٢)

ساعدت ابنها الصغير في ارتداء ملابسه وتأكدت من هندامه هو وشقيقه الأكبر قبل أن تصحبهما إلى الردهة حيث كان عمهما جالسًا برفقة أمها، والذي ما أن لمح اقترابهم حتى نهض وهو يسمع أرملة أخيه تقول بحرج ـ" آسفة لتعطيلك يا دكتور(طارق). لولا مرض(هند) المفاجئ كنت أحضرتهما بنفسي إلى عمي، و أخشى ما أخشاه أن يُغضبا جدهما بألعابهما الشقية."

ربت(طارق) على شعر الطفلين بحنان وهو يقول بابتسامة عذبة ـ"من رابع المستحيلات أن يغضب أبي من أبناء(حازم) 'رحمه الله'، كما أنهما ليسا بهذا القدر من الشقاوة كما تصفيهما."

همت بقول شيء ما عندما أسرع الصغير(هاني) يقول ـ"أرأيت؟! عمي(طارق) في صفنا وسيأخذنا إلى جدنا كل مرة."

ابتسمت وهي تلوح بإصبعها محذرة قائلة ـ"لا تعتمد على هذا كثيرًا، عمك سيصحبكما هذه المرة فقط، وفيما بعد ستذهب مع أشقائك بصحبتي."

مط الصغير شفتيه بامتعاض قائلًا ـ" (هند)كثيرة البكاء، ليتها لا تحضر معنا أبدًا كيلا تزعجنا."

عقدت حاجبيها وهي تهتف به ـ" ولد!"

اختفى(هاني) ليحتمي خلف عمه الذي ابتسم وهو يمد يده لالتقاط حقيبة الطفلين قائلًا ـ"دعك منه، أعط لـ(هند) الدواء الذي أحضرته لك وستتحسن بإذن الله."

شكرته وهي تودعهم لدى الباب ـ" أشكرك يا دكتور، سأنتظر عودتكم في الغد إن شاء الله."

ثم وجهت حديثها الحازم لابنيها قائلة ـ"(هيثم) اعتن بأخيك ولا تغضبا جدكما أو عمكما لأني سأعرف كل ما تفعلانه."

أومأ الصبيان برأسيهما في أدب وهما يقبلان أمهما قبل أن ينصرفا برفقة عمهما.

وما أن أغلقت الباب خلفهم حتى خلعت غطاء رأسها وهي تقول بضيق ـ"الجو حار للغاية."
هزت أمها كتفيها قائلة ـ"إننا في منتصف يوليو، ومن الطبيعي أن ترتفع الحرارة هكذا."
اقتربت(هالة) من النافذة وهي تراقب ركوب ابنيها سيارة عمهما من خلف الستائر قائلة في قلق ـ"وهذا ما يقلقني، سيلعب الأولاد في الشمس كعادتهما."
هونت أمها من قلقها بقولها ـ"لا تقلقي هكذا، عمهما وجدهما لن يتركاهما دون رقابة."
ثم تابعت في اهتمام حنون ـــ "أتعلمين؟ لقد عوضهما(طارق) حنان الأب، إنه حتى يبدو أكثر حنانًا من(حازم) 'رحمه الله'."
تنهدت في عمق وعيناها تتابعان ابتعاد سيارة(طارق) قبل أن تقول لأمها ـ"(حازم) كان شبيهًا بأبيه في الشكل و الطباع، أما(طارق) فيشبه والدته أكثر، وقد ورث عنها حنانها. هكذا يقول عمي."
هزت الأم رأسها قائلة ـ"إنه ابن حلال."
أسدلت(هالة) ستارة النافذة وهي تؤمن على كلام أمها قائلة ـ"إنه كذلك بالفعل، ويستحق كل خير."

*****

(٣)

استجابت لرنين جرس الباب وفتحته لتجد حماها أمامها فقالت بترحاب صادق ـ"عمي؟! يا لها من مفاجأة سارة. تفضل بالدخول."

دلف حموها للداخل، بينما دارت عيناها على الممر أمامها بحثًا عن ولديها قبل أن تسأله في حيرة ـ"ولكن أين الأولاد؟ ألم يأتوا بصحبتك."

أجابها الرجل في هدوء يحمل الكثير من الوقار في داخله ـ"لقد صحبهم(طارق) إلى الملاهي ولن يعودوا الآن."

أغلقت باب الشقة ودعته للجلوس وهي تقول بابتسامة هادئة ـ"أرجو ألا يكونا تسببا في الإزعاج لك أو لعمهما."

قال بنفس هدوءه الحازم ـ"إنهما ليسا بمثل شقاوة والدهما 'رحمه الله' حين كان في مثل عمريهما."

ثم تابع بنبرة اهتمام ـ" كيف حال(هند) الآن؟"

أجابته في سرعة ـ"بخير والحمد لله، لقد تحسنت بعد تناول الدواء الذي أحضره لها عمها. يبدو أن لها مكانة خاصة عند جدها ليقطع كل هذه المسافة من أجلها."

لاحت نبرة حنان غريبة في صوته وهو يقول ـ"أنا لم أنجب بنات، لذا عوضني الله بـ(هند). أين هي؟"

نهضت قائلة ـ"نائمة بالداخل مع أمي، سأوقظها حالًا و..."

قاطعها بإشارة من يده قائلًا ـ"لا داعي لإيقاظ الصغيرة، ولكن إذا كانت والدتك متيقظة فأرجو أن تشاركنا الحديث."

عقدت حاجبيها للحظة أو أقل قبل أن تقول في سرعة ـ"بالطبع. سأستدعيها حالًا."

وبعد التحيات التقليدية ابتدر الرجل والدة(هالة) قائلًا بجدية ـ"لقد تقدمت إليك أنا وابني الراحل منذ أكثر من عشر سنوات لخطبة ابنتك (هالة) بعد أن سمعنا عن أدبِها وجمالها وأصلها الطيب، وطيلة هذه السنوات أثبتت كل ذلك عمليًا وما زالت تثبته في تربيتها الممتازة لأبنائها رغم كل الظروف السيئة المحيطة بها."

أجابته أرملة ولده في حيرة ـ"ظروفنا ليست بهذا السوء يا عـماه. الحمـد لله، نحن أفضل من غيرنا. صحيح أنني فقدت الزوج وأولادي فقدوا الأب لكننا لسنا وحدنا، جـدهم وجـدتهم وعمهـم معهـم بعـد اللـه سـبحانه وتعالى. إنهم بالتأكيد أفضل حظًا من كثير من الأطفال الأيتام."

وافقها قائلًا ـ"في الوقت الحالي كلامك صحيح، ولكن ماذا عن المسـتقبل؟ أنا لن أخلد في هذه الدنيا."

قالت في سرعة ـ"الأعمار بيد الله يا عمي، أطال الله عمرك."

رفع كفه في حزم قائلًا ـ"ها أنت قلتها، الأعمار بيد الله. والله وحده أعلم بمن سـيموت الآن ومـن سـيموت فـيما بعـد، لـذا أريـد أن أطمـئن عـلى مستقبل أحفادي من بعدي."

تبادلت نظرة حائرة مع أمها قبل أن تقول بحزم مماثل ـ"مستقبلهم بـين يدي الله يا عمي. وبشهادة حضـرتك فإن تربيتي لأبنائي مثاليـة والحمـد لله، كما أن أمي معي ولا تنس أنها وحدها قامت بتربيتي، وأنا بإذن الله قادرة على فعل المثل."

تنهد الرجل في عمق قبل أن يقول ـ"لقد تغير الزمن يا ابنتي ومسئولياتك أكبر من مسئولية والدتك حينها كما أنك جميلـة ومازلـت صـغيرة السـن و..."

قاطعته بلهجة بدت حـادة رغـمًا عنهـا قائلـة ـ"لقد كانـت أمـي أجمـل وأصغر سنًا مني الآن ومع ذلك لم تفكر في الزواج ولو للحظة، وأنا لسـت بأقل منها."

تابع وكأنه لم يسمعها ـ"وإن لم يجذب جمالك الرجال، سـيفعل مـا ورثتـه عن زوجك."

احتقن وجه(هالة) في شدة في حين قالـت أمهـا في سرعـة ـ"لقد تنازلـت ابنتي عن ميراثها في ممتلكات(حـازم) وكـذلك عـن نصـيبها في التعـويض لصالح أبنائها."

وجه حديثه إلى الأم قائلًا بثبات ـ"هذا ما نعرفه أنـا وأنـت ولـيس العـالم كله."

مالت(هالة) إلى الأمام وقالت في تحفز ـ"وأنا لست عديمة الشخصية لأن أستجيب لإغراء أي رجل مهما كان."
تراجع حموها للخلف في سرعة قائلًا ـ"معاذ الله أن تكونين هكذا أو أن أصفك أنا بذلك، ولكن في بعض الأحيان قد تشعرين بأنك وحدك في هذا العالم، ومن هذا المُنطَلَق قد توافقين على الزواج برجل ظنًا منك أنه الشخص المناسب لك ولكنه قد لا يكون كذلك."
ازداد احتقان وجه(هالة) وعصبيتها التي جعلتها تغرس أظفارها في راحة يدها قبل أن تتمالك أعصابها لتقول في ثقة ـ"أنا على أتم الاستعداد لأن أقسم لك الآن بأنني لن أتزوج ثانية ولن أسمح لأي رجل بأخذ مكان(حازم) في بيته ولن..."
قاطعها بإشارة من يده قائلًا في هدوء ـ"رويدك يا بنيتي، أنا لم أطلب منك ذلك ولن أفعل أبدًا. وإنما على العكس، أنا هنا لأقنعك بالشخص المناسب."
اتسعت عينا(هالة) في شدة وهي تحدق في وجه حميها بذهول، حتى أن صوتها حين بارح حلقها كان متحشرجا من فرط دهشتها وهي تهب من مقعدها هاتفة ـ"ماذا؟!"
أما والدتها فقد لاحت رنة الغضب في صوتها وهي تقول ـ"ماذا تعني بقولك هذا يا حاج؟ بل ماذا تظن بابنتي من الأساس؟"
وَجَه حديثه إلى الأم ثانية قائلًا بنفس الهدوء ـ"صدقيني يا سيدتي، أنا أهدف من وراء ذلك إلى تأمين مستقبل ابنتك وأحفادي. ولولا احترامي لكما ما أتيت بعرضي هذا."
قالت الأم بحزم ـ"أي عرض تقصده يا حاج؟ لقد مرت ستة أشهر فقط على وفاة ابنك الأكبر وأنت تطلب من أرملته الزواج؟ أهذا معقول؟"
تنهد الرجل في ألم قائلًا ـ"لم يحزن أحد على(حازم) قدر حزني عليه. لقد كان أول أبنائي وأشبههم بي في الشكل والطباع، وكانت صدمة فقدي له قوية. أنت تعرفين بالطبع أنني أصبت بعد وفاة (حازم) بذبحة صدرية ما زلت أعاني من آثارها حتى الآن، ولا يوجد ما هو أصعب على نفسي

من أن أطلب من أرملة ابني أنِ تسمح لرجل آخر بأن يحل محل(حازم)، لكن هذا الرجل لا يختلف كثيراً عنه، فلكليهما نفس المكانة في قلبي لأن كليهما ابني."

التفتت(هالة) إليه بحركة حادة عكست رفضها واستنكارها للأمر خاصة حين تابع حموها قائلًا بهدوء ما زال مشوباً برنة ألم -"أنا أعرض عليك الزواج من ابني الدكتور(طارق)."

و كانت مفاجأة قاسية لـ(هالة).

*****

(٤)

"لا وألف لا...مستحيل."

هتفت بهذه العبارة في إصرار بعد انصراف حميها وهـي تـذرع الغرفـة جيئة وذهابًا قائلة بثورة مكتومة ـ"هل أصبحت حكرًا على هذه العائلة؟ أيحسبونني جزءًا من ميراث ابنهم؟ وكيف..."

قاطعتها أمها قائلة بهدوء ـ"اجلسي لنتحدث بهدوء يا ابنتي."

التفتت(هالة) إليها هاتفة بانفعال ـ"هدوء؟ إن دمي يغلي منذ سـمعت عرض حماي العزيز. آه لو رأيت(طارق) الآن لـ..."

قاطعتها أمها في حزم هذه المرة قائلة ـ"قلت اجلسي، إنك تثيرين أعصـابي بحركاتك المتوترة تلك."

أطاعتها وملامحها تشي بتبرمها الشديد، في حين تابعت والـدتها في حنـان قائلة ـ"ما وجه اعتراضك على(طارق)؟ لقد قلت بنفسـك إنـه ابـن حـلال وحنون، وأبلغ دليل على ذلك هو حب أولادك له وتعلقهم به."

أجابتها في حـدة ـ"حب أولادي لـه لا يعنـي بالتبعيـة الـزواج منـه، وإلا انتظرت عرضًا بالزواج من كل من يقدم لهم قطعة شيكولاتة."

ربتت أمها على كتفها في حنـان قائلةـ"حبيبتي...(طارق) إنسـان متميـز وحموك يهدف إلى..."

قاطعتها(هالة) هذه المـرة هاتفةـ"أنا لسـت سـاذجة لأصـدق مـا قالـه، فحضرة العمدة يهدف إلى فرض وصاية دائمة علينا بصفتنا جزء لا يتجـزأ من تركة ابنه الراحل، وإذا كان ولا بد مـن زواجـي، فلأتـزوج ابنـه الثـاني وأنفق ميراثي عليه باعتباره أولى من الغريب."

رمقتها أمها بنظرة صارمة وهي تقول بحزم ـ"لن أواصـل الحـديث معـك وأنت بهذه العصبية. أنت الآن ميئوس منك بالمرة."

قالتها وهي تنهض متجهة إلى غرفتها مغمغمـة في حـيرة ـ"إنك لم تكـوني أبدًا بمثل هذه العصبية والفظاظة، لقد تغيرت."

اغرورقت عينا (هالة) بدموع ساخنة، وهي تخفي وجهها بين كفيها بعـد ابتعاد أمها، وكيانها يصرخ ألمًا...

نعم تغيرت...منذ ارتبطت بهذه الأسرة وأنا في تغير مستمر،
تعلمت أن أحيا مع زوج عمله هو أهم ما في حياته،
تعلمت أن الحب ليس أساس كل شيء و...
وهاأنذا أتحمل المسئولية وحدي، حائرة بين ما أؤمن به وبين ما تعـودت عليه مع زوجي.
هل أجعل الحب أساسًا لحياتي وحياة أبنائي،
أم أمشي على نهج زوجي؟
والأدهى موضوع شقيقه هذا...
كيف أجرع من ذات الكأس مرتين؟
صحيح أن(طارق) على النقـيض تمامًـا مـن شـقيقه، إلا أنـه كـما يقولـون 'العرق دساس'.
ثم كيف تتحول علاقتي ب(طارق) مـن كونـه أخ لزوجـي الراحـل وعـم لأبنائي إلى زوج مثله مثل أخيه؟

إنهـا بالفعـل لم تفكـر في الـزواج، ولـن تفعـل بعـد مـا عانتـه في زواجهـا السابق، لكن مع إصرار أمها وحميها...
أمها تحاول إقناعها بأن الأمر مدعاة لفخرها، خاصة بعد أن قال حموهـا إنه لن يجد زوجة لابنه أفضل منهـا، وتشـدد عـلى أن الـزمن تغـير وأنهـا وحيدة في هـذا العـالم دون أخ أو أخـت، وحملهـا أثقـل مـن أن تحملـه وحدها.
ولكن كيف ستواجه الناس بزواجها قبل انقضاء عـام عـلى وفـاة زوجهـا، ناهيك عن أن الزوج الجديد هو شقيق الزوج الراحل.
يقولـون في الأريـاف إنهـا التقاليـد، ولكنهـا ليسـت في الأريـاف. إنهـا في العاصمة، في قاهرة المعز حيث لا يعرف أحد ما يجري للمحيطين بـه إمـا لانشغاله أو لعدم اهتمامه.
قد تكون هذه نقطة في صالح زواجها من(طارق)، ولكن ماذا عنها هـي؟ ماذا عن حالتها النفسية؟

كيف ستغير نظرتها إليه من أخ وربما صديق إلى زوج؟
"يا الهي!!! إن جسدي يقشعر لمجرد تصور الفكرة."
همست بهذه العبارة لنفسها سرا وهي تسترجع في ذهنها كل الأفلام العربية التي تزوج فيها البطل من أرملة شقيقه مرغما.
نعم مرغما، لقد صارحها حموها بقوله إن ابنه لم يعتد رفض طلبات أو أوامر والده.
إذًا حاله ليس أفضل من حالها، فكلاهما في الهم سواء.
لذا ستنتظره حين يعود وتواجهه و...
وأخذت تخطط لما ستقوله.

*****

(٥)

رفعت سماعة الهاتف ليبادرها صوت أنثوي تفتقده يهتف بمرح -"لقد عدنا."

لم تكد تتعرف على صاحبة الصوت حتى هتفت كالغريق الذي ينتظر العون قائلة بلهفة -"(نهى)!! حمدًا لله على سلامتكم..متى عدتم؟"

أجابتها (نهى) بنفس المرح -"عدنا فجر اليوم...افتقدتك كثيراً يا (هالة)، وأبنائي لم يتأقلموا بعد على سفر (هيثم) و(هاني)."

اختنق صوتها بالعبرات وهي تقول لصديقتها -"وأنا أيضًا افتقدتك...بل إنني أحتاجك اليوم أكثر من أي وقت مضى يا(نهى)."

تسلل القلق إلى صوت (نهى) وهي تسألها -"ماذا بك يا حبيبتي؟ لقد كنت بخير حتى آخر اتصال بيننا منذ شهر تقريباً."

سالت دمعة متهورة على وجه (هالة) التي لم تحاول منعها وهي تقول بألم -"خير؟ لقد نسيت هذه الكلمة."

تصاعد القلق في صوت صديقتها الوحيدة وجارتها في الخليج طيلة عشر سنوات، فسألتها بلهفة -"أريحي قلبي أولًا...هل والدتك وأبنائك بخير؟"

مسحت (هالة) دمعة أخرى حاولت اللحاق بسابقتها وهي تهز رأسها قائلة -"لا تخافي...كلنا بخير جسدياً، لكنني أنا المنهكة نفسياً."

لم ترتح (نهى) لنبرة (هالة) ولا لكلماتها المتألمة فهتفت بها -"لقد أثرت فضولي...سأطلب من (عمر) زوجي أن يقلني إليك فوراً، فهي المرة الأولى التي أزورك فيها في مصر. (هالة) إياك أن تؤذي نفسك."

ابتسمت (هالة) رغماً عنها وهي تطمئن صديقتها وتنهي المكالمة هامسة -"لا تخافي...أنا يائسة ولكن ليس إلى هذا الحد. في انتظارك."

***

لم تكد تمر ساعة حتى كانت (نهى) تطرق باب صديقتها مرتدية عباءتها السوداء الفضفاضة التي اعتادت ارتدائها منذ سفرها إلى الخليج مع زوجها قبل اثني عشر عاماً.

كانت (نهى) أكبر عمرًا من (هالة) بنحو عامين، متوسطة القامة وملامحها الهادئة تشي بطيبة قلب وحنان لا حدود لهما، وإن كانت عيناها اللامعتان تنمان دومًا عن روح مرحة وخفة ظل تجعل من يعرفها لا ينساها بسهولة. وزوجها (عمر) مهندس في نفس الشركة التي كان يعمل بها (حازم)، وكان أحد أصدقائه المقربين أيضًا.
تدفقت ذكرياتها لبداية معرفتها بـ(هالة)، حينما أتت عروسًا لتسكن مقابلها، وكانت كلتاهما بحاجة إلى صديقة جديدة، ومن هنا بدأت الصداقة. ظلتا معًا في السراء والضراء منذ بداية تعارفهما إلى وفاة (حازم) المفاجئة. حتى بعد عودة (هالة) إلى مصر قبل ستة أشهر لم تنقطع الصلة بينهما، وظلتا على اتصال بين الحين والآخر، و...
قطع (هاني) سيل ذكرياتها وهو يفتح الباب ويصرخ في سعادة -"طنط (نهى)...أين (عبد الله) و(عبد الرحمن)؟"
انحنت تحتضن الصغير بشوق، وقبلت رأسه قائلة -"مازالا نائمين...لقد أتيت اليوم وحدي ولكني سأحضر بهما في المرة القادمة إن شاء الله. أين أمك؟"
أتاها صوت (هالة) المنهك وهي تقول بابتسامة باهتة -"ها أنذا...حمدًا لله على سلامتك يا (نهى)."
التفتت إلى صديقتها وراعها الشحوب على وجهها الذي طالما عرفته نضرًا، حتى ابتسامتها العذبة كانت شاحبة بشكل أثار قلقها وهي تحتضنها قائلة -"(هالة)؟ ماذا ألمّ بك؟ ماذا حدث؟"
احتضنتها (هالة) بكل ما تبقى لديها من قوة قبل أن تقول بخفوت -"سأخبرك بكل شيء...تفضلي إلى الداخل أولًا."
صحبتها في هدوء إلى غرفة الاستقبال الأنيقة، بينما هرع (هيثم) هو الآخر ليعانق والدة أصدقائه في شوق بعد غياب ستة أشهر، فقبلت رأسه قبل أن تداعب شعره الأسود الناعم قائلة في حنان -"ما شاء الله تبارك الله. لقد صرت رجلًا يا (هيثم)..حماك الله يا ولدي."
ثم تلفتت حولها متسائلة -"أين والدتك يا (هالة)؟ وأين (هند)؟ لقد

أوحشتني تلك المزعجة."
تنهـدت (هالـة) وهـي تشـير لصـديقتها بـالجلوس قائلـة ـ"أمي تـزور خالي...إنه يمر بوعكة خفيفـة. أمـا (هنـد) فنائمـة كالعادة...متعبـة هـذه البنت، تنام في النهار وتستيقظ ونحن نستعد للنوم."
جلست على الأريكة إلى جوار صديقتها وهي تضحك قائلة ـ"والله أوافق أن أظل طول الليل مستيقظة...المهم أن أنجب بنتًا... اللهم اهـد (عمـر) كي يوافق أن ننجب ثانية."
ضحكت (هالة) بخفوت ولم تعقب، بينما تابعت (نهى) قائلة ـ"بارك الله لك فيها وأشقائها، وألف سلامة لخالك."
ثم ما لبثت الجدية أن غلفت صوتها وهي تسألها باهتمام ـ"والآن ما سر هذا الذبول؟ لا تقولي إنك مازلت على ذبولـك منـذ وفـاة زوجـك رحمـه الله... لقد رأيتك عبر الماسنجر بعدها وكنتِ أفضل حالًا مما تبدين عليـه الآن."
تنهدت (هالة) في ألم وأسبلت جفنيها قليلًا قبـل أن تفـتحهما وتشـير إلى (هيثم) قائلة ـ"(هيثم) حبيبي، أحضـر العصير من الثلاجـة وخـذ أخيـك للداخل."
أطاعها ابنها البكر في هدوء بينما وقف المشاكس الصـغير وعقـد ذراعيـه أمام صدره قائلًا ـ"أريد أن أظل مع طنط (نهى)."
رمقته أمه بنظرة صارمة لا تتناسب وضـعفها الحـالي وهـي تقـول بحـزم ـ"اذهب إلى غرفتك وحينما ننهي حديثنا سأسمح لـك بـالجلوس معهـا.. هيا."
أطاعها الصغير بتبرم وخرج من الغرفة في الوقت الذي دخل فيه (هيـثم) حاملًا صينية أنيقة وعليها كوبين من العصـير المـثلج وضـعها أمامهـا ثـم خرج وأغلق الباب خلفه في هدوء ورصانة. حينهـا التفتـت إلى صـديقتها قائلة ـ"ما شاء الله تبارك الله...لقد صار (هيـثم) رجـلًا بتصـرفاته رغـم ملامحه الطفولية...لقد نضجت قبل الأوان يا صغيري."
تنهدت (هالة) ثانية وهي تهز رأسها قائلـة ـ"كلنا تغيرنـا يـا (نهـى). أنـا

أيضًا لم أعد كما كنت. لقد تغيرت حينما تزوجت (حازم)، وتغيرت ثانية حينما توفى فجأة. وربما أتغير من جديد، والمشكلة أنني لم أستسغ هذه التغيرات بعد."
ربتت على كفها لتشجعها على الحديث قائلة ـ"(هالة) كفى تلاعبًا بأعصابي...أخبريني ماذا حدث."
خللت (هالة) شعرها الأسود بأصابعها للحظات قبل أن تعتدل وتقدم العصير إلى صديقتها قائلة بلهجة محايدة ـ"حماي العزيز حضرة العمدة."
عقدت حاجبيها متسائلة بفضول ـ"ماذا به؟ هل يضايقك؟"
هزت كتفيها قائلة ـ"لا أدري بم أصف ما يحدث...حماي العزيز يريدني أن أتزوج."
توقفت عن شرب العصير الذي شعرت به يخنقها فسعلت في قوة وهي تضع الكوب على الطاولة أمامها ثانية قائلة ـ"ماذا؟ تتزوجي؟"
هزت (هالة) رأسها في ألم قائلة ـ"نعم، المهم أنه يريد مني أن أتزوج (طارق) شقيق (حازم) رحمه الله."
سألتها في حيرة ـ"أليس متزوجًا؟"
هزت (هالة) رأسها نفيًا فتابعت (نهى) ـ"وهل يشبه أخاه؟"
تنهدت (هالة) في عمق وهي تقول ـ"مختلف تمامًا قلبًا وقالبًا. مختلف في الشكل والطباع وكل شيء. ولكن ليس هذا ما يضايقني."
عقدت حاجبيها ثانية في انتظار (هالة) التي تابعت قائلة بإحباط ـ"هل أصبحت حكرًا على أبناء حضرة العمدة؟ يتوفى الكبير فأتزوج الصغير؟"
سألتها في حيرة ـ"وما مبرر حميك لهذا الزواج؟ ألا يزال يؤمن بالتقاليد الريفية القديمة؟"
أومأت (هالة) برأسها في صمت، فتابعت (نهى) باهتمام ـ"وما هو موقف (طارق)؟"
مطت (هالة) شفتيها قائلة ـ"برود وصمت مطبق...إنه لم يتحدث معي في شيء حتى الآن، ولا أظنه يستطيع الوقوف في وجه والده."

عقدت حاجبيها ثانية وهي تقول ـ"هل يعني هذا أنه مجبر على الـزواج منك؟ ألا يزال هناك آباء بهذه القوة وأبناء بهذا الاحترام؟"
هتفت بها (هالة) في ضيق ـ"(نهى) لا أريـد تحليلًا...أريـد الخـروج مـن هذا المأزق..أنا لا أريد الزواج من (طـارق) أو غـيره. لقـد انتهـت حيـاتي بوفاة (حازم) رحمه الله ونذرت حياتي لأبنائنا. كما أنني لا أريد أن أظلم (طارق) بزيجة كهذه..إنه طبيب شاب ووسيم ويستحق من هي أفضـل مني، فلماذا أظلمه بزوجة مستهلكة وأم لثلاثة أطفال؟"
شعرت بقبضة بـاردة تعتصر قلبهـا مـع وصـف صـديقتها لنفسـها بأنهـا "مستهلكة" فهتفت بها ـ"لا تقولي ذلك...أنـت مازلـت صـغيرة ولا زالـت هناك فتيات في عمرك وأكبر منك لم يتزوجن بعد و...".
سالت دموع (هالة) وهي تقاطعها قائلة ـ"فلماذا لا يتزوج أيًا منهن إذًا؟ لماذا يربط نفسه بي؟"
ربتت على كـف صـديقتها قائلـة بهـدوء ـ"إما لأنـه لا يحـب في الوقـت الحالي، أو لأنه لا يعترف بالحب، أو لأنه يشـعر بالمسـؤولية الملقـاة عـلى عاتقه بعد وفاة شقيقه."
وكأنها ضـغطت زرًا فجّـر ذكريـات كامنـة في عقـل وقلـب (هالـة) التـي انتفضت في غضب قائلة ـ"لا يعترف بالحـب؟ هـل انتهيـت مـن (حـازم) وجمود مشاعره لأقع في نسخة ثانية منه؟"
فوجئت (نهى) بارتجافة صديقتها فاحتضنتها في حنـان لتمـتص انفعالهـا قائلة ـ"(هالة)..ماذا بـك؟ إنـك تحيرينني...أترفضـين الـزواج أم ترفضـين الشخص أم ترفضين المشاعر؟"
انهمرت دموع (هالة) على كتف صديقتها وهي تجيـب بصـوت مختنـق ـ"لم أعد أعلم ماذا أريد وما لا أريد...لقد فقدت تركيزي وفقدت القـدرة على التمييز و...".
ربتـت عـلى ظهرهـا لتحـاول تخفيـف توترهـا قائلـة ـ"لا داعـي لهـذا كله...اهدئي قليلًا حتى نستطيع التفكير بشكل عقلاني."
قالتها وهي تلتقط كوب العصير الثاني وتعطيه لها قائلة ـ"اشربي العصـير

يا حبيبتي...سيهدئ أعصابك."
التقطت (هالة) الكوب بأصابع مهتزة وارتشفت منه قليلًا قبل أن تعيده إلى الطاولة وتـدفن وجهها بـين كفيهـا البـاردين مـن الانفعـال. وحينهـا قطعت (نهى) حبل الصمت الذي امتد لدقيقة أو يزيد قائلة بلهجة مـن يفكر بصوت مرتفع ـ"حضـرة العمدة يريد أن يضـمن وجـود مـن يهـتم بالأولاد ويعتني بهم دون أن يثير وجوده الأقاويل...فلماذا لا يتزوج مـن والدتك ويقيم معكم هنا أو تنتقلوا أنتم إلى حيث يقيم و..".
قاطعتها (هالة) حينما رفعت وجهها عن كفيها في حـدة ورمقتهـا بنظـرة مستنكرة قبل أن تنفجر في الضحك بشكل يتناقض ودموعها التي لا تزال تغرق وجهها، فعقدت (نهى) حاجبيها متسائلة ـ"ما المضحك في كلامي؟"
استمرت (هالة) في الضـحك وهـي تنظـر إلى صـديقتها وقالـت مـن بـين ضحكاتها ـ"أعانك الله يا (عمر)...لقد أذابت شمس الخليج مخ زوجتك."
لكزتها (نهى) في كتفها قائلة بحنق ـ"أيتها السـخيفة...أهذا جـزائي لأنـني أفكر معك؟"
مسحت (هالة) وجهها من أثر الدموع قائلة ـ"بل جزائك لأنك لا تفكرين بشكل منطقي...فالسبب الذي دفع حـماي إلى اقتراحـه هـو أنـه أُصـيب بذبحة صدرية حينما علم بوفاة (حازم) رحمه اللـه، وبالتـالي فصـحته لم تعد كما كانت، وهو يريد بزواجـي مـن (طـارق) أن يضـمن وجـود مـن يهتم بنا حتى بعد وفاته. وتعلمين جيدًا أن أمي رفضت الـزواج بعـد أبي رحمه الله، ولن تغير رأيها بعد كل هذه السنوات."
قاطعتها (نهى) قائلة في حيرة ممزوجة بالسخرية ـ"ما دمت تتمتعين بهذا العقـل المتفـتح وتـدركين الهـدف مـن الزيجـة، فلـماذا ترفضـينها؟ هـل تعتقدين يا سوبر وومان أنـك قـادرة عـلى تكـرار نمـوذج والـدتك؟ هـل تعتقدين أنك قادرة على تربية ثلاثة أطفال في عصرنا هذا وحدك؟"
همت (هالة) بالاعتراض حينما تابعت (نهى) قائلة بهـدوء ــ"لقد كانـت والدتك مسئولة عن طفلة واحدة وكان إلى جوارها شقيقها، وربما شجعها ذلك على عـدم الـزواج ثانيـة...ولكن انظـري إلى وضـعك...أرملة وحيـدة

ومعها ثلاثة أطفال في زمن قلما يساعد فيه الشقيق شقيقه، فممن تنتظرين المساعدة؟ من خالك المريض؟ أم والدتك التي لم تنس معاناتها السابقة كأرملة، أم تتوقعين أن يترك أبناء خالك مصالحهم وزوجاتهم من أجلك؟ هل لك أن تجيبي؟"
اتسعت عينا (هالة) وهي تنظر إلى صديقتها التي صدمتها بالحقائق كلها كمدفع رشاش سريع الطلقات، فظلت تتأملها للحظات في صمت قبل أن تقول بتخاذل ـ"(نهى)..أنا...."
استحثتها (نهى) على الحديث قائلة ـ"أنت ماذا؟ أنت لا تزالين مضطربة المشاعر، وكما قلت بلسانك فاقدة للتركيز والتمييز...لكنني أرى أن هذه الزيجة قد تكون التعويض الذي أرسله الله إليك بعد معاناتك مع (حازم)... معاناتك التي لم تخبري بها والدتك، والتي لولا صداقتنا وجيرتنا ما عرفت بها...استخيري الله يا (هالة) وحينها سيرتاح قلبك."
لمعت عينا (هالة) فجأة وكأنها تذكرت شيئًا، فعاد العناد إلى صوتها وهي تقول ـ"وماذا عن معاش (حازم) رحمه الله؟ إذا تزوجت فسيلغى نصيبي من المعاش و..."
قاطعتها صديقتها في سخرية قائلة ـ"هل تريدين إقناعي بأن معاش التقاعد يكفيكم؟ حتى وإن تعدى الألفي جنيه فلن يفيدك في شيء، ولن يكفي لفتح بيتك. ثم إن زواجك سيحرمك أنت فقط من نصيبك في المعاش لكن معاش أبنائك سيظل كما هو فعليًا...تحججي بغيرها."
اعترضت بعناد جعلها تبدو أشبه بصغيرها (هاني) وهي تقول ـ"ولكني مصرة على أنني أستطيع العناية بأبنائي وحدي دون مساعدة خارجية."
أحاطت (نهى) رأسها بكفيها هاتفة ـ"يا ربي...لقد سببت لي صداعًا بعنادك يا (هالة)...اسمعي...ما رأيك أن تراهني نفسك؟"
بدا الحماس في عيني (هالة) وهي تنصت باهتمام إلى صديقتها التي قالت ـ"راهني نفسك قبل الذهاب إلى أي مصلحة حكومية لإنهاء أي شيء يتعلق بأبنائك والمجلس الحسبي، فإذا استطعت إنهاء ما تريدينه دون مساعدة حميك أو (طارق) ارفضي الزيجة...أما إذا فشلت فلا يوجد

أمامك سوى القبول بالزواج."
اتسعت عينا (هالة) وهي تسأل صديقتها بذهول ـ"(نهى) ماذا تقولين؟"
نفضت (نهى) كفيها قائلة بحزمٍ ـ"هذا هو الحـل الوحيد...اسـتخيري ثـم راهني نفسك، ولن أفتح فمي أيًا كان قرارك بعدها."

وبدا أن هذا هو أفضل الحلول المتاحة.

*****

(٦)

ظلت(هالة) على موقفها الرافض للزواج بشكل عام، ومن شقيق زوجها بصفة خاصة، وبدا أنها ستنتصر وأن 'حضرة العمدة' قد اقتنع بوجهة نظرها.

ولكن جاءت اللحظة الحاسمة التي كانت تخشاها، واضطرت إلى الذهاب إلى مصلحة حكومية لإنهاء بعض الأوراق لتحويل معاشها ومعاش أبنائها إلى البنك بدلًا من وزارة التأمينات التي ترهقها بالوقوف في صف لا نهاية له.

يومها تنقلت من مكتب إلى مكتب ومن طابق إلى طابق ومن موظف إلى موظف دون جدوى حتى أوشكت على الانهيار...

وحينها، حينها فقط استسلمت وأخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها لتتصل بـ(طارق) بصوت مختنق تطلب منه المساعدة.

والشيء الغريب أن مجرد وجود (طارق) إلى جانبها في هذا اليوم منحها نوعًا من الثقة في وجه الموظفين الذين يتعاملون ببرود اكتسبوه من طول تعاملهم مع الجمهور. ولكن ظلت غصة ما تخنقها كلما نظرت إليه ووجدته يتعامل بابتسامة واثقة مع الجميع وروح مرحة أجبرتهم على إنهاء ما يريده من أوراق في وقت قياسي. غصة مبعثها شعورها بخسارة الرهان...رهانها مع نفسها ضد الجميع.

حينما أنهى (طارق) الأوراق صحبها إلى سيارته، وما أن جلس خلف المقود حتى فوجئ بدموعها تغرق وجهها فهتف بها في قلق

ـ"(هالة)...ماذا بك؟ لماذا تبكين؟"

لم تستطع الإجابة، وإن ازداد انهمار دموعها وازداد قلقه معها فتابع

ـ"(هالة) لا توتري أعصابي...ماذا حدث؟ هل ضايقك أحد الموظفين؟ أدري أنهم يتعاملون ببرود ولكن...".

قاطعته حينما وجدت صوتها أخيرًا، وقالت بانكسار يعكس شعورها بالهزيمة ـ"(طارق)...أنا موافقة على الزواج."

قالتها دون أن تنظر إلى عينيه، ودون أن تستمع إلى ما قاله بعدها...

فقد وقعت للتو شهادة وفاة حريتها بعيدًا عن أبناء الحاج (حفني).

***

بعد مـرور أول ذكـرى سـنوية لوفـاة زوجهـا، عقـد(طارق) قرانـه عليهـا وانتقل ليقيم معها ومع أبنائها.
ولدهشتها فقد كانـت سـعادة الأولاد بوجـود عمهـم معهـم لا توصـف، حتى أنهم وافقوا مرغمين على النوم بعد منتصف الليل كي لا يتركوه.
حين تبعته إلى غرفتهما وجدته واقفًا أمام الشـرفة يحـدق في هـدوء ليـل الشتاء صامتًا فتنحنحت قائلة في حرج ـ"أي من جانبي الفراش تفضل؟"
استدار إليها في هدوء وهو ينقل بصره بين وجهها والفراش في بـطء قبـل أن يسألها ـ"على أي جانب تنامين؟"
مطت شفتيها قائلةـ" الأيمن، لكن لو..."
قاطعها بإشارة من يده قائلًا بلا مبالاة ـ" سأنام على الجانب الآخر إذًا."
ثم تابع بنفس اللامبالاة ـ" يمكنـك النـوم الآن لـو أردت، فأنـت تـرهقين نفسك كثيراَ في البيت. سأقف قليلًا في الشرفة إذا لم يكن لديك مانع."
هزت كتفيها قائلـة ــ" كـلا، لـيس لـدي أي مـانع، فقـط تأكـد مـن ثقـل ملابسك، فالجو يزداد برودة في المساء."
أومأ برأسه في صمت قبل أن يخرج إلى الشرفة ويغلقها خلفه تاركًا(هالة) وحيدة في غرفتها التي ملأها الهواء البارد لحظة أن فتح زجاج الشرفة.
قاومت شعورها بالاختناق وجلسـت عـلى طـرف الفـراش وقبضـة بـاردة تعتصر قلبها... لقد صدق حدسها، فقد وافق مرغمًا مثلها تمامًا، فقـط كي يرضي أبيه وكي يعتني بأبناء أخيه.
وللحظة غالبها شعور صبياني بالضيق لأنها لم تخبره بسخرية أن شقيقه لم يضع جانبه على هذا الفراش، فعضت على شفتيها في غيظ، ثم مـا لبثـت أن هزت رأسها وتنهـدت في عمـق قبـل أن تتمـدد عـلى فراشـها وتتـدثر بالغطاء متظاهرة بالنوم.

***

كان داخله يموج بعواصف قوية حاول جاهدًا أن يخفيها خلف ستار مـن البرود.
لم يكن سهلًا عليه وهو الرجل الناضج أن يُجبر عـلى زواج مثلـه مثـل أي فتاه تأتمر بأمر والدها.
فحتى الفتيات أصبحن يرفضن الانصياع لأوامـر أهلهـن إذا لم يـرق لهـن العريس المتقدم.
فكيف به وهو رجل بالغ يقارب السادسة والثلاثين؟
يعلم الله كم حاول الاعتراض على طلب والده... لكنه لم يقدر.
ليس لضـعفه وإنمـا لأنـه لم يعتـد رفـض أي طلـب لوالـده... كـما أنـه لم يستطع أن ير نظرة الانكسار في عيني ذلك المُهاب الذي يحترمه الجميع.
بالنسبة له هـو لا يهابـه فقط..بـل يحبـه أيضًـا ويـدرك حالتـه النفسـية والصحية السيئة منذ وفاة ابنه البكر.
لذا شعر بأنها أمنية رجل قارب محطة حياته الأخيرة وهذه أمنيتـه التـي لابد من تحقيقها.
شعر بأنه الأمل الباقي لأبيه بعد وفاة شقيقه الأكبر،
ولم يكن أمامه سوى طاعته من أجل شيخوخته، ومن أجل أبنـاء شـقيقه الراحل الذين سيبقى بقربهم مثلما يشاء دون حرج.
أبناء شـقيقه الـذين يعشـقهم كـم لـو كـانوا أبنائـه مـن صـلبه، ويـدرك مشاعرهم بافتقاد الأب،
هو نفسـه عـانى _وهـو الرجـل_ حيـنما توفيـت أمـه وهـو عـلى أعتـاب الرجولة.
فكيف بأطفال في عمر الزهور؟
ولكن كل هذا لا يبرر هجره لأحلامـه في أن تكـون لـه زوجـة خاصـة بـه وحده تعيش معه في بيته الذي جهزه بكل ما يحباه سويًا.
(هالة) بالفعل تستحق كل الخير لكنه لـن يسـتطيع تخيلهـا في أي وضـع سوى زوجة شقيقه، وهو لا يحب هذا الشعور.
لا يحب الظلم... وهو سيظلمها بكل تأكيد.

فهنا سيشعر بخيال(حازم) في كل ركن، رغم ثقته بأن شقيقه لم يسكن الشقة يومًا، ولكن كل أرجاء الشقة تذكره بالراحل.
ألوان الحوائط تحمل طابع أخيه التقليدي، وتصميمات الأثاث تحمل ذوقه الكلاسيكي... حتى اختياره لشقة في الدور العاشر لأنه يحب الشعور بأنه في القمة.
كل شيء يحمل بصمته، وكأنه وضعها عامدًا لتظل ذكراه تحاصرهم إلى الأبد.
إنه لا يطمع في أن يحتل مكان شقيقه في منزله، ولا يريد أن يفرض نفسه على (هالة)، ففي هذه النقطة بالذات يجب أن تكون له شخصيته المستقلة.
ولكن كل ما يستطيع فعله هو أن يحتوي أبناء أخيه بحنانه، وبإمكانه إبقاء هذا الزواج بشكل صوري يتيح له دخول المنزل دون إثارة الأقاويل وفي الوقت ذاته يرفع عنه وعن(هالة) الحرج.
لا يدري كم ظل واقفًا في الشرفة هكذا يدخن السيجارة تلو الأخرى، لكنه شعر بشفتيه ترتجفان من البرد حول مبسم السيجارة الرابعة أو الخامسة فألقى نظرة سريعة على ساعة يده ليجدها تجاوزت الثانية صباحًا.
كانت لسعة البرد شديدة وجسده بأكمله تقريبًا يرتجف لكنه كان لا يزال عاجزًا عن تصور فكرة مبيته مع(هالة) في غرفة واحدة، ناهيك عن نفس الفراش.
غير أن لسعة البرد كانت أقوى من اعتراضاته الداخلية وهي تسيطر على جسده الذي تزايدت رجفته، فاستدار في بطء يراقب(هالة) من خلف الزجاج ليتأكد من استغراقها في النوم قبل أن يعود للغرفة في خفة ويغلق بابها خلفه في هدوء.
و كانت أطول ليلة في حياتيهما.
فقد ظلت (هالة) تتظاهر بالنوم حتى قرب الفجر عندما غفت عيناها أخيرًا.
أما هو فلم يحاول التظاهر بالنوم، بل ظل جالسًا يحدق في ظلام الغرفة

ساندًا رأسه إلى ظهر الفراش وذراعاه معقودان أمام صدره، وبين الحين والأخِر يراقب عقارب ساعته التي بدت كسلحفاة تمشي الهوينى.
وأخيراَ بزغ الضياء معلنًا بدء يوم جدِيد.
ومع ذلك لم يطرف جفنا (طارق) طلباَ للنوم.

***

قبل أن تعلن الساعة تمام الثامنة كانت تفتح عينيها في كسل وعلى وجهها أجمل ابتسامة، فقد كانت عادة لديها أن تستقبل الصباح الجديد بابتسامة، ويبدو أنها فعلت ذلك متوقعة ألا يرها أحد.
لكن(طارق) رآها وبادرها بقوله ـ"صباح الخير."
لحظتها شعرت بأن هذه الابتسامة لا مكان لها، أو أن هذا ليس هو الوقت المناسب أو...
لا تدري لم نضت الابتسامة عن وجهها وهي ترد في هدوء ـ"صباح الخير."
ربما ظنت أن ابتسامتها تلك تعني موافقتها على الزواج، أو موافقتها على ما فعله معها، ولكنها...
قطع انسياب أفكارها صوت(طارق) الودود يقول ـ"لم أرد إيقاظك لعلمي بأنك مرهقة، لقد استيقظت قبلك بقليل."
نهضت من الفراش في سرِعة وهي تغمغم في سخرية ـ"وهل نمت من الأساس؟ لقد ظللتَ جالسَا حتى الفجر، وربما حتى الآن."
شعر بحرج بالغ وهو يسمعها، إذًا فهي الأخرى لم تنم إلا متأخراَ وبالتالي أدركت أنه لم ينم و...
قطع صوتها إحراجه وهي تتابع بهدوء ـ"بعض الناس لا يتكيفون سريعًا مع تغيير فراشهم."
بدت عبارتها وكأنها طوق النجاة من الحرج الذي يكتنفه فأسرع يقول موافقًاـ"بالفعل هذا ما حدث."
ارتسمت ابتسامة ساخرة أخرى على شفتيها تؤكد عدم تصديقها له قبل أن تسأله بهدوء ـ"ما هي الأطعمة التي تحب تناولها في كل وجبة كي

أعدها لك؟"
هز كتفيه قائلًا ببساطة ـ"لاشيء محدد، فأنا أحب كل شيء. سآكل مما تأكلون منه."
هزت رأسها وهي تتجه نحو الباب قائلةـ"حسنًا، سأذهب لأعد الإفطار."
استوقفها وهو ينهض مسرعًا من الفراش قائلًاـ"ريثما تعدين الإفطار، أيكون الأولاد مستيقظين الآن؟"
ألقت نظرة سريعة على الساعة المجاورة للفراش قبل أن تقول ـ"عادة ينامون لما بعد الآن يوم الجمعة، ولكن مع وجودك فلا أشك في أنهم استيقظوا في نفس موعد المدرسة."
وقد كان حدسها صحيحًا، فـ(هيثم) و(هاني) كانا منهمكين في ألعاب الفيديو، إلا أنهما هرعا إلى عمهما بمجرد أن سمعا صوته وارتميا بين ذراعيه في حب حقيقي بادلهما إياه (طارق) حين احتضنهما بحنان أبوي دافق وقبّل رأسيهما بحب قائلًا ـ"صباح الخير يا أحبائي. أين(هند)؟"
انبرى(هاني)يقول في سرعةـ"الحمد لله أنها ما زالت نائمة. لقد ظلت تبكي طوال الليل وجدتي تحاول إسكاتها دون جدوى حتى نامت أخيراً في الفجر."
وتابع وهو يغوص في أحضان عمه قائلًا ـ"هذا أفضل كي أحظى بنصيبها من العناق."
ابتسم (طارق) في حنانٍ وهو يداعب شعر (هاني) قائلًاـ"لا تخف، نصيبك من العناق محفوظ تمامًا."
تابعت (هالة) بعينيها حوار طفليها الباسم مع عمهما الذي عاد إلى شخصيته الطبيعية دون تحفظ وملأت الابتسامة وجهه الوسيم. وفي هدوء اتجهت إلى المطبخ لتعد الإفطار مع أمها التي رمقتها بنظرة تعرف معناها جيدًا، فقالت لتجيب نظراتها المتسائلة ـ"لقد ظل يدخن في الشرفة حتى الثانية صباحًا ولم ينم حتى الآن."
ولم تزد عن ذلك رغم الدهشة التي ارتسمت على ملامح أمها.
على مائدة الإفطار اقترح(طارق) أن يخرجوا جميعًا في نزهة خلوية، وبدا

الاقتراح مناسبَا جدًا للطفلين اللذان صاحا في سعادة معلنين موافقتهما.
أما (هالة) فبدت متحفظة قليلًا للخروج معه إلى العالم في ثاني أيام زواجهما مباشرة، إلا أنه قال وابتسامته تضيء وجهه -"أنا رجل ديمقراطي، سنأخذ بالأصوات. أنا و(هيثم) و(هاني)و(هند) نوافق على الخروج سويًا. بقى أنت وأمي، إذًا نحن أغلبية وستأتون معنا شئتم أم أبيتم."
ويبدو أن لهجته راقت لـ(هيثم)و(هاني) فقد طفقا يصفقان ويضحكان في جذل شاركتهما فيه شقيقتهما الصغرى رغم أنها لا تفهم شيئًا.
ومر اليوم الثاني بسلام.

*****

(٧)

جلس ساهمًا في مكتبه بالمستشفى وهو يدق بطرف قلمه على سطح المكتب بشرود، ولم ينتبه لدخول فاتنة ممشوقة القوام في أواخر العشرينات، ذات شعر بني ناعم يصل إلى منتصف ظهرها وعينين عسليتين ناعمتين وشفتين رقيقتين تختفيان خلف طلاء وردي لامع، وعلى محياها الرقيق ارتسمت مشاعر متباينة وهي تتأمل شروده قبل أن تحاول أن تبث قدرًا من السخرية في صوتها وهي تقول -"ما للعريس شاردًا؟ أتفكر في العروس؟"

أجفل للحظة وهو يخرج عن شروده وينظر إليها بعينين خاويتين، قبل أن تتحول نظرته إلى نظرة تحمل حنانًا دافقًا وهو يهمس -"(سمر)؟"

اقتربت (سمر) لتجلس على المقعد المواجه لمكتبه وتلتقط القلم من بين أصابعه في دلال وهي تمط شفتيها قائلة -"أجل (سمر) التي نسيتها بسبب عروسك."

قاوم رغبة ملحة اجتاحته في أن يحتضن كفيها وهو يلتقط نفسًا عميقًا ويحتويها بعينيه قائلًا بصدق -"بل (سمر) التي أتنفسها، ولا يمكن أن أتخيل حياتي بدونها."

تخضب وجهها حياءً وهي تخفض عينيها أرضًا للحظات قبل أن ترفعهما إليه ثانية وهي تقول بضيق مصطنع -"بدليل أنك لم تكلمني طيلة اليومين الماضيين."

منحها ابتسامة حانية وهو يقول -"لكن صورتك لم تفارق مخيلتي لحظة...لقد أوحشتني."

داعبت أصابعه بطرف القلم وهي تسأله في غيرة واضحة -"فيم كنت تفكر؟ إنك لم تجب سؤالي."

تأمل عينيها الجميلتين وتاه فيهما للحظات قبل أن يجيبها بحب -"من غيرك أفكر فيه؟"

مطت شفتيها بعدم اقتناع وهي تقول -"ربما كنت تفكر بعروسك."

ضحك من غيرتها وهو يقول -"(سمر)...كيف تغارين وأنت صاحبة

الفكرة؟ ألم تشجعيني على الزواج منها من أجل الأطفال؟"
هزت كتفيها وهي تقول بضيق ـ"نعم شجعتك، وألوم نفسي ألف مرة على هذا الاقتراح...فهي أكيد جميلة وشابة و...".
قاطعها بضحكة ثانية وهو يقول ـ"ولكنني لا أرى غيرك...أنت فقط ملكت قلبي."
قالت في عناد طفولي ـ"لا تنكر أنها جميلة، وأنها كفيلة بإدارة الرؤوس."
تأملها بعينين ضاحكتين وهو يهز رأسه متعجبَا ـ "الأنثى هي الأنثى مهما درست وارتقت في المناصب...قلت لكِ إنني لا أرى غيرك...كما أن (هالة) و(حازم) رحمه الله كانا متحابين، ولن تسمح لرجل آخر بأن يحل محله في قلبها. ولا تنسي أن (هالة) مجبرة على هذه الزيجة مثلي تمامًا. ألم أخبرك أنها أبلغتني بموافقتها على الزواج وهي تبكي؟".
سألته في شك ـ"وهل لا تزال على موقفها الرافض للزيجة؟"
اقترب بوجهه منها عبر المكتب وهو يهمس ـ"أيكفيك أنها لا تزال ترتدي حجابها كاملًا أمامي؟"
برقت عيناها للحظات قبل أن تباغته بالسؤال ـ"ومتى تنوي إذًا إخبار والدك بشأننا؟"
منحها ابتسامة واسعة وهو يقول ـ"انتظري شهرًا أو شهرين...حينها سأخبر والدي أنني لا أرى (هالة) سوى كأختي، وأنني تزوجتها لإرضائه فقط، وأطلب منه أن أتزوج من اختارها قلبي."
عاد الشك إلى صوتها وهي تسأله بترقب ـ"أتظن أنه سيوافق؟"
لاحت نظرة قلق في عينيه لجزء من الثانية قبل أن يحاول ضخ أكبر قدر من الثقة في صوته وهو يقول ـ"ما دمت حققت له طلبه بالزواج من (هالة) والاهتمام بأبناء (حازم) رحمه الله، فلا أظنه سيمانع."
ثم تابع في سرعة وكأنه يحاول إقناع نفسه قبل أن يقنع (سمر) قائلًا ـ"أعتقد أن أبي لم يكن ليمانع زواجنا إذا أخبرته قبل وفاة (حازم) رحمه الله، ولكنه قدرنا أن يأتينا نبأ وفاته في نفس اليوم الذي قررت فيه الحديث مع أبي بشأنك."

تنهدت في عمق ولاح الضيق للحظات في عينيها قبل أن تسأله بتردد
ـ"(طارق)...هل يعلم أي من زملائنا أو أصدقائك بزواجك من (هالة)؟"
هز رأسه نفياَ فتابعت ببطء ـ"ولا حتى (سامي)؟"
ابتسم ليطمئنها قائلًا ـ"ولا حتى (سامي) صديقي الوحيد."
حركت أصابعها بقلق قائلة ـ"ولكنه من نفس قريتكم...إذا لم يعرف منك بأمر زواجك قد يعرف إذا سافر إلى القرية..وحينها...".
قاطعها بهدوء قائلًا ـ"لا تخشي شيئًا...(سامي) لم يعد يسافر إلى القرية منذ وفاة والديه، وجميع إخوته يقيمون في المدينة وتقريبا قطعوا صلتهم بالقرية...وحتى إذا علم بزواجي من (هالة)، فالغرض من الزيجة معروف، وأنا لم أقم احتفالًا ولم أدعه لحضوره كي يتضايق..إنه زواج صوري لا يعلمه إلا المقربون. أما حينما نتزوج أنا وأنت، فلابد وأن أعلن زواجنا أمام الجميع."
هزت كتفيها قائلة برقة ـ"إذا كان الأمر كذلك، فأنت أدرى يا حبيبي."
أغلق عينيه باستمتاع وهو يردد ـ"حبيبي...يالها من كلمة...أعيديها على مسامعي ثانية."
تخضب وجهها خجلًا وهي تقول بدلال ـ"لا تعتد على ذلك...حينما أصبح زوجتك ستمل من سماعها...أما الآن فهي ليست من حقك أو حقي."
عض شفتيه وهو يهمس بحب ـ"هل سأنتظر حتى زواجنا؟ على الأقل أطربي سمعي بكلماتك الرقيقة حتى تروي ظمأ قلبي قليلًا."
ضحكت في خجل وهي تستدير لتغادر مكتبه قائلة ـ"عجّل بزواجنا إذًا حتى لا يطول ظمأك."
وخرجت كما الفراشة الرقيقة، ليعود وحيدًا يداعب قلمه بنفس الشرود.

*****

(٨)

انهمكت في تصحيح اختبارات تلاميذها حتى أنها لم تنتبه لذلك الذي اقترب منها وجلس قبالتها يراقبها في هدوء قبل أن يتنحنح ليلفت انتباهها إليه، ولقد نجح في ذلك، إذ رفعت رأسها في تساؤل شجعه ليقول بهدوئه المميز ـ"(هالة)...كنت أريد التحدث معك بأمر هام."

عقدت حاجبيها للحظة قبل أن تخلع نظارتها الطبية الرقيقة لتقول بابتسامة هادئة ـ"خيراً إن شاء الله."

تنحنح ثانية واعتدل في جلسته قبل أن يقول ـ"لقد طرأ الموضوع على عقلي فجأة وأردت أن أحادثك بخصوصه...إنه عملك."

عقدت حاجبيها طويلًا هذه المرة وهي تقول في حيرة ـ"عملي؟ ماذا به؟"

قال بنفس الهدوء ـ"لاشيء، لقد لاحظت أنك ترهقين نفسك في العمل بالمدرسة دون داع."

شبكت أصابع كفيها قائلة ـ"دون داع؟ وما الداعي المقنع في نظرك؟"

هز كتفيه قائلًا في ثقة ـ"أن تكوني بحاجة إلى المال مثلًا، وهو مالا ينطبق على حالتك."

رمقته بنظرة طويلة قبل أن تقول بثقة هي الأخرى ـ"على العكس تمامًا، فكما أخبرت والدك من قبل، فأنا أعمل ليساعد راتبي مع معاش(حازم) رحمه الله في تربية أبنائي لأنني لا أنوي أن أنفق عليهم من مدخرات والدهم."

أومأ برأسه قائلًا ـ"أعلم هذا، ولكنك الآن متزوجة مني وأنا ملزم بالإنفاق عليك وعلى أبنائك."

تابعت وكأنها لم تسمعه ـ"وإذا لم تكن لاحظت، فزواجي منك اقتطع نصيبي من معاش(حازم) وبالتالي فراتبي سيعوض هذا النقص إلى حد ما."

قال بإصرارـ"معاش المرحوم (حازم) لم يتأثر بزواجنا لأنه يذهب كاملًا لأبنائه. وقلت لك إنني ملزم بالإنفاق علي..."

قاطعته قائلةـ"على أبناء أخيك لأنهم من دمك أما أنا فلا."

هتف بها في حنق ـ"أنت زوجتي."
ارتدت نظارتها بهدوء وهي تتعود لعملها قائلة بلامبالاة ـ"حقًا؟!"
احتقن وجهه في شدة قبل أن يضغط فكيه في غيظ وينهض تاركًا الغرفة لها في غضب واضح.

***

لثوان حاولت التركيز في عملها، إلا أنها فشلت فعادت تخلع نظارتها في عصبية وذكرى مزعجة تطاردها.
تذكرت موقفًا مشابهًا قبل أكثر من عشر سنوات، تعرضت له مع زوجها السابق...شقيقه.
حينها كانت لا تزال عروسًا لم يمض على زفافها سوى شهر أو يزيد، وكانت علاقتها بجارتها (نهى) قد توطدت كثيراَ بحكم أن كلتيهما وحيدة.
كانت (هالة) تقضي أغلب وقتها في صحبة (نهى) التي لم تكن أنجبت ابنها البكر (عبد الله) بعد.
ولكن مع اقتراب العام الدراسي، انتبهت (هالة) إلى أن صديقتها ستعود إلى عملها في تدريس اللغة الإنجليزية للأطفال في مدرسة مجاورة، وحينها ستعود هي إلى الجلوس وحيدة دون أنيس.
وحينما عرضت (نهى) عليها العمل معها في المدرسة التي تحتاج إلى معلمات جدد، كادت (هالة) تطير من السعادة.
فقد أتتها الفرصة التي كانت تحلم بها...
أن تهرب من الفراغ القاتل الذي يحيطها في غياب زوجها وانشغال رفيقتها الجديدة.
ولأنها لم تكن تعلم بطباع زوجها جيدًا...فقد توقعت منه ترحيبَا وموافقة فورية على اقتراح العمل، خاصة وأن المدرسة كانت قريبة للغاية من المنزل.
لكنها فوجئت بوجه غريب تراه لأول مرة...
فقد رمقها بنظرة حادة قبل أن يشيح بوجهه بعيدًا ويتظاهر بقراءة الجريدة قائلًا بجفاف ـ"انسي هذا الموضوع...فزوجتي لا تعمل."

أدهشها رد فعله وألجم لسانها للحظات قبل أن تقترب منه بوجهها وتلمس ذراعه بدلال قائلة ـ"حبيبي أرجوك... الملل يقتلني في غيابك.. وبعد قليل ستعود (نهى) إلى عملها وأعود أنا إلى الفراغ الرهيب وحدي...و..".

قاطعها وهو لا يزال يقرأ الجريدة قائلًا ـ"قلت انسي هذا الموضوع...فأنا لا أتراجع في رأيي."

لم يثنها تجاهله عن محاولة استعطافه ثانية فتابعت بدلال أكثر ـ"حبيبي أنا خريجة كلية التربية، والمدرسة المجاورة بحاجة إلى معلمات جدد، و(نهى)...".

قاطعها بغضب هادر هذه المرة وهو يلتفت إليها ويلقي الجريدة على طول ذراعه هاتفًا ـ"يووووووه (نهى)... (نهى) الله يخر...".

قطع كلمته التي خرجت رغمًا عنه وزفر في عمق قبل أن يستغفر ربه ويقول من بين أسنانه ـ" قلت إنني لا أتراجع في رأيي، ولا أحب أن أقول الكلمة مرتين. أنا لا أحب أن تعمل زوجتي خارج المنزل لأنني لا أقبل أن يُقال إنني أتركها تعمل لأقبض راتبها."

اتسعت عيناها في ذهول واستنكار وهي تستمع إليه وترى عصبيته الشديدة ومفهومه عن عمل المرأة، وقبل أن تفتح فمها للاعتراض تابع هو موضحًا ـ" ولا تقارني بين وضعنا ووضع (عمر) وزوجته...فهو مسؤول عن تزويج شقيقاته وعن إعالتهن بعد وفاة والده، ولهذا سمح لزوجته بالعمل حتى تساعده قليلًا في ترتيب حياتهما الخاصة. أما أنا فأعمل هنا لنفسي وحياتي، ويكفيني ما أجنيه من عملي."

اغرورقت عيناها بدموع الصدمة من عصبيته وهي تقول بصوت مختنق ـ"ولكنك لم تجهز شقتنا في مصر حتى الآن."

منحها ابتسامة ساخرة وهو يقول بتهكم ـ"وهل تعتقدين أنني سأتركك تعملين حتى يُقال إن زوجتي ساهمت في شراء الشقة؟ أنا لم أشتر شقة وأجهزها لأنني لم أستقر على مكان إقامتنا حتى الآن...كنت في انتظار معرفة رأي زوجتي وأين تحب أن تسكن."

قاومت دموعها التي أثرت على صوتها فخرج متهدجًا وهي تقول ـ"أنا لا أريد العمل لأنني بحاجة إلى المال...أريد أن أعمل كي أثبت ذاتي...كي أفيد الآخرين مما تعلمته...كي..".
قاطعها في سخرية قائلًا ـ"اسمعيني جيدًا...أنا رجل شرقي، ولا أحب أن تُثار الأقاويل عني أو عن زوجتي لأي سبب. وكيلا أطيل عليك، فأنا لا أقتنع بتلك الثرثرة التافهة عن حقوق المرأة وعمل المرأة ومجلس المرأة."
ثم تابع قائلًا بنظرة تجسد معنى اسمه ـ"فحقوق المرأة عندي محفوظة لدى زوجها، وعملها هو الاهتمام به وبأبنائه."
عجزت عن كبت دموعها التي تمردت واندفعت تغرق وجنتيها دون قصد، وقد تحطم حلمها على صخرة أفكاره المتشددة.
ورغم ذلك استجمعت شجاعتها وهي تراقبه يستعيد الجريدة ويرتب أوراقها المبعثرة وتسأله في حيرة ـ"من هؤلاء الذين تخشى من أقاويلهم علينا؟ من هؤلاء الذين تهتم بهم أكثر مني؟"
لم يجبها بشكل مباشر وإنما قال بلهجة من أنهى الحديث ـ"(هالة)...أنا رجل البيت وكلمتي هي الأولى والأخيرة، ولا أريد مزيدًا من المناقشة. وإذا أردت الهروب من الملل فأنجبي طفلًا. وقتها لن تجدي أي وقت فراغ."

عادت من ذكرياتها القديمة إلى أرض الواقع وهي تشعر بغصة مؤلمة في حلقها لم تهدأ حتى أفرجت مقلتيها عن دمعتين ساخنتين وهي تقارن في عقلها بين موقف (حازم) رحمه الله وموقف (طارق) قبل لحظات.
يا إلهي...إلى هذا الحد يختلفان وكأنهما نقيضان كالليل والنهار؟
فالاختلاف لا يقتصر على الشكل الخارجي فقط، وإنما يتعداه إلى الأسلوب أيضًا.
لوهلة تخيلت (طارق) ثائرًا مثل شقيقه ويتحدث بنفس الصرامة والحزم، ولكنها ابتسمت رغمًا عنها لأنها موقنة أن الصرامة و(طارق) لا يجتمعان.

وفي هدوء، مسحت دمعتيها عن وجهها ووضعت النظارة من يدها فـوق أوراق الاختبارات، قبـل أن تـنهض وتخـرج مـن الغرفـة لتبحـث عنـه في أرجاء الشـقة حتـى وجدتـه في شرفـة غـرفتهما واقفًـا يـدخن في عصـبية فاقتربت منه في هدوء قائلة ـ"أتدخن هكذا كلما كنت عصبيًا؟"
التفت إليها في حدة للحظات قبل أن يعود بوجهه إلى حيث كـان ينظـر؛ فمطت(هالة)شفتيها قبـل أن تقـول ـ"ألا تعلـم أن التـدخين ضـار جـدًا بالصحة؟!"
نفث دخان سيجارته في قوة أشعرتها بمدى ضـيقه فقالـت بخفـوت ـ"أنا آسفة، لم أستطع توضيح وجهة نظري بالطريقة الصحيحة."
قال بسخرية ووجهه مازال معلقًا بالأفق ـ"حقًا؟! أهنـاك مـا هـو أوضـح مما قلت؟"
تنهدت في عمق قبل أن تقول ـ"(طارق)...الطريق لا يـزال طـويلًا ونحـن مازلنا في بدايته. يجب أن نحتمل بعضنا البعض كي تسير بنا الحياة. أعلم أن كلينا يشعر في قرارة نفسه بأنه مجبر على هذه الحياة بشكل أو بآخر. ونظـرًا لأننـا لم نعتـد هـذه الحيـاة بعـد فسـيحدث بيننـا العديـد مـن الصدامات في البداية والتي أرجـو أن تختفـي فـورًا مـن حياتنـا. الغـرض الأساسي من زيجتنا هذه هو تربية أبنائي وأثق تمامًا في أنني لن أجد لهم أبًا أفضل منك. وفي الوقت نفسه، أرجوك لا تضغط علي في قبول أي شيء خاصة مسألة الإنفاق هذه حتى أعتاد على هذه الأمور."
ألقى بما تبقى مـن سـيجارته بعيـدًا وهـو يسـتدير إليهـا قـائلاً ـ"وحتى تعتادين الأمور، هل سيظل شعرك مغطى بالحجاب كـما لـو كنـت رجـلًا غريبًا عنك؟"
تصاعدت الدماء سريعة إلى وجهها وهي لا تدري أهـي دمـاء الخجـل أم الحرج قبل أن تقول في ارتباك لتغير الموضوع ـ"لقد نسـيت وأنـا أوضـح وجهة نظري أن أخبرك بأهم سبب لعملي."
سألها في هدوء ـ"وما هو؟"
ازدردت لعابًا وهميًا وهي تكرر مـا قالتـه يومًـا لشـقيقه ـ"أنا أعمـل كي

أثبت ذاتي، وكي أستفيد من دراستي الماضية، ولكنني إذا شعرت بتعـارض عملي مع واجباتي الأسرية سأتفرغ لبيتي فوراً."

منحها ابتسامة صافية شجعتها على أن تواصل قائلة ـ"أعدك بذلك مقابل أن تعدني بالتوقف عن التدخين."

فوجئ بمطلبها واضطر أن يقـول بارتبـاك ـ"أنا أدخـن فقـط حـين أشـعر بالضيق والتوتر أو أكون عصبياً."

قالت بإصرار ـ"عدني."

رفع كتفيه في استسلام قائلاً ـ"الأمر لله...أعدك."

*****

(٩)

خطت إلى داخل شقتها في هدوء وهي تمني نفسها بقضاء بعض الوقت في سكينة قبل وصول ولديها العاصف،

ولكنها ما أن تقدمت خطوتين إلى الداخل حتى وجدت أمها وزوجها بل وحماها أيضًا جالسين في الردهة والصمت يلفهم.

لوهلة انقبض قلبها إلا أنها سارعت برسم ابتسامة ترحيب على وجهها لم تنجح في محو القلق من صوتها وهي تقول ـ"مرحبًا بك يا عماه..يا لها من مفاجأة سارة."

ثم ما لبث قلقها أن تغلب عليها فقالت في سرعة ـ"ماذا هناك؟ لماذا أنتم صامتون هكذا؟ هل حدث شيء لـ(هند)؟ أين هي؟"

وبفزع قلب الأم هرعت إلى غرفة الصغيرة لتجدها نائمة في هدوء وحرارتها عادية فتنهدت في عمق وارتياح قبل أن تعود إلى الردهة ثانية وتقول بابتسامة مرتبكة ـ"آسفة لانفعالي...لقد قلقت على(هند)."

ثم ما لبثت أن قالت لحميها ـ"كيف حالك يا عماه..لم نرك منذ فترة."

تنهد الرجل قائلًا ـ"عندما لم تأت أنت جئت أنا."

جلست إلى جوار أمها قائلة ـ"إنها المشاغل يا عماه..فأنا في العمل صباحًا وبعد الظهر أراجع مع الأولاد دروسهم وهي مسئولية مرهقة للغاية كما تعلم، لذا ما أن ينام الأولاد حتى أنام أنا الأخرى فورًا، حتى أنني في بعض الأوقات لا أرى الفراش من شدة التعب."

قال بتهكم ـ"واضح."

عقدت حاجبيها للحظات ولم تعقب في حين تابع هو بنفس اللهجة التهكمية ـ"لقد ظننت أن هناك سببًا أكثر أهمية يمنعك من زيارة البلدة، كأن يكون ركوب السيارة لمسافات طويلة خطرًا عليك."

سألته في دهشة ـ"وما الذي يجعل ركوب السيارة خطرًا عليّ؟ أنا لا أعاني من دوار المركبات وصحتي، والحمد لله، على ما يرام."

قال الرجل بخبث ريفي ـ"إذًا فلا يوجد شيء في الطريق."

انتبهت فجأة لمغزى حديثه فقالت بابتسامة مرتبكة وهي تتبادل

النظرات مع أمها ـ" كلا، لم يأذن المولى بعد."
اقترب بوجهه منها قائلًا بتهكم ـ"بالطبع لا يوجد شيء لأنه لا يأتي باللاسلكي."
احتقن وجهها بدماء الحرج وشعرت بحرارة فائقة تلهب جسمها كله وهي تسمع حماها يقول هذا، وأغاظها صمت زوجها الذي أحنى رأسه أرضًا، فالتفتت إلى أمها تطلب منها العون؛ ولم يكن حال الأم بأفضل من حال ابنتها، لذا هبت واقفة وهي ترتجف من الانفعال قائلة ـ"ماذا تعني يا عمي؟"
ظهرت نبرة العزم في صوت حميها وهو يقول ـ"أعني أنه ما من زوجة صالحة تتمنع عن زوجها مهما كانت الأسباب."
أدارت عينيها إلى زوجها في حدة إلا أن وجهه كان لا يزال أرضًا، وشعرت بجفاف حلقها فقالت مدافعة عن نفسها ـ"أأخبرك هو بذلك؟"
زاد الحزم في صوت حميها وهو يقول ـ"أخبرني أو لم يفعل ليس هو المهم، المهم هو أنني أعرف بالفعل؛ كما أنني لست أعمى. (طارق) ابني تتمناه ألف فتاة لم يسبق لها الزواج بعد، ومع ذلك وافق على الزواج منك، ولا أعتقد أن هذه طريقة سويّة لرد الجميل."
شعرت بالأرض تميد تحت قدميها فجلست على أقرب مقعد ذاهلة وعيناها لا تفارقان وجه(طارق)، في حين اعترضت أمها قائلة ـ"يا حاج(حفني)، لا داعٍ لما تقول؛ كلانا يعلم ظروف الزواج وليس لنا أن نتدخل في حياتهما."
التفت إليها قائلا ـ"أتعنين أنك على علم بما تفعله ابنتك مع ابني؟"
أجابته بثقة ـ"هذه أسرار شخصية ولا يحق لمخلوق سواهما معرفتها، حتى أنا وأنت."
سألها بحدة ـ"أتقصدين أن الخطأ يقع الآن على ابني لأنه باح لي بمكنونات صدره؟ لأنه شاركني همومه؟"
همت بالرد عليه عندما هتفت(هالة) بـ(طارق) بصوت مبحوح ـ"قل الحقيقة، قل إنني بريئة من هذا الاتهام."

إلا أن القول لم يأت من بين شفتي زوجها الذي أحاط رأسه بكفيه وكأنه يسد أذنيه عن صوتها.
القول أتى من حميها، العمدة، فقد قال في غلظة ـ"الحقيقة هي أنك إن لم تعدلي عن أفعالك غير المسئولة تلك فسأزوجه من أجمل بنات مصر. أتفهمين؟"
قالها ونهض مغادرًا الشقة لينهي المناقشة بأوامره كالمعتاد.

***

ساد صمت مطبق للحظات قطعه صوت(هالة) المنفعل وهي تهتف بزوجها في حرقة ـ"لماذا لم تقل الحقيقة؟ بل لماذا كذبت من الأساس؟ أنا تمنعت عليك؟ لماذا لم تخبره أنك قضيت ليلة زواجنا في الشرفة؟ لماذا لم تخبره بأنك غيرت نوباتك في المستشفى لتقضي الليل بطوله هناك وتنام هنا فترة وجودي بالمدرسة؟ لماذا لم تخبره بالحقيقة؟"
أخرجت غيظها في الحجاب الذي نزعته عن رأسها في حدة وألقته بعيدًا قبل أن تطلق لدموعها العنان لتنهمر على وجهها في سرعة.
ظل(طارق) على وضعه للحظات أخرى قبل أن يقول بصوت خفيض ـ"آسف يا(هالة)، لقد حدث سوء تفاهم."
هتفت من بين دموعها ـ"سوء تفاهم؟! أبعد كل هذا تقول سوء تفاهم؟ ألم يلحظ والدك أنك لا ترتدي دبلة في إصبعك؟ ألم يلحظ أن زواجنا مقصور فقط على العائلة ولا يعلمه أي من أصدقائك أو زملائك؟"
فتح فمه ليجيبها عندما تابعت هي قائلة ـ"وحتى لو أنني ابتعدت عنك، فكيف تخبر والدك بأسرار زواجنا؟ أمي نفسها، والتي تقيم معنا تحت نفس السقف لا تدري شيئًا عن هذا، وأنت تخبر أبيك بالأكاذيب عني؟ لماذا لم تخبره بأنك أنت بدأت بالابتعاد؟"
هتف بها بارتباك قائلًا ـ"(هالة)! أنا لم أخبره أيًا مما قال."
ثم استدار يستنجد بأم زوجته قائلًا ـ"صدقيني يا أمي، أنا لست صغيرًا إلى هذا الحد، ولن أفشي أسرار بيتي حتى إلى أبي."
مسحت(هالة) دموعها في عصبية ونهضت قائلة ـ"صغير أو كبير، لا

فارق. يكفي أن تخبر أباك أنك مُكره على هذا الزواج. ليس هذا فحسب، فأفعالك هذه لا تصدر عن رجل مكره على الزواج فقط، وإنما عن رجل يحب ويخشى أن يخون حبيبته."

اتسعت عيناه في دهشة وارتجفت شفتاه للحظات قبل أن يلتقط مفاتيح سيارته ويسرع مغادراً المنزل.

*****

(١٠)

فتحت باب غرفتها في هـدوء ودلفـت إليهـا في خفـة كي لا تـوقظ النـائم الذي عاد من عمله منذ بضع ساعات فقط، ولا ريب أنه غارق في النـوم الآن.

إلا أن حدسها خانها، إذ كان(طارق) مستيقظًا بالفعل، أو بالأحرى لم ينم بعد رغم عينيه الناعستين وشعره الأشـعث وملابسـه المتهدلـة وجلوسـه على طرف الفراش.

ولعلمها أنه لن يحادثها كما اعتـاد منـذ شـجارهما الأخـير، فقـد اتجهـت مباشرة إلى الصوان وفتحته لتأخذ مـا أتـت مـن أجلـه. وعـلى غـير توقـع جاءها صوته الهادئ يقول ـ"(هالة)، أريد التحدث معك."

ورغم دهشتها العارمة، حافظت على جمود ملامحها وهي تسـتدير إليـه قائلة في برود ـ"خيراَ"

تنهد في عمق وهو يرمقها بعينيه العسليتين قبل أن يقـول بهـدوء حـازم مشيراَ إلى الفراش ـ"اجلسي."

مطت شفتيها قبل أن تجلس متصلبة على طـرف الفـراش دون أن تنـبس بحرف وعيناها تنظران في عكس اتجاه جلوسه.

وللحظة ظل(طارق) يراقبها في صمت وأصـابعه تعبـث بخصـلات شـعره البني الناعم في حركة اعتادت عليها(هالة) كلما كان زوجها مرتبكًا.

وأخيراَ تمالك(طارق) جأشه ثم تنحنح قائلًا ـ"إننا لا نتحادث منذ أسـبوع رغم أننا نعيش في نفس الشقة."

التفتت إليه قائلة ببرود ـ"وهل أنا السبب في ذلك أيضًا؟"

تنهد قائلًا ـ"أنا لا أبحث عن السـبب، وأعتقـد أنـه يجـب عـلى كلينـا أن يُخرج ما بداخله كي تستمر الحياة كما قلت أنت من قبل."

تنهدت بدورها قائلة ـ"لقد أخرجـت مـا بـداخلي بالفعـل وأنـت تعرفـه جيدًا، المهم هو ما بداخلك أنت. أم أنك كتوم مثل(حازم) رحمه الله؟"

هز رأسه قائلًا ـ"ربما أكون كتومًا إلى حد ما حتى عـلى أقـرب النـاس إليّ، لذا يجب أن تثقي في أنني لم أقل لأبي أي شيء عن حياتنا سـويًا. كـل مـا

هنالك أنه سألني عن أحوالي معكم وقال بفخر إنه اختار لي أفضل زوجة، وإنني سأسعد معك إلى آخر هذا الكلام، وردًا على ذلك أخبرته بأن هناك حاجز نفسي يفصلني عنك ويجعلني -حتى الآن- لا أستطيع رؤيتك في صورة مغايرة لصورة (هالة) زوجة أخي الراحل؛ أما الأولاد فهم قرة عيني وأحبهم أكثر مما لو كانوا أبنائي بالفعل. وهكذا لم يمهلني أبي الفرصة كي أتم ما عندي لأنه اكتفى بما سمعه وأتى خصيصًا لينهي ما أسماه بالمهزلة."

أشاحت بوجهها بعيدًا وهي تقول بمرارة -"وأي مهزلة! إنك لم تنطق حرفًا واحدًا للدفاع عني، أو حتى لنفي وإيضاح سوء التفاهم الذي طرأ على حياتنا."

قلب كفيه في حيرة قائلًا -"كيف أعارضه؟ إن أبي صلب الرأي لأقصى مدى، لو أنك لا تعرفينه فأنت بالطبع ما زلت تذكرين صلابة(حازم) رحمه الله. إنها نقطة في بحر صلابة أبي. لا يوجد من يستطيع الوقوف أمام أوامر والدي في أي شأن مهما كان الشأن وأيًا كان الشخص."

التفتت إليه قائلة -"وأنت؟ ألا تملك بعضًا من صلابة رأيه؟"

ابتسم في مرارة وهو ينهض ليقف أمام زجاج الشرفة قائلًا -"أنا!؟ لقد ورثت عن أمي كل شيء، الشكل والمضمون. يكفي أن تعرفي أنني لم أتخذ قرارًا واحدًا طيلة حياتي، ليس عن ضعف مني ولكن لسيطرة والدي على حياتي منذ صغري؛ لقد اختار لي الدراسة والكلية وحتى التخصص. ولا تظني أن(حازم) أفلت من هذه السيطرة، فقد كان خاضعًا لها هو الآخر. وبالطبع لا يخفى عليك أن زواجنا كان تحت ضغط شديد منه، ولم أستطع الاعتراض كعادتي في الاستسلام."

شعرت بحديثه عنها يمزقها من الداخل. لقد كانت واثقة دومًا أن كليهما مجبر على هذه الزيجة، لكنه لم يصرح لها بذلك أبدًا، وليته ما فعل.

وهكذا هتفت به كرامتها -"ولماذا لم تقل لا؟"

استدار إليها قائلًا في دهشة -"أقول لا؟! أقول لا لدخول أجمل ثلاثة ملائكة إلى حياتي؟! أي مجنون يفعل هذا؟"

حاولت أن تضخ الثقة في صوتها وهي تقول -"الأولاد سيظلون أبناء أخيك للأبد، ولا تنس أن الزواج بالذات لابد وأن يقوم على اتفاق واقتناع وليس مجرد تنفيذ لرغبات الوالد مهما كان حبك واحترامك له."
اقترب منها وركع على ركبتيه أمامها قائلًا بصدق -"أنت أفضل زوجة قد يحظى بها إنسان، وتستحقين الأفضل في كل شيء، ولا أجاملك في ذلك. فمن هي في مثل جمالك وحنانك ورقي تفكيرك وسلوكك تستحق الزواج من أعظم الرجال. صحيح أنني تزوجتك من أجل تربية أبناء أخي، إلا أنني عرفت ولمست فيك في فترة زواجنا القصيرة تلك ما لم أعرفه طيلة السنوات العشر التي كنت فيها زوجة لـ(حازم) رحمه الله. وما يؤنبني هو أنني لا أستطيع أن أكَون الزوج الذي تستحقينه."
هزت كتفيها وهي تقول بكبرياء جريح -"المشكلة هي أنني أنا أيضًا لا أستطيع أن أكون لك هذه الزوجة لأن كلينا يحاول الاعتراض لأول مرة في حياته ونريد تنفيذ رغباتنا نحن، خاصة رغباتك أنت."
مط شفتيه في حيرة قبل أن ينهض قائلًا بارتباك -"لقد قلتِ في نهاية شجارنا الماضي جملة تحمل كل أبعاد المشكلة بالنسبة لي."
عقدت حاجبيها وهي تلتفت إلي حيث يقف قائلة -"أية جملة تقصد؟"
أخذ نفسًا عميقًا كي يشجعه على الإجابة قائلًا -"لقد قلت إنني أحب وأخشى أن أخون حبيبتي."
غاص قلبها بين ضلوعها وشحب لونها وهي تسأله بصوت مرتجف -"وماذا تعني هذه الجملة بالنسبة إليك؟"
شبك أصابعه بحركة عصبية وهو يحاول إيجاد الكلمات المناسبة، وأخيرًا حسم أمره قائلًا -"لقد كان حدسك صحيحًا، فأنا مرتبط."
وكانت صدمة قوية لها تضاف إلى قائمة الصدمات في حياتها.

***

عندما نطقت عبارتها ذلك اليوم كانـت في لحظـة غضـب، ولم تتوقـع أن يكون تنبؤها حقيقياَ.
ولكنه حقيقة، لقد قال إنه مرتبط.
وفي ذهول استمعت إليه يروي في سرعة قصة ارتباطه والكلـمات تتـدفق كالسيل من بين شفتيه، يخشى أن يتوقف لحظة فيفقد شجاعته للأبد.
سمعته يقول في حرج ـ"(سمر) زميلتي في المستشفى وأعرفها منـذ زمـن، كنـت في الامتيـاز وكانـت هـي في السـنة الأولى، وبعـدها عملنـا سـوياً واكتشفنا وجود مشاعر جميلة بيننا. لن أطيل عليك، فهي في رأيـي فتـاة أحلامي، وبها جميع الصفات التي أتمناها في شريكة حياتي؛ ولا أقصد أنك لا تملكين هذه الصفات. أنت بالطبع تفهمين قصدي."
سألته بصوت خافت ـ"وهل تعلم بأمر زواجنا؟"
قفزت نبرة حماسية إلى صوته وهو يقول ـ"(سمر) تعـرف كـل شيء مـن البداية لأننا نتشـارك في التفكـير دومـاً، ولا أخفـي عليـك أنهـا هـي مـن شجعتني على إتمام زواجنا لأنها جربت مـرارة اليـتم وذل زوج الأم. إنهـا مثالية بحق."
أومأت(هالة) برأسها إيجاباً وهي تقول ـ"بالفعل، لـيس مـن السـهل أن تثق فتاة في حبيبها وأن تجعله يتزوج من أخرى مهما كانت الأسباب."
تنحنح ليكمـل في حـرج ـ"ولكن كـان لهـا شرطًـا واحـدًا وهـو أن يكـون زواجي منك صورياً، على الورق فقط. وبالطبع لم أعترض لأن هذه أبسط حقوقها."
أزاحت خصلة متمردة من غرتها الطويلة خلـف أذنهـا في حركـة عصـبية، قبل أن تتنحنح بدورها لتكسـب صـوتها قـوة ليسـت فيـه وهـي تقـول ـ"وهل يعلمِ والدك بهذا الارتباط؟"
هز رأسه نفياَ وهو يضع كفيه في خاصرته قائلًا ـ"لقد تُوُفي(حازم) قبل أن أفاتح أبي مباشرة. وبالطبع لا أمل في مفاتحته في ذلك الأمر الآن."
هزت رأسها في صمت ثم تنهدت في عمق قبل أن ترفع عينيها إليه قائلـة ـ"أعتقد أن كثيراَ من أمور حياتنـا قـد اتضـحت الآن، ربمـا متـأخراَ ولكـن

أفضل من لاشيء."
قالتها وهي تنهض لتغادر الغرفة فأسرع يقف أمامها وهو يسألها بحنانه المعهود ـ"(هالة) هل ضايقك حديثي؟ هل أنت حزينة؟"
رسمت ابتسامة هادئة على شفتيها وهـي تقـول ـ"لقد أسـعدني حـوارك معي وأراحنـي كثـيراً، أنـا حزينـة لحالـك أنـت و(سـمر). ولكـن اطمـئن، ستسعدان قريباً جدًا."

وتركت الغرفة في هدوء وقلبها يقطر دمًا.

*****

(١١)

جلست إلى جوار طفلتها الصغيرة تهدهدها لتنام، وشرد ذهنها بعيدًا في حوارها الأخير مع (طارق).
لقد فتح لها قلبه وصارحها بكل ما بداخله،
صارحها بما شعرت به منذ البداية وتمنت لو كان خيالًا...
صارحها بأن قلبه ليس لها، بل لأخرى.
أخرى تحبه بشدة،
أخرى ذات قلب كبير،
أخرى ذاقت مثلها مرارة اليتم،
أخرى ارتضت أن تقاسمها أسرة أخرى حبيبها من أجل مصلحة أطفال فقدوا الأب وبعدهم في سنوات طفولتهم الأولى.
يا لها من فتاة، فتاة شجاعة.
والأهم أنها واثقة من حب(طارق) لها.
ودون أن تدري انسابت دموعها تغرق وجهها وعقلها يعمل في جميع الاتجاهات.
فحتى حينما كان عقلها يحذرها من وجود أخرى في حياة(طارق) لم تحاول اتخاذ أي موقف استعدادًا لمثل هذا اليوم، لم تفكر في وضعها الجديد، وبالتأكيد لم تفكر فيما ستفعله لحل مشكلة(طارق).
إنه الآن يقضي أغلب أوقات فراغه بصحبة أبنائها، ولكن حين يرتبط بحبيبته تلك لن يرونه باستمرار كما اعتادوا؛ فماذا ستقول لهم حينها؟ أتخبرهم بزواجه من أخرى أم تخفي عليهم الخبر رأفة بطفولتهم؟
أفكار عديدة استغرقتها ودموعها تواصل الانهمار على وجنتيها، فلم تشعر بدخول أمها الغرفة إلا حين سمعتها تسألها في قلق -"أتبكين يا(هالة)؟ ماذا حدث؟"
رفعت عينيها إلى أمها ومسحت دموعها سريعًا وهي تزدرد لعابها قائلة بصوت مختنق -"لا شيء يا أمي، لم يحدث شيء."
جلست الأم أمام ابنتها وأشارت إلى عينيها الباكية قائلة -"إنها ليست

دموع تثاؤب، لقد كنت تبكين. أخبريني بالحقيقة."
صمتت(هالة) للحظات قبل أن تقول بخفوت ـ"لقد تحدث(طارق) معي هذا الصباح في غرفتنا."
ارتسمت السعادة على وجه الأم وهي تقـول ـ"الحمد للـه، هـذا مـؤشر جيد. لماذا تبكين إذًا؟"
تنحنحت(هالة) قبل أن تقول بتردد ـ"لقد صارحني بسبب ابتعاده عنـي منذ زواجنا."
لمحت الفضول في عيني والدتها فتابعت في سرعة ـ" إنه مرتبط بزميلة له ويريد الزواج منها، وهي التـي شـجعته عـلى الـزواج منـي في مقابـل أن يكون زواجنا صوريًا، مجرد ورقة تبيح له دخـول البيـت ومتابعـة الأولاد دون حرج، وهو وافقها لأنه رأى ذلك أبسط حقوقها."
اتسعت عينا أمها في دهشة وهتفت باستنكار ـ"ماذا تقولين؟"
داعبت(هالة) شعر صغيرتها وهي تقول ببرود يخفي غليان أعصابها ـ"ما سمعته."
ازداد استنكار الأم وهي تسألها ـ"وهل يعلم الحاج(حفني) بذلك؟"
هزت(هالـة) رأسـها نفيـا قائلـة ـ"كلا، لقـد تُوفي(حـازم) قبـل أن يفـاتح (طارق) والده بأمر زواجه، وبعدها أصّر عمي على زواجنا فلم يجد وقتًا لإخباره."
قالت أمها بثقة ـ" ولماذا يخبره من الأسـاس مـا دام تـزوج بالفعـل. هـل هي أكثر جمالًا منك؟"
تنهدت(هالة) في عمق قائلة ـ"المسألة لا تتعلق بالجمال بل بالقلب، إنـه يحبها ولا يتخيل سواها زوجة له. كما أن من حقـه أن تكـون لـه زوجـة خاصة به هو فقط، فتاة لم يسبق لها الزواج ولم تكن لرجل من قبله."
أشاحت أمها بيدها في ضيق قائلة ـ"سيرفض الحاج(حفني) مجـرد الكـلام في الموضوع. لقد قال بنفسه إنه لن يجد لابنه زوجة أفضل منك و.."
قاطعتها ابنتها قائلة ـ"بل سيوافق يـا أمـي. مـع اسـتمرار ابتعاد(طـارق) عني سينفذ أبوه تهديده ويزوجه كي يفرح بأبنائه كما قال."

ربتت على كف ابنتها قائلة بحنان ـ"ألهذا كنت تبكين؟"
أومأت(هالة) برأسها في صمت، ثم قالت بصوت خنقته الـدموع ـ"كنت أبكي قلة حظ أبنائي، لقد ورثوه مني. في البداية فقـدوا أبـاهم، وبعـد أن ظننت أن الدنيا ابتسـمت لي ولهـم بوجـود عمهـم إلى جوارنـا اكتشـفت موضوع زميلته تلك، وانقلب كل شيء حولي."
رمقتها أمها بنظرة طويلة قبل أن تسـألها مبـاشرة قائلـة ـ"فيم تفكـرين الآن إذًا؟"
هزت كتفيها في حيرة مجيبـة ــ"لا أدري. رغـم تـوقعي لوجـود أخـرى في حياته، لم أكيّف نفسي على هذا الوضع. لقـد كـان خالصًـا لأولادي، والآن سيقسم وقته بيننا وبينها. ماذا سأقول للأولاد حينها؟ وإذا طلبت الطلاق فهل سيوافق؟ وهل سيسمح والده بذلك؟"
ربتت أمها على كفها ثانية وهي تنصحها بحكمـة وثقةــ"لا تتســرعي في طلب الطلاق أو حتى التفكير فيه. فكـري أولًا وأخـيراً في أبنائـك. تـذكري ضحكاتهم معه كلما جلسوا سويًا، وتذكري أن ابنتك لا تعـرف أبًـا سـواه، وأول كلمة نطقتها كانت 'بابا' وكانـت موجهـة إليـه مـثلما فعـل أولادك دون استشارتك. لو فكرت ووجدت أن أبنائك سيصبحون أسعد حالًا بعد انفصالك عن عمهم فالرأي الأخير لك."
سالت دموعها ثانية وهي تقول في حيرة ـ"إنهم الآن أسعد حالًا مما كانوا في حياة(حازم)، كما أنهم تغلبوا عـلى حـزنهم لفقـده وعـادت درجـاتهم الدراسـية للارتفـاع ثانيـة، وأصـبحت الضـحكة لا تفـارق وجـوههم. أنـا نفسـي أشعر بالأمان في وجوده، ولا أدري مـاذا سـأفعل حـين تقاسـمني فيه أخرى."
صارحتها أمها بالحقيقة المؤلمة بقولها ـ"إنه لم يكن لك يومًا كي تتقاسمينه معها، إنه لها منذ البداية. ثم إن وضعك معه لن يتغير، سـتظلين زوجتـه عـلى الـورق شـئت أم أبيـت، وإذا اسـتخدمت عقلـك سـتظلين سـيدة الموقف."
عقـدت حاجبيهـا وعـادت تمسـح دموعهـا وهـي تسـأل أمهـا بـاهتمام

-"كيف؟"
قالت أمها ببساطة -"إذا كانت هي كريمة كوني أنت أكثر كرمًا. ساعديه في الزواج منها وحوليه إلى أخ لك، وقتها لن تعودين إلى الشعور بالخجل كلما رآك وشعرك مكشوف أو وقميصك مرفوع الأكمام. لقد صارحك بأنه يحب أخرى، وضمنيًا بأنه لن يحولك من خانة زوجة الأخ إلى خانة الزوجة. لذا يمكنك استغلال ذلك الوضع لتتحولي إلى خانة الأخت أو الصديقة التي يخبرها بكل ما يضايقه، وقتها حين تنصتين إليه وتهتمين بإبداء النصيحة ستصبحين بالنسبة إليه أهم من زوجته الجديدة. أفهمت؟"
هزت رأسها إيجابًا وهي تقول -"نعم، سأحاول."
ربتت أمها على كتفها قائلة -" حاولي وانجحي. أنت تعرفين مسبقًا الغرض من هذه الزيجة، اجعليها إذًا لهذا الغرض فقط."

*****

(١٢)

طرقت باب غرفتها المفتوح في هدوء فالتفت إليها وعلى وجهه ابتسامة ترحيب عذبة ودعاها للدخول قائلًا ـ"ادخلي يا(هالة)، لماذا تقفين عندك هكذا؟"

هزت كتفيها وهي تدخل الغرفة في بطء وقالت بخفوت ـ"لقد أتيت لعرض مساعدتي في ترتيب حقيبتك إذا لم يكن لديك مانع."

اتسعت ابتسامته وهو يقول بمرح ـ"بنت حلال، أنا بحاجة إليك بالفعل. لقد اشتريت مجموعة ملابس جديدة وأريد معرفة رأيك فيها."

تأملت مشترياته الجديدة بدقة قبل أن تقول بإعجاب ـ"ما شاء الله تبارك الله، ذوقك رفيع للغاية، جميعهم قمة في الأناقة."

ثم أردفت في خبث ـ"أهو ذوقك أنت أم ذوق العروس؟"

قال بارتباك خجول ـ"مزيج من ذوقينا. الحمد لله أنها راقتك."

قالها وانهمك في إعداد حقيبته؛ ومضت لحظة من الصمت قبل أن تسأله في اهتمام ـ"في أي قاعة ستقيم حفل الزفاف؟"

رفع وجهه إليها قائلًا في دهشة ـ"أي حفل زفاف؟"

هزت كتفيها قائلة ببساطة ـ"زفافك أنت و(سمر)."

أشاح بكفه قائلًا ـ"آه، إننا لن نقيم حفلًا، سأذهب مع أبي إلى بيتهم ونعقد القران ثم نتجه إلى شقتنا مباشرة."

هتفت وحاجبيها معقودان في استنكار ـ"ماذا؟! وهل وافق عمي على هذا الكلام؟ بل كيف وافقت(سمر)؟"

أجاب ببساطة ـ"الموضوع ليس بهذه الأهمية، إنها مجرد ليلة مثل أي ليلة أخرى."

رفعت سبابتها معترضة بقولها ـ"كلا، ليست كأي ليلة أخرى، إنها ليلة واحدة في عمر الجميع. يكفي أن خطبتكما كانت عائلية ولم يحضرها أي من زملائكما بالمستشفى، ثم إن حفل الزفاف -مهما كان بسيطًا- هو أقل مكافأة لـ(سمر) على انتظارها لك طيلة هذه المدة."

قال بتردد ـ"ومن سأدعو؟ زملائنا فقط؟"

قالت بحماس ـ"دع والدك يدعو أصدقائه ومعارفه، دعه يفرح ولو لليلة. إنه لم يحضر زواجي على(حازم)، فليحضر حفل زفافك أنت."
جلس على حافة الفراش وهو يسألها باهتمام طفولي ذكرها بطفلها الأوسط ـ" أنتِ لم تخبريني عن حفل زواجك على(حازم)؛ لقد كنت ضابطًا احتياطيًا بالجيش وقتها."
ابتسمت في حرج قائلة ـ"إنها قصة طويلة."
أشار إليها بالجلوس قائلًا بحماس ـ"اجلسي إذًا وقصيها عليّ."
وبعد عدة توسلات من جانبه رضخت أخيرًا وجلست على مقعد مواجه للفراش وشردت بذهنها بعيدًا، إلى ذلك اليوم قبل أحد عشر عامًا أو أكثر.

***

كانت في انتظار عودة خطيبها إلى مصر من أجل الزفاف كما وعدها، ولكن مديره الأجنبي بالشركة رفض منحه إذنًا بالسفر. واضطر (حازم) حينها إلى توكيل والده في عقد زواجه عليها.
ورغم غياب (حازم)، أصر 'حضرة العمدة' على إقامة حفل كبير في قريته بمناسبة عقد زواج نجله الأكبر.
وبعد أن أنهى (حازم) ترتيبات استقدام عروسه، فاجأها بطلبه...
فقد طلب منها أن ترتدي فستان الزفاف وهي قادمة إليه.
يومها نقلت أسلاك الهاتف ضحكتها الجميلة إلى أسماعه وهي تقول بدهشة ـ"كيف أرتدي الفستان دون أن تكون معي؟"
ثم عادت الأسلاك تنقل إليها صوته الهادئ، مشوبًا ببعض السعادة هذه المرة، وهو يقول ـ"من قال هذا؟ سأستقبلك في المطار بالطبع...وبصحبتي مفاجأة."
لوهلة شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبها حينما أتى على ذكر المفاجأة...
فقد خيل إليها شيطانها أنه متزوج بالفعل، وأن زوجته الثانية -أو بالأحرى الأولى- ستكون معه في استقبالها.
لكنها سرعان ما نفضت هذه الفكرة الغبية عن رأسها وهي تضع سماعة

الهاتف بعد انتهاء المكالمة.
وكأي عروس طبيعية، استعدت ليوم زفافها، حتى وإن كان زوجها على بُعد آلاف الأميال. فذهبت إلى مصففة الشعر وارتدت فستان زفاف غاية في الرقة والنعومة، حتى بدت كالأميرة الرقيقة.
غير أنها كانت تذوب خجلًا من نظرات المسافرين في المطار وعلى متن الطائرة، ما بين مهنئ لها ومشفق عليها لأنها وحيدة في هذا اليوم الهام.
وأخيراً هبطت الطائرة على أرض الدولة التي تبدأ بها حياتها الجديدة،
حياة جديدة مع زوج لم تعتد عليه بعد،
زوج لم تره سوى بضع مرات منذ تقدم لخطبتها، ولم تره منذ سفره بعد حفل الخطبة بأسبوع.
ورغم حرارة الجو الشديدة التي استقبلتها لحظة فتح باب الطائرة، شعرت برجفة قوية تهزها لحظة أن رأت بعينيها أضواء صالات المطار عن بُعد.
وبأصابع باردة مرتبكة حملت طرف فستانها قليلًا عن الأرض حتى تستطيع نزول سلم الطائرة وهي تحاول أن تبدو متماسكة وأن ترسم ابتسامة هادئة على شفتيها...فهي العروس التي لا تزال الأنظار تتجه إليها.
وتقديراً من إدارة المطار لوضعها كعروس، فوجئت بتعاون العاملين معها في حمل حقائبها وإنهاء إجراءات الدخول، تمامًا مثلما حدث معها في مصر.
وما أن أنهى الضابط المكلف بمرافقتها الإجراءات حتى سلمها جواز السفر وهو يقول بابتسامة ودود ـ"مبارك لك يا عروس."
تخضب وجهها خجلًا وهي تلتقط الجواز وتشكره بخفوت وهي تنقل عينيها خارج الحاجز الحديدي علها ترى زوجها.
ولم يطل انتظارها...فخلف الحاجز الحديدي لمحت وجهًا مألوفًا والابتسامة تغلف ملامحه وهو يلوح لها بسعادة.
ولوهلة غزت الدهشة ملامحها وهي تتأمله...

قد كانت تتوقع أن ترى (حـازم) مرتـديًا ملابـس العمـل وحـذاء ريـاضي وخوذة معدنية على رأسه...
لا تدري لماذا رسم شيطانها الغبي هذه الصورة في خيالها، رغم أنها لم تر خطيبها يومًا على غير مستوى أناقته المعتاد.
ولكنها رأته كعادته...وسـيمًا بملامحـه المصــرية المميـزة وشـعره الأسـود المصفف بعناية وابتسامته الجذابة التي يظللهـا شـاربه الرجـولي وسـترته السوداء الأنيقة ورباط عنقه الزاهيِ...
كان أوسم رجل رأته في حياتها، نظرا لأن علاقتها بالرجال محدودة.
ولكنه كان الأفضل في نظرها.
وللحظـات ظـل نظرهـا معلقًـا بوجهـه حتـى شـعرت بـه يقـترب منهـا ويصافحها هامسًا ـ"حمدًا لله على سلامتك يا عروسي."
تخضب وجهها خجلًا وهي تشعر بكفيه تحتضنان كفيها قبل أن يحتضـن ذراعها ويصحبها إلى خارج المنطقة الجمركية ويشير لأحد أصدقائه بـدفع العربة التي تحمل حقائبها إلى حيث سيارتهم.
وللمرة الأولى التقـت (هالـة) بـ(نهى) وزوجهـا (عمـر) وبـاقي أصـدقاء (حازم).
وانطلقت سياراتهم بعيدًا عن المطار في زفة صاخبة جابت شوارع المدينة متجهة إلى أحد الفنادق الفاخرة.
وهناك كانت مفاجأة جديدة للعروس.
فقد أقام لها (حازم) حفلًا مع أصدقائه استمر حتى بعـد منتصـف الليـل في هذا الفندق، قبل أن يعودا إلى منزلهما في زفة صاخبة أخرى، و...

قطع ذكرياتها صوت (طارق) وهو يقول بحماس ـ"أين ذهبتِ؟ أخبريني ماذا فعلتما؟"
عادت إليه بعينيها ومنحته ابتسامة هادئـة وهـي تقـول ـ"كانت أمنيـة حياتي أن تزفنـي السـيارات المزينـة، ورغـم أننـي لم أخـبر (حـازم) بهـذه الأمنية، فقد حققها لي."

بادلها الابتسامة وهو يقول ـ"لو كان الأمر يتوقف على زفة السيارات، فزملاؤنا بالمستشفى لن يبخلوا علينا بهذه الخدمة."
دفعته برفق في كتفه وهي تقول ـ"زفة السيارات كانت المرحلة الأولى من المطار إلى الفندق...ثم اتجهنا بعدها إلى فندق خمس نجوم مع أصدقاء (حازم) وزوجاتهم، وضحكنا ورقصنا وغنينا، ثم قطعنا كعكة الزفاف ذات الأدوار الخمسة. كان احتفالًا مصريًا بعيدًا عن مصر، ولا أخفيك أن أغلب المحيطين بنا من العرب كانوا مندهشين لأن حفلات الزفاف عندهم تختلف كثيراَ. المهم أنه عندما أنهينا الحفل ذهبنا إلى شقتنا بزفة سيارات ثانية بعد منتصف الليل بساعتين أو أكثر... وأنت تقول زفة السيارات تكفي؟"
ارتفع حاجباه في دهشة قائلًا ـ"(حازم) فعل كل ذلك؟"
أجابته بنظرات حالمة من أثر الذكريات ـ"نعم، وكله مسجل على شريط فيديو في المكتبة، لقد كانت ليلة لا تُنسى."
لم يحاول (طارق) إخفاء دهشته وهو يقول "تتحدثين عن (حازم) آخر غير الذي أعرفه."
دافعت عن شريك حياتها السابق في حماس قائلة ـ"لقد كان (حازم) رحمه الله في منتهى الأناقة دومًا، وإن كنتَ مندهشًا من ابتسامته ومرحه وخفته، فقد كانت نادرة بالفعل ولم يكن يظهرها سوى في المناسبات الخاصة جدًا، وهذا ينطبق بالتأكيد على ليلة زفافنا."
هز كتفيه قائلًا ـ"لن أندهش لو اكتشفت أنك تعرفينه أكثر مني. صحيح أننا كنا شقيقين إلا أننا نشأنا على أن يحتفظ كل منا بمشاعره وأسراره الخاصة لنفسه دومًا، إلا فيما ندر."
قلبت كفيها قائلة في هدوء ـ" لا أنكر هذه الصفات فيه، لقد كان اسمًا على مسمى؛ لكنه كان يرخي قبضته عن مشاعره قليلًا بين الحين والآخر، خاصة بعد ميلاد (هيثم)."
تأملها للحظات قبل أن يتنهد هامسًا ـ "رحمه الله...كنت أتمنى حضوره زفافي، ولكن قدرنا ألا يرى أحدنا الآخر في هذا اليوم."

شعرت بغصة تعترض مجرى تنفسها فتنحنحت وهي تلتقط نفسَا عميقًـا وتحاول العودة إلى نقطة النقاش الأصلية قائلة بحماس مصطنع ــ"المهم هل عرفت لماذا أريدك أن تقيم حفلًا لك ولـ(سمر)؟ كي تبقى ذكراه حية أمامكما مهما بَعُد بكما الزمن."

عقــد حاجبيــه مفكــرًا للحظــات قبــل أن يقــول بحســم ـ"حسنًا، سأناقش(سمر) في هذا الموضوع وأحجز في أي قاعة متاحة قريبًا."

نهضت(هالة) من مقعدها قائلة ـ"هكذا تكـون الفرحـة، أدعـو اللـه أن يجعل جميع أيامكما سعادة وهناء."

وتركته في الغرفة غارقًا في بحر من حنانها.

*****

(١٣)

فتح عينيه بتكاسل وأدارهما إلى الفاتنة التي توسدت ذراعه ونامت في وداعة، فابتسم وداعب وجنتها وطرف أنفها وهو يهمس بحب ـ"(سمر)...(سموري)...صباح الخير يا حبي."

منحته ابتسامة ناعمة دون أن تفتح عينيها وهي تقول بدلال ـ"صباح الخير."

طبع قبلة دافئة على جبهتها وهو يهمس ـ"صباحية مباركة يا أجمل عروس."

فتحت عينيها لتطالعه بعينين ناعستين وهي تجيبه بنعومة ـ"صباحية مباركة يا أحلى عريس."

داعب طرف أنفها ثانية قائلًا ـ"ألن تستيقظي؟ إنها الظهيرة الآن."

عقدت حاجبيها الجميلين بتبرم مصطنع قائلة ـ"حبيبي...إنه أول أيام زواجنا...فلماذا نستيقظ الآن؟"

تسللت أصابعه تدغدغها وهو يجيب بلهجة عابثة ـ"لأن سرعان ما سيأتي المهنئون بالزفاف، وينبغي أن نستعد لاستقبالهم مسبقًا."

تلوت بين ذراعيه وهي تضحك من دغدغته قائلة ـ"لن نفتح لهم الباب."

واصل دغدغتها وهو يحاول أن يبدو جادًا ـ"أنترك أبي ووالدتك على الباب؟ يا لنا من جاحدين."

حاولت أن تبعد أصابعه عنها وهي تحاول الفكاك من الدغدغة التي تجعلها تضحك بهستيريا ـ"حسنًا...حسنًا...لقد استيقظت."

توقف عن مداعبتها وأدار وجنته إليها قائلًا ـ"أين قبلة الصباح؟"

ضحكت وهي تقبل وجنته قائلة ـ"أحلى قبلة صباح لأحلى عريس."

قالتها ثم نهضت تجلس على الفراش إلى جواره وتتأمل عينيه العسليتين بشذرات من اللون الأخضر للحظات قبل أن تهمس ـ"أحبك."

تاه في عينيها هو الآخر قبل أن يقول كالمنوم مغناطيسيًا وهو يداعب خصلاتها ـ"أحمد الله على زواجي منك...لقد كنت حلمًا صعب المنال."

تناولت أصابعه بين يديها وهي تقول بدلال ـ"والحمد لله أنه تحقق."

رفع كفيها إلى شفتيه يلثمهما بحب قائلًا ـ"أحبك يا (سمر)، أحبك وأعدك أن أملأ كل أيامنا حبًا."
تاهت في عينيه ثانية ثم أراحت رأسها على صدره وهي تهمس بتبرم طفولي ـ" ألا يدرك الضيوف أن الحفل انتهى متأخرًا؟"
ضحك لصوتها الطفولي ومسد شعرها بحنان قائلًا ـ"حبيبتي إنه يوم واحد فقط...سنغادر إلى الإسكندرية غدًا إن شاء الله ولن يزعجنا أحد هناك."
ضحكت بدورها وهي تقول بصوت حالم ـ"آه...كم أعشق الإسكندرية، ومن المؤكد أن عشقي لها سيزداد معك."
عاد يدغدغها ثانية وهو يقول ـ"هيا انهضي- يا عاشقة...فأنا أتضور جوعًا."
تلوت ثانية وهي تضحك قائلة ـ"هيا معي إذًا."
تركها وهو يعدل ياقة منامته قائلًا بلهجة سينمائية ـ"لقد اعتدت على تناول الإفطار في الفراش."
نهضت واقفة وجذبته من ذراعه وهي تمثل الصرامة قائلة ـ"لاااا...الرجال هنا لا يمثلون الدلال...هنا تقف معي في المطبخ وتساعدني."
نهض خلفها وهو يقول متبرمًا ـ"ولكن (هالة) تـ...".
قاطعته بنظرتها التي تجمدت فجأة وهي تسحب كفها بعيدًا عن ذراعه وتقول ببرود كسا صوتها ـ"أنا (سمر)، ولست (هالة)."
تدارك نفسه سريعًا وهو يضمها إليه ويقبل رأسها قائلًا ـ"آسف حبيبتي...لم أقصد."
وكزته في كتفه بدلال ثم جذبته من كفه ثانية خارج الغرفة، وتبعها في هدوء إلى المطبخ ووقف عاقدًا ذراعيه أمام صدره وهو يتابعها بعينيه وهي تفتح المبرد وتلتقط أطباقًا مغلفة من داخله قبل أن ترفع نظرها إليه قائلة ـ"حبيبي...لا تقف مكتوف الأيدي هكذا...هيا أشعل الموقد وساعدني في تسخين الطعام."
هز رأسه وهو يتقدم إلى داخل المطبخ ويتجه إلى الموقد قائلًا ـ"لم أسمع

عن عريس يدخل المطبخ صبيحة زواجه."
التفتت إليه تتأمله للحظات ثم تناولت كفيه بين راحتيها قائلة بحزم
ـ"حبيبي...ينبغي أن نضع قواعد للتعامل في المنزل...كيفية المساعدة وتقسيم الأعمال بيننا."
رفع حاجبيه بدهشة حقيقية وهو يقول ـ"هل أنت جادة؟ ظننتك تمزحين."
ضحكت وهي تتأمل دهشته قائلة ـ"ما سبب دهشتك هكذا؟ أنت طبيب وأنا طبيبة، أنت تعمل في مستشفى وأنا أيضًا..إذًا فكلانا يعود إلى المنزل مرهقًا، ولابد من التعاون سويًا في المنزل."
أذهله حديثها الواثق وكأنها أعدت لهذا الحديث عدته من قبل، خاصة حينما فتحت أحد أدراج المطبخ والتقطت منه قلمًا ودفتر ملاحظات واتجهت بهما إلى طاولة تتوسط المطبخ لتجلس قائلة ـ"هيا نتفق على هذه النقاط سويًا."
جلس أمامها على الطاولة وهو يقول بضيق ـ"حبيبتي...هذا الحديث لا يليق بأول أيام زواجنا...إنه شهر العسل...العسل يا(سمر) وليس الطبخ والغسيل."
رفعت عينيها إليه وقد شعرت بنبرة الضيق في صوته وسمعته يتابع ـ"هذه القواعد والنقاط تستطيع الانتظار حتى نعود من الإسكندرية...هل هذا ممكن؟"
مدت كفيها عبر الطاولة تحتضن أصابعه وهي تقول بابتسامة ودود ـ"بالطبع يا حبيبي...يا لي من حمقاء لأعكر صفو يومك بهذا الطلب."
رفع كفيها يلثمهما ثانية وقد اختفى شعوره بالضيق وهم بقول شيء ما حينما قاطعه صوت جرس الباب المفاجئ الذي أفزع عروسه وجعله يمط شفتيه في تذمر قائلًا ـ"استغفر الله العظيم...لقد استيقظنا للتو يا قوم...ألديهم كاميرا تصوير في الشقة أبلغتهم باستيقاظنا؟"
ضحكت وهي تتأمل تعبيرات وجهه المتبرمة ثم ما لبثت أن نهضت قائلة ـ"لا تغضب...سأفتح الباب و...".

قاطعها وهو يهب من مقعده ويمسكها مـن معصـمها هاتفًـا ـ"أجننت؟ كيف تفتحين الباب هكذا؟"
قالت بحـرج ـ"حبيبي سـأمر بغرفـة النـوم في طريقـي وارتـدي معطفًـا حريريًا."
جذبها إليه وهو يقول في خبث ملوحًا بإصبعه في تحذير ـ"لا حريـري ولا صوفي حتى...أول قاعدة في البيـت: ممنـوع فـتح البـاب وأنـت في لبـاس النوم."
وكزته في كتفه بدلال قائلة ـ"لقد ظننت أن القواعد ستنتظر عودتنـا مـن الإسكندرية."
داعب طرف أنفهـا وهـو يقـول ـ"إلا هـذه القاعـدة...لا أحـب أن يـرى زوجتي غيري...هيا اذهبي وغيري ملابسك."
قبلت سبابتها ثـم وضـعتها عـلى شـفتيه قائلـة بـنفس الـدلال ـ"السمع والطاعة يا سي السيد."
قالتها واستدارت متجهة إلى غرفتهما، بينما عـاد جـرس البـاب إلى الـرنين ثانية فعدل منامته واتجـه نحـو البـاب، ثـم توقـف أمـام مـرآه مجـاورة ليتأكد من هندامه ويصفف شعره الناعم بأصابعه قبل أن يلـتقط نفسًـا عميقًا ويفتح الباب.

*****

(١٤)

اقترب من باب الشقة وألقى نظرة سريعة عبر العين السحرية قبل أن يلتقط نفسا ثانيا ويرسم ابتسامة واسعة على وجهه وهو يفتح باب الشقة ليرى وجه والده وحماته وزوجها وابنيه الشابين، فقال بدهشة وهو يدعوهم إلى الدخول ـ"أهلًا وسهلًا...هل حضرتم معًا؟"

ضحك والده وهو يجيبه ـ"لقد التقينا على باب الشقة."

صافحته السيدة التي تشبهها زوجته وكأنها نسخة بالكربون قائلة ـ"صباحية مباركة يا عريس...هل أزعجناكم؟"

ضحك وهو يفسح الطريق لهم قائلًا ـ"كلا بالطبع. فالبيت بيتكم ...تفضلوا بالدخول."

دلفت السيدة التي لم يتجاوز عمرها الخمسين عامًا، ولم تفقد جمالها بعد، وتبعها زوجها الذي لا يبدو مريحًا، وابناه اللذان جالا ببصريهما في أرجاء الشقة قبل أن يتخذا مقاعدهما في صدر الردهة وأعينهما لا تزال تجوب الشقة.

لم يعرهما اهتمامًا وهو يلتفت إلى والده وينحني ليقبل ظهر كفه باحترام قائلًا ـ"أنرت بيتي يا والدي."

ربت والده على ظهره بحنان قلما يُظهره، وهو يقول ـ"بارك الله لك يا ولدي."

صحبه إلى الداخل بعد أن أغلق الباب، وما أن التفت حتى راعه ما رأى. اتسعت عيناه في دهشة وتصاعدت دماء الغضب في رأسه أمام هذا المشهد، حتى هيئ إليه أن دخانًا يتصاعد بالفعل من رأسه وأن الدماء ألقت بغشاوة على عينيه فأصبح ما حوله مصبوغًا بلونها.

فأمامه كانت عروسه ترتدي قميص نوم أحمر وعليه معطف شفاف من نفس اللون، وقد تركت شعرها الناعم منسدلًا على كتفيها وزينت وجهها بمختلف مساحيق الزينة وهي تتجه مبتسمة لتحتضن والدتها في سعادة. كان يشعر بأصوات التهنئة من والدة زوجته وزوجها وابنيه السخيفين وكأنها تأتي من بئر سحيق، لأن انتباهه كله كان مع تلك التي يلتهمها

بالنظرات اثنان من غير محارمها.
وبالرغم من الغليان الذي يشعر به في عروقه، اتجه إلى زوجتـه وسـحبها من ذ راعها بابتسامة جاهد ليزرعها على وجهه وهو يقول لحماته ـ"عذرًا سيدتي...البيت بيتكم بالطبع. إذا سمحت يا(سمر)، أريدك دقيقة."
قالها وهو يجذبها خلفه إلى حجـرتهما التـي دخلهـا وسـمح للقليـل مـن غضبه بالظهور وهو يقول من بين أسـنانه وقبضـته تضـغط عـلى ذراعهـا ـ"ما هذا الذي ترتدين؟ ألم أحذرك منـذ قليـل؟ لقـد منعتـك أن تفتحـي الباب فكيف تخرجين إليهم بقميص النوم؟"
أدهشها غضبه، الذي لم تر له مبررًا، وهي تقـول بهـدوء ـ"حبيبي، إنهـم أهلي ووالدك...لا يوجد أغراب."
هتف بها وهو يحاول ألا يعلو صوته قائلًا ـ"والله؟ وماذا عـن أبنـاء زوج أمك؟"
ارتفع حاجباها في دهشة قائلة ـ"(طارق) إنهم أخوتي وأصغر منـي، لقـد نشأنا معًا."
هتف بها من بين أسنانه ـ"كلا ليسا إخوتك...وليسـا مـن محارمـك حتـى تخرجي إليهم بهذا الشكل. لقد كانا يلتهمانك بنظراتهما، حتى وددت أن أقتلع أعينهما."
أدركت بذكائها الأنثوي أنه يغـار عليهـا فلمسـت وجهـه بـأطراف أصـابع يدها الحرة قائلة بدلال ـ"أتغار يا حبيبي؟"
أبعد أصابعها عن وجهه بغضب قائلًا ـ"الأمر لا علاقـة لـه بـالغيرة. إنهـا عاداتنا التي نشأنا عليها وتعاليم ديننا التي تصف الحياء بأنه شعبة مـن الإيمان. حتى (هالة) لا تزال تجلس أمامي بالحجاب أغلب الوقـت رغـم أنني زوجها."
لم يكد يذكر اسم زوجته الثانية أمامها حتى شعر بملامحهـا تتغـير وهـي ترمقه بنفس النظـرة التـي حـار في تفسـيرها في الصـباح قبـل أن تجـذب ذراعها من قبضته في قـوة وهـي تقـول مـن بـين أسـنانها ـ"أعتقد أننـي أوضحت من قبل أنني (سمر)، ولا يهمني ماذا تفعل (هالة)."

شعر بالضيق الذي اعتراها وبالجو الذي بات مشحونًا بينهما، فتنهد في عمق وهو يخلل شعره بأصابعه قائلًا بكل الهدوء الذي وجده داخله
ـ"حبيبتي...أنا رجل شرقي وأصولي ريفية، ولا أحب أن ينظر الأغراب إلى زوجتي. سمها غيرة أو تشدد أو حتى رجعية، لكنني لا أحب أن يراك غيري...هل هذا ممكن؟"
تنهدت هي الأخرى ولانت ملامحها ونظرتها العدائية وهي تقول بهدوء تشوبه السخرية ـ"أمر سي السيد...صوان الملابس أمامك...اختر ما تريدني أن أرتديه."
منحها ابتسامة عذبة وهو يطبع قبلة سريعة على طرف أنفها المستقيم قائلًا ـ"كلا لن أختر لك، فأنا أثق فيك وفي رجاحة عقلك. سأخرج إليهم ريثما تستبدلين ملابسك."
قالها والتفت يغادر الحجرة قبل أن يستدير إليها ثانية ويباغتها بدغدغتها قائلًا بجدية مفتعلة ـ"ثم أين كان هذا القميص بالأمس؟"
ضحكت من دغدغته قائلة ـ"كفى دغدغة. لقد تبت إلى الله...لن أرتديه لغيرك."
قبل جبهتها بحب قائلًا ـ"لا هو ولا غيره. لن تخرجي بأي من ملابس النوم خارج الغرفة.. والآن هيا كيلا تتأخري عن ضيوفنا."
منحته ابتسامة سريعة وهو يخرج قبل أن تلتفت إلى خزانة الملابس وتقف واضعة كفيها حول خصرها، وهي تتأمل ملابسها في حيرة قائلة بسخط ـ"يا ربي...أين كان هذا الوجه الرجعي من قبل؟"

*****

(١٥)

وقف في شرفة غرفته بالفندق في الإسكندرية وملأ رئتيه بهواء البحر المنعش قرب منتصف الليل وهو يتأمل أمواجه التي عكست أضواء الكورنيش، ثم أخرج هاتفه المحمول من جيبه وضغط أحد أزراره وانتظر قليلًا ليأتيه من الطرف الآخر صوتها الهادئ يقول بابتسامة انعكست على نبراته ـ"مرحبًا بالعريس. كيف حالك وكيف العروس؟"

ابتسم وهو يجيبها ـ"بخير والحمد لله. أنت كيف حالك وكيف حال أمي والأولاد؟"

أجابته بنفس الرقة ـ"نحن بخير والحمد لله. لكن القبيلة بأسرها نيام. حتى أنا كنت في طريقي إلى النوم."

منحها ضحكة خافتة وهو يقول ـ"أسف على إزعاجك إذًا...لقد أردت فقط أن أشكرك وأدعو لك الله أن يحميك ويبارك لك في صحتك وأطفالك...لقد كنت سببًا في سعادتي يا (هالة) ولن أفيك حقك يومًا."

شعرت بغصة من كلماته، لكنها سرعان ما تنحنحت لتجيبه بهدوء ـ"أنت تستحق كل خير يا (طارق)، وكذلك (سمر). حافظ عليها لأن أمثالها قلة في هذا العالم."

سرت قشعريرة باردة في جسده حينما سمع جملتها الأخيرة، فقال لينهي المكالمة ـ"وأمثالك أيضًا يا (هالة). انتبهي لنفسك والأولاد. تصبحين على خير."

لم يكد يسمع ردها حتى أنهى المكالمة وزفر في عمق وظل يطالع البحر للحظات قبل أن يلتفت ليعود إلى الغرفة. ولكنه أجفل بمجرد أن التفت، إذ وجد (سمر) واقفة على باب الشرفة ساندة كتفها على حافته وعاقدة ذراعيها أمامها وفي عينيها نفس النظرة الباردة المحيرة فقال بدهشة ـ"(سمر)؟ منذ متى وأنت هنا؟"

قالت بنبرة ساخرة ـ"منذ كنت تتسول على باب الحسين."

ثم قالت تقلده "لقد اتصلت كي أدعو لك الله أن يحميك ويبارك لك في صحتك وأطفالك."

وعاد صوتها إلى نبرته الغاضبة وهي تقول ـ"تتصل بضـرتي وأنـا معـك في شهر العسل؟"
قالتها والتفتـت غاضـبة لتـدخل إلى غـرفتهما، فلحقهـا وأمسـك بـذراعها يوقفها قائلًا بابتسامة واسعة ـ"سأتغاضى عـن سـخريتك والإهانـة التـي تلفظت بها قبل قليل لعلمي أنك تغارين."
حاولت أن تجذب ذراعها من قبضته وهـي تقـول بضـيق ـ"ابتعد عنـي، فأنا لا أغار عليك."
شدد قبضته على ذراعها وقربها منه ليحاصر عينيها بنظراته هامسًا "بـل تغارين ولهذا ضايقك اتصالي بـ(هالة)."
أشاحت بوجهها هربًا من لمعة عينيه، فأدار وجهها إليه وداعـب شـعرها قائلًا بنفس الابتسامة ـ"حبيبتي...أنت وحدك زوجتي. وأنا لم أتصل بهـم منذ زواجنا الأسبوع الماضي. فقط أردت الاطمئنان على الأولاد."
مطت شفتيها قائلة ـ"فلماذا لم تتصـل مبكـرًا لـتكلم أبنـاء أخيـك؟ لقـد اتصلت متأخرًا حتى ترد هي عليك."
ضحك منها وقبل جبهتها قائلًا ـ"والله لم أتعمد ذلـك...فنحن نخـرج كـل يوم ونعود متأخرًا، واليوم عدنا مبكرًا عن كل ليلة، فاتصلت بهـم وأنـت تغيرين ملابسك."
ثم قرص وجنتها بخفة قائلًا ـ"ثم هل تنكرين أن (هالة) هـي السـبب في إقناع والدي بزواجنا؟ أنت أقنعتني بـالزواج منهـا لصـالح أبنـاء (حـازم) رحمه الله، وهي ساعدتنا بالزواج. أقسـم لـك أن (هالـة) مثـل البلسـم، وأثق أنك ستحبينها حينما ترينها."
هزت كتفيهـا كالأطفـال وزادت في مـط شـفتيها كطفلـة يحـاول والـدها إرضاؤها دون جدوى، فقال وهو يقرص وجنتيهـا مشاكسًـا ـ"هيا أرينـي ضحكتك وإلا دغدغتك."
ضحكت لمجرد تخيله وهو يدغدغها كالمعتـاد كلـما أراد منهـا شـيئًا، ثـم رفعت سبابتها محذرة وهي تقول ـ"سأسامحك هذه المرة فقط. لكني لا أعرف ماذا سأفعل في المرة القادمة."

ضحك ثانية وهو يقبل وجنتها في الموقع الذي قرصه قائلًا -"توبة يا حبيبتي...لن أضايقك ثانية."

***

أنهت الاتصال وتنهدت في عمق وهي تحتضن هاتفها في شرود وتنظر إلى موضع نوم زوجها على الفراش.

زوجها الصوري الذي يعتبرها أخته، واتصل بها من جوار عروسه ليبلغها مدى امتنانه لها وسعادته بهذه الزيجة...الزيجة التي ساعدته في إتمامها وهي لا تدري هل ستسعد هي الأخرى أم لا.

كانت مشاعرها مضطربة،

فهي ليست حزينة لزواجه،

ولكنها ليست سعيدة أيضًا.

لقد تزوجته مرغمة، وهو كذلك؛ لكن ابتعاده عنها منذ الزواج صدمها، وزادت صدمتها باعترافه لها بحبه لزميلته.

كانت كلماته في ذلك اليوم لا تزال تدوي في أذنيها وهو يعترف بأن حبيبته اشترطت أن يكون زواجه من أرملة شقيقه صوريًا.

مزقها اعترافه في هذا اليوم، ودمر حلمها الوليد في أن يكون هذا الزوج بحنانه وتفهمه عوضًا لها عن زوجها السابق...عن شقيقه.

هزت رأسها في عنف وكأنها تنفض عنه أفكاره ونهرت قلبها على هذه المشاعر التي وجدتها مشاعر ماجنة وفاسقة...

لقد أعلنت لحميها من قبل أنها لن تقبل الزواج بعد (حازم) رحمه الله، بل وتزوجت شقيقه مرغمة لحماية أطفالها. وقد أتتها الفرصة لتفي بما قالت من قبل، فلماذا تضيعها؟

مسحت بقوة دمعة متمردة تسللت من عينيها وهي تتذكر نصيحة أمها بأن تحول (طارق) إلى أخ، بدلًا من أن تعلق نفسها بأوهام واهية.

نعم...(طارق) مجرد صديق، ولن يتحول إلى أي خانة أخرى.

*****

(١٦)

فتح باب المبرد في ضجر بحثًا عن طعام الغذاء، لكنه لم يجد سوى قارورة مياه نصف ممتلئة وبعض الأطباق الصغيرة التي تحوي جبنًا وزيتونًا، وزجاجة حليب شارفت على الانتهاء، فمط شفتيه وأخرج غضبه في باب المبرد الذي دفعه بعنف ليرجه بقوة. ثم التفت إلى الموقد الذي لم يجد فوقه أي أواني طهي، ففتح باب الفرن علـه يحوي طعام الغذاء الذي طهته زوجته المصون. ولكن بحثه باء بالفشل للمرة الثانية فزفر في قوة وهو يهتف بغيظ من بين أسنانه ـ"حسبي الله ونعم الوكيل...أين ذهبت هذه المجنونة دون أن تطهو طعام الغذاء؟"

قالها وهو يضغط أزرار هاتفه المحمول ليطلب (سمر) للمرة العاشرة منذ عودته من المستشفى ليسمع نفس الرسالة التي زادت من عصبيته "الهاتف الذي طلبته غير متاح حاليًا، من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق...The mobile you"

لم يمنح السيدة الإلكترونية الفرصة لإتمام رسالتها باللغة الإنجليزية لأنه أنهى المكالمة والشرر يتطاير من عينيه، قبل أن يلقي الهاتف بعيداً ليسقط على أريكة الأنتريه.

ظل يدور قليلًا في أرجاء الشقة ثم ما لبث أن جلس متحفزاً على المقعد المواجه لباب الشقة في انتظار عودة زوجته.

وبعد ساعة أخرى من الانتظار -مرت عليه كالدهر- سمع صوت المفتاح يدور في الباب، فرفع عينيه في بطء ليرى زوجته تدخل في هدوء ولا يبدو عليها أي انزعاج من التأخير، وهي تبتدره بقولها ـ"حبيبي...متى عدت؟"

أجابها من بين أسنانه قائلًا ـ"منذ ساعتين...أين كنت؟ لقد طلبتك عند والدتك وأخبرتني أنها لم ترك منذ يومين."

قالت بلامبالاة وكأنها لم تسمعه ـ"عظيم...هل أعددت لنا الغذاء؟ إنني أتضور جوعًا."

اتسعت عيناه وعاد الشرر يتطاير منهما وهو يهتف بها ـ"ماذا؟ أنا الذي أعد الغذاء؟ وأين كنت منذ الظهيرة؟ لماذا لم تعديه مسبقًا مثل باقي

الزوجات العاملات؟"
اقتربت وهي تجيبه ببرود أغاظه ـ"ألم نتفق من قبل علىِ تقسيم المهام المنزلية بيننا؟ وما دمت أتيت قبلي فلماذا لم تجهز كيسا من المكرونة وتخرج أي كيِس لحم أو دجاج من المجمد؟"
استشاط غضبا وهو يهتف دون وعي ـ"هَل تمزحين؟ جراح لم ينمِ طول الليل بسبب جراحة معقدة وظل في المستشفى حتى الثانية ظهراَ دون راحة وعاد إلى منزله يتوق إلى وجبة ساخنة وفراش وثير لكنه لم يجد زوجته ولا أي شيء يؤكل في المنزل، وفي النهاية تسألينى لماذا لم أجهز مكرونة؟"
فتحت فمها لتجيبه لكنه لم يمنحها الفرصة وهو يهتف ثانية ـ"وأين كنت طيلة هذه المدة منذ خروجك من المستشفى؟ ولماذا أغلقت هاتفك المحمول؟"
شعرت بمدى غضبه وحاولت تلطيف الأمر وهي تقترب قائلة بابتسامة مدروسة ـ"لقد انتهى شحن الهاتف فجأة، وظننت انك اليوم ستذهب إلى (هالة)، فتأخرت بعد المستشفى."
ضرب كفيه بدهشة قائلًا ـ"سبحان الله. اسم (هالة) أصبح يجري على لسانك دون سخط. راجعي أيام الأسبوع يا دكتورة وسترين أن اليوم عندك أنت."
ثم عاد يسألها وهو يضيق عينيه ـ"لم تجيبي..أين تأخرت؟"
أجابته بتردد ـ"ك..كنت في الجيم."
اقترب منها وقال دون استيعاب ـ"أعيديها على مسامعي ثانية...يبدو أن السمع خانني و..".
قاطعته وهي تقول في سرعة ـ"كنت في الجيم يا (طارق)...صالة الأيروبيكس."
اتسعت عيناه في دهشة حقيقية وهو يتفحص جسمها بعينيه قائلًا ـ"أيروبيكس هكذا فجأة؟ ودون استشارتي؟"
هزت كتفيها قائلة ـ"إنها المرة الأولى اليوم..أردت أن أجرب قبل أن أقرر

الاشتراك في هذا النادي الصحي."
عقد ذراعيه أمام صدره وهو يسألها بتهكم -"وهل راقك النادي الصحي؟"
لمعت عيناها وهي تجيبه في حماس -"إلى ابعد مدى...المدربة نشيطة للغاية والأجهزة الرياضية حديثة والجا..."
قاطعها قائلًا ببرود -"وماذا عن طفلك؟"
أجفلت للحظة وتراجعت برأسها إلى الخلف قبل أن تسأله بصوت مبحوح -"أي طفل؟"
أجابها بنفس البرود وهو يقترب من وجهها حتى التحمت أنفاسهما -"طفلنا...ألم يحن وقته بعد؟"
ارتبكت من سؤاله ونظراته وهي تقول -"كل شيء بأوان. فلماذا العجلة؟"
تأملها قليلًا قبل أن يقول بغيظ -"عجلة؟ بعد ستة أشهر زواج وتسمينها عجلة؟ ثم أنى للطفل أن يأتي وأمه تمارس الأيروبيكس في النادي الصحي؟ بل قولي أنى له أن يأتي وأمه لا تهتم بأبيه؟"
اتسعت عيناها هي هذه المرة، وهمت بالدفاع عن نفسها لكنه لم يمنحها الفرصة وهو يهتف بها -"طلبتِ مني المساعدة في شؤون المنزل ووافقت، أهملتِ المطبخ وصرنا نأكل من المطاعم كالعزاب وصمتت، تراكمت ملابسي المتسخة وغسلتها بنفسي ولم أعترض...كل هذا وأنت ماذا تفعلين؟ بالله عليك أخبريني ما الذي تفعلينه في هذا البيت سوى النوم ومشاهدة التلفاز...حتى لا أراك تفتحين مرجعًا لرسالة الماجستير. أخبريني بشيء واحد يبرر انشغالك عن بيتك وزوجك أو يبرر ذهابك إلى الجيم بدلًا من الاهتمام بي."
اختنق صوتها بالعبرات وهي تقول بصوت أجش -"أنا..."
قاطعها بنفس الغضب قائلًا -"أنت ماذا؟ ماذا ينقصك عن (هالة)؟ تعمل مثلك، بل وأكثر منك في المدرسة ومع الأولاد، ورغم ذلك فبيتها مرتب طوال الوقت، ولم تتأخر يومًا عن موعد الغذاء، ولم أبحث عن ملابسي

يومًا أو أطلب منها كي قميص أو خياطة زر...كل شيء مرتب وكأنني شغلها الشاغل. حتى مع أولادها...لا ينقصهم شيء وكأنهم كل عالمها. أما زوجتي التي حاربت من أجلها فتهملني، بل ولا تأبه حتى بإنجاب طفل لي يشغل فراغها."

لم تستطع تحمل كلماته الجارحة أكثر من ذلك فهتفت به بألم ـ"كفى..كفى. كل شيء (هالة) (هالة). لماذا لا تقدر مشاعري؟ لماذا تصر على أن تُشعرني بالعجز مقارنة بها؟ قلت لك ألف مرة أنا غيرها، ولا تقارنني بها. وما ينطبق عليها لا ينطبق علي، وأنت وافقت على ذلك منذ البداية. فلماذا التجريح؟"

وبظاهر كفها المرتجفة مسحت دمعة خانتها وسالت على وجهها الملتهب من الغضب، واستدارت بعيدًا عنه قائلة ـ"من فضلك يا (طارق)...اتركني وحدي الآن كيلا نجرح بعضنا أكثر من ذلك."

لم ير دموعها، لذا لم يشعر بأي تعاطف نحوها وهو يتجه نحو غرفتهما في صمت ليلتقط سترته الصوفية ووشاح رقبته وسلسلة مفاتيحه في سرعة ويتجه إلى باب الشقة قائلًا ـ"هذا أفضل."

وصفق الباب خلفه في عنف تاركًا إياها غارقة في دموع لم ترده أن يرها.

*****

جلس الطفلان حول جدهما يستمعان إلى حكاياته عن والدهما الراحل وعن عمهما(طارق) حينما كانا صغاراً والضحكات تتعالى مع كل موقف طريف يحكيه الجد الذي سألهما فجأة في دهاء ـ"أين عمكما(طارق) اليوم؟ لم أره منذ حضوري."

انبرى الصغير(هاني)يقول في طلاقة ـ"بابا(طارق) في المستشفى، إنه يبيت فيها ثلاثة أيام وهنا أربعة أيام وقبل أن ننام نلقي عليه تحية المساء على هاتفه المحمول."

رفع الجد عينيه إلى زوجة ابنه وأمها الجالستين أمامه وهو يقول بتهكم ـ"هكذا؟! لقد ظننا أن المدير الجديد سيعطينا ما نريد مادام لا عذر له. ولكن بعد ستة أشهر!! لابد وان هناك سراَ ما."

أدركت(هالة)ما يرمي إليه حموها فأشارت بحزم إلى ابنيها قائلة ـ"(هيثم)، (هاني)، لم تنتهيا من واجباتكما المدرسية بعد. اذهبا وأنهياها قبل العشاء."

نهض الطفلان في تذمر قبل أن يقول(هيثم) لجده بتوسل ـ"عدني بألا تنصرف يا جدي قبل أن أنهي واجباتي المدرسية. لم يتبق الكثير منها على أي حال."

قبل جده وجنته قائلًا بحنان ـ"أعدك يا حبيبي."

حينها انصرفا إلى غرفتهما في سرعة، والتفتت(هالة) إلى حميها قائلة بحذر ـ"الأولاد لا يعلمون بموضوع زواج(طارق)، ولا يجب أن نتحدث عنه أمامهما."

قال الرجل في ضيق ـ"لقد كانت حجته معك هي أنك أخت له، وعندما قال إنه يحب(سمر) هذه وأصرّ كلاكما على هذه الزيجة وافقت على أمل رؤية أبنائه، لكنهما حتى الآن لم يعلنا عن قرب قدوم وليّ العهد المنتظر."

تبادلت نظرة سريعة حائرة مع أمها قبل أن تقول ـ"دعهما يستمتعان بحياتهما سوياً قبل أن يدخلا دوامة إنجاب الأطفال، كما أن(طارق) يعد

الترتيبات النهائية لمناقشة رسالة الدكتوراه و(سمر) على وشك مناقشة الماجستير، بعدها لن يكون لديهما أية أعذار لتأجيل الإنجاب."
هتف في غيظ واضح ـ"من يقول إن الماجستير والدكتوراه أهم من إنجاب الأطفال؟"
أجابته بدبلوماسية ـ"يا عماه، 'ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه'، كما أنه ليس من العدل أن يضيع كلاهما مستقبله من أجل إنجاب طفل، وفي النهاية هذه حياتهما الخاصة ولا دخل لنا فيها."
ورغم منطقية حديثها لم يقتنع حموها الذي جلس قليلًا حتى موعد العشاء كما وعد حفيديه، ثم غادر المنزل قبل أن يصل(طارق) الذي تأخر حتى بعد منتصف الليل.

***

ما أثار دهشتها عند وصوله كانت عصبيته وهو يتخلص من سترته الصوفية بعنف ويسألها في عصبية عن سبب زيارة والده.
أجابته في حيرة ـ"(طارق)! إنه بيت ابنه وله مطلق الحرية في زيارته في أي وقت شاء، ولا أرى سببًا لعصبيتك تلك."
ألقى بوشاح عنقه ليلقى مصير السترة على نفس المقعد، قبل أن يجلس على حافة الفراش واضعًا وجهه بين كفيه في صمت، فاقتربت(هالة) في هدوء لتربت على كتفه في حنان قائلة ـ"ماذا بك يا(طارق)؟ لقد ازدادت عصبيتك في الآونة الأخيرة، إنك حتى لم تعد تجلس مع الأولاد كعادتك."
زفر في ضيق وخلل شعره بأصابعه قائلًا بتوتر ـ"لا شيء، إنها بعض المشاكل بالمستشفى."
جلست إلى جواره وهي تقول بتعاطف ـ"أنا لم أعرفك بالأمس فقط، بإمكاني معرفة ما بداخلك من نظرة عينيك ونبرة صوتك. أخبرني بما يضايقك كما اعتدت دومًا. ألسنا صديقين؟"
حوّل بصره إلى عكس اتجاه جلوسها قائلًا ـ"صدقيني، إنها مشاكل خاصة بالعمل."
أدارت وجهه إليها قائلة بابتسامة حنون ـ"ولماذا تدير وجهك؟ كي لا

أعرف الحقيقة من عينيك؟"
خفض عينيه في سرعة حينما التقتا عيني(هالة) التي ملأت رئتيها بالهواء قبـل أن تقـول بهـدوء -"(طارق)، أصـدقني القـول، هـل سئمت(سـمر) وضعنا الحالي؟ لأنها لو فعلت فلن ألومها فـ..."
قاطعها وهو يرفع كفه قائلًا في سرعة -"كلا، أقسم لك أنها لم تفعـل، إنهـا تتفهم الوضع تمامًا."
تناولت كفه بين راحتيها قائلة في حيرة -"إذًا مـا الأمـر؟ لمـاذا تبـدو حـائرًا هكذا؟ أخرج ما بداخلك كي ترتاح."
زفر في قوة قـائلًا بضـيق -"أُخرج مـاذا أو مـاذا؟ إن بـداخلي أطنانًـا مـن الهموم، فعن أي هم تريدين التحدث؟"
عقـدت حاجبيهـا قائلـة -"أطنانًا مـن الهمـوم؟ وتحملهـا وحـدك؟ ومـا أهميتي إذًا إن لم أقف بجانبك حتى تتخلص منها؟ على الأقل أخـبرني بمـا تريد قوله ويكفي لإراحتك في الوقت الحالي."
تنهد في عمق قبل أن يحسم أمره قـائلًا بحنـق -"إنه أبي، مـازال يواصـل التدخل في حياتي حتى أحالها جحيمًا."
سألته على استحياء -"أتعني بشأن الإنجاب؟"
التفت إليها في سرعة قائلًا -"كيف عرفت؟"
ازدردت لعابها وأشارت بطرف عينها إلى الخارج قائلة -"لقد أشار إلى هذا الموضوع ضمن حديثه."
سألها في حدة -"وماذا قال؟"
هزت كتفيها قائلة -"لا شيء محدد، لقد أشـار فقـط إلى رغبتـه في رؤيـة أبنائك. هذا كل ما قاله."
سألها ثانية -"وماذا قلت له؟"
أشاحت بكفها قائلة -" قلـت إن هـذه حيـاتكما ولـيس لنـا دخـل فيهـا، وأنكما مشغولان بالانتهاء من تحضير رسائلكما العلمية."
ضحك بسخرية قائلًا -"رسائلنا العلميـة؟ أراهنـك عـلى أننـي لـن أنهـي الدكتوراه قبل تخرج(هند) من الجامعة."

شهقت مستنكرة وهتفت بـه ـ"لماذا تتحـدث هكـذا؟ لم أرك يائسَـا مـن قبل. هل ضايقتك أنا أو الأولاد في أي شيء؟"
هز رأسه نفياَ وهو يجيبها في سرعة ـ"كلا بالطبع، فأنت والأولاد أجمل ما في حياتي. وعلى عكس ما يتوقع البعض، أنا أشعر بالراحة هنا معكم أكثر من بيتي مع(سمر). تخيلي أنها تثور لأتفه الأسباب، بل وتثير أعصابي معها؟"
قالت بهدوء ـ"لابد وأن لديها عذرًا لذلك."
قال بتهكم ـ"عذر؟ أي عذر هذا الذي يجعلها تهمل بيتها وزوجها؟ أنا لا أتناول طعامًا منزليَا إلا هنا لأنها تعود من المستشفى مرهقـة ولا تقـوى على الوقوف أمام الموقد. لا أنكر أنها طهت لي أكثر من مرة، لكن تقريبَـا مرة كل شهر."
ثم تابع بضيق ـ"ناهيك عن الاهتمام بالمنزل أو حتى بملابسـي، فالملابس إما متسخة أو بحاجة إلى كيّ، وهـي مشـغولة بشــيء لا أعرفـه. وعنـدما واجهتها قائلًا إنك أنت الأخرى تعملين ومسئولة عـن ثلاثـة أطفـال ومـع ذلك لا تهملين بيتك، ثارت وغضبت."
شعرت بحرج بالغ، لتقـول موضـحة ـ"المرأة بطبعهـا لا تحـب مقارنتهـا بأخرى أيًا كانت. ولا تنس أنها تقيم وحدها بينما أمي معي تساعدني."
أشاح بيده قائلًا ـ"هذا ما حدث، تركت لها الشقة وظللت أدور بسـيارتي حتى شعرت بتثاقل أجفاني من الإرهاق، فأتيت إلى هنا."
عقدت حاجبيها قائلة باستنكار ـ"أتعني أنكما تشـاجرتما اليـوم؟ هيـا قـم حادثها في الهاتف واعتذر لها."
التفت إليها باستنكار أشد قائلًا ـ"أعتذر لها؟"
قالت بابتسامة عريضة ولهجة آمرة ـ"نعم تعتذر لها ولا تتركها تنم وهي حزينة. هل نسيت كم ضحّت من أجلك وأجلي؟ هيا هاتفهـا ولـن أقبـل أي حجج بالرفض."
قال بتخاذل ـ"لقد تركتني دون طعام، بل وأطارت النوم من عيني وأنا لم أنم منذ يومين، و...".

قاطعته ملوحة بسبابتها في تهديد قائلة ـ"هاتفها ريثما أعد لـك الحسـاء الذي تحبه... هيا وإلا تركتك أنا الأخرى دون طعام، وأنا أدري جيدًا أنـك لن تستطيع النوم على معدة خاوية"

ولم تتركه إلى المطبخ قبل أن تسمع ضـحكته الصـافية تنتقـل عـبر أسـلاك الهاتف إلى أذني(سمر).

*****

(١٨)

تململت في جلستها إلى جوار زوجها الذي ركز انتباهه في قيادة السيارة وسط ازدحام المرور الذي يميز القاهرة، خاصة في وقت الذروة. وعندما طال وقوفهما في إحدى إشارات المرور المزدحمة زفرت في تأفف وفتحت حقيبتها تلتقط طلاء شفاه لامع ثم أدارت مرآة السيارة إليها لتعيد طلاء شفتيها الرقيقتين بلون وردي جميل قبل أن تمط شفتيها في ملل وهي تعدل من تسريحة شعرها الجديدة بعد أن صبغته إلى اللون الذهبي وقصته حتى كتفيها قائلة بتذمر ـ"ألن تفتح هذه الإشارة اليوم؟ إننا هنا منذ ربع الساعة."

مد (طارق) يده ليعدّل وضع المرآة قائلًا برصانته المعهودة ـ"منذ أربع دقائق فقط يا زوجتي العزيزة."

التفتت إليه عاقدة حاجبيها في صمت ثم ما لبثت أن عقدت ساعديها أمام صدرها وعادت ببصرها إلى الطريق قائلة ـ"إنها مدة طويلة على أي حال."

هز رأسه دون أن ينبس بشيء وواصل قيادته الهادئة حتى خرج من الزحام إلى طريق واسع أتاح له الحديث في حرية فقال بلهجة تحمل بعض الضيق ـ"ألم نتفق على تخفيف مساحيق الزينة؟"

التفتت إليه في دهشة قائلة ـ"هل أنت جاد؟ فجأة أصبحت مساحيق الزينة سيئة؟"

ضغط بوق السيارة محذرًا لشخص كان يهم بعبور الطريق، ثم أجابها وعيناه على الطريق ـ"وهل مزحت بشأنه يومًا؟ لقد طلبت منك أكثر من مرة أن تخففي مساحيق الزينة خارج المنزل، وقلت لك إنني أحبك طبيعية دون زينة على الإطلاق."

جادلته بعناد قائلة ـ"وقلت لك إنك أحببتني وأنا أضع هذه المساحيق، وإنني أضعها حتى أظل جميلة في عينيك."

التقط كفها يقبله قائلًا بدبلوماسية ـ"أنت جميلة دومًا في عيني...ولا أريد لغيري أن يتمتع بهذا الجمال. أيرضيك أن يتمتع غيري بالنظر

إليك؟"
داعبت كفه بدلال قائلة ـ"أيرضيك أن يُقال إن زوجة الدكتور (طارق) غير أنيقة أو غير جميلة؟"
أدار مقود السيارة إلى أقصى اليمين قبل أن يقف أمام منزلهما ويلتفت إليها قائلًا بهدوء ـ"ومن قال إن الجمال في مساحيق التجميل؟ ومن قال إنني أريد للآخرين أن يروا جمالك؟"
مطت شفتيها بشكل طفولي وأشاحت بوجهها بعيدًا قائلة بتبرم ـ"لم يبق إلا أن تطالبني بارتداء النقاب."
أدار وجهها إليه وقال بابتسامة عذبة ـ"ليتك توافقين."
اتسعت عيناها في ذعر وعادت تشيح بوجهها بعيدًا وتفتح باب السيارة وتنزل في سرعة متجهة إلى بوابة المنزل، فتبعها وهو يضحك من رد فعلها على قوله.
صعد إلى شقتهما ليجدها تجلس على الأريكة المواجهة للباب وتضع ساقًا فوق ساق وتهزهما بعصبية.
اقترب منها مبتسمًا وقال ـ"ما سر هذه العصبية يا حبيبتي؟ كل هذا لأنني طالبتك بتخفيف مساحيق الزينة؟"
التفتت إليه بحدة قائلة ـ"بل لأنك تريدني أن أختفي خلف النقاب."
ضحك وأمسك خديها يمطهما كالأطفال قائلًا ـ"أنا لم أقل ذلك..أنت اقترحت وأنا وافقت على اقتراحك."
أزاحت يديه عن وجهها وقالت بضيق طفولي ـ"قلت يا ليت...إذن تفكر في ذلك."
داعب بأنامله آثار أصابعه على بشرتها البيضاء وهو يهمس ـ"حبيبتي كنت أداعبك...وعمومًا لن أطلب منك سوى ارتداء الحجاب وعدم استخدام مساحيق الزينة خارج المنزل."
عادت تلتفت إليه وعيناها تحملان غضبًا لم يره من قبل وهي تهتف ـ"(طارق) من فضلك لا تجبرني على أمر لا أريده، ولا تحاول أن تجعلني مثل (هالة)."

رفع حاجبيه في دهشة حقيقية من انفعالها الغريب قبل أن ينهض قـائلًا بحنق ـ"الأمر لا علاقة له بــ (هالـة) لأنـه لـيس طلبـي أنا...إنـه تكليـف سماوي لك..وإذا كنت ترفضين فرض الله فأنـت حـرة وستحاسـبين عليـه وحدك."
قالها واتجه إلى غرفته في ضيق واضح ورمى سترته على أحد المقاعد قبـل أن يتمدد على طرف الفراش ويسند رأسه على كفيه المعقودين...

يحبها نعم...وعرفها سافرة ومتبرجة،
لكنه يريد ألا يشاركه أحد النظر إليها.
لم ينس بعد منظرها صـبيحة يـوم زفـافهما وهــي ترتـدي قمـيص النـوم الأحمر، وكيف ثارت الدماء في عروقـه حيـنما رآهـا كـذلك وشـعر بـأعين الغرباء تأكلها دون حياء،
وفي كل مرة يراهـا في العمـل ويشـم عطرهـا عـن بعـد ويلمـح إعجـاب المرضى بجمالها وأناقتها ويسمع حديثهم عنها يشعر بنيران الغيرة تحـرق صدره،
أو ربما هي نيران النخوة.
أيًا كانت دوافعه...فهو لا يريد لزوجته أن تصبح مشاعًا هكذا،
ولا يريد أن يُحاسب أمام الله على ما تفعله.
لماذا لا تفعل مثل (هالة)؟
لماذا لا ترتدي الحجاب مثلها وتحتفظ بأناقتها أيضًا؟
(هالة)!!!
مثال الزوجة الأنيقة المحتشمة دون تزمت أو تفريط،
يالحظ (حازم) بها،
وليت.....
قطع تأملاته صوت (سمر) التي تقدمت منه بهدوء وجلست على طـرف الفراش إلى جواره قبل أن تهمس بأسف وهي تلمس ذراعه ـ"آسفة عـلى انفعالي يا حبيبي...لم أقصد أن أرفع صوتي."

منحها نظرة خاوية وكأنه لا يراها، فاستدركت قائلة بحرج ـ"لقد شعرت للحظة أن شكلي الجديد لا يروقك، رغم أنني عدلته خصيصًا من أجلك."
تأمل للحظات شعرها الذهبي المصبوغ وتسريحته الجديدة والعدسات الخضراء التي تغطي لون عينيها الطبيعي..
كانت أكثر جمالًا ولا ينكر ذلك،
ولكنها ليست طبيعية،
وهو يحبها طبيعية.
يحبها حينما تستيقظ من نومها وتفرك عينيها كالأطفال قبل أن تفتحهما،
يحبها وشعرها مبعثر بلا نظام حول وجهها البريء،
ولكن أين هي الآن من تلك البراءة!؟
تأملها للحظات ثانية قبل أن يقول بهدوء ـ"ها أنت ذا قلتها...عدلته من أجلي...ولكن الآخرين يرونك أيضًا..فما الفائدة إذًا؟ أنا لا أستطيع أن أمنع مرضاك أو زملاءنا من النظر إليك."
ضحكت بدلال قائلة ـ"حبيبي أنا طبيبة عيون...وأغلب مرضاي يرتدون النظارات الطبية..لا تخف. لن يغازلونني."
قال بحنق ـ"بعضهم يأتي خصيصًا ليرى الطبيبة الفاتنة، وأنا لا أحب ذلك."
مطت شفتيها كالأطفال وهي تقول بتبرم ـ"قل إنك لا تحب النيو لوك."
ضحك بخفوت على ملامحها وتبرمها واقترب منها قائلًا ـ"نيو لوك؟ أشعر أنني مع نجمة سينما."
أشاحت بكفها في ضيق ونهضت مبتعدة عنه، ولكنها ما أن وصلت إلى باب الغرفة حتى شعرت بألم شديد في أمعائها جعلها تنحني إلى الأمام وهي تضع كفها على معدتها في ألم وتتأوه بصوت خافت.
لم يكن يتابعها ببصره حينما قامت من جانبه، وإنما كان يقلب أزرار هاتفه المحمول في ضيق.
لكن آهتها الخفيضة خرقت مسامعه وهزت شغاف قلبه وكأنها صرخة مدوية، فانتبه إليها وهرع ليحيطها بذراعيه من الخلف هامسًا بهلع

ـ"حبيبتي ماذا بك؟"
تأوهت ثانية وهي تشدد قبضتها على معدتها في ألم قائلة ـ"مغص غبي أقاومه منذ الصباح..والأسوأ أنه يسبب لي غثيانًا."
تهللت أساريره وهو يديرها لتواجهه هاتفًا بسعادة ـ"حامل؟"

***

رفعت عينيها إليه بحدة وهي تقول بضيق ـ"(طارق)..ما دخل المغص بالحمل؟ لقد أصبت ببرد في المعِدة، هذا كل ما في الأمر."
احتوى وجهها بين راحتيه هامسًا وهو لا يخفي سعادته بحملها المرتقب ـ"وقد يكون حدسي صحيحًا و...".
قاطعته وهي تبتعد بوجهها عنه وتتجه إلى أقرب مقعد لتجلس عليه وتنحني لتحتضن معدتها بذراعيها المتشابكين دون أن تنبس بكلمة.
أدهشه رد فعلها فاقترب منها وانحنى على ركبتيه أمامها ورفع وجهها إليه ليسألها بقلق حقيقي ـ"(سمر) ماذا بك؟"
تضاعفت دهشته حينما تحركت فجأة لتدفن وجهها في كتفه وتحيط عنقه بذراعيها وهي لا تزال على صمتها، فأحاطها بذراعيه بدوره وهو يشعر بارتجافتها الخفيفة التي لا يدرك سببها.
ظلت على وضعها لدقيقة أو أكثر قبل أن تبتعد عنه بهدوء غريب وكأن شيئًا لم يكن، ثم نهضت وتناولت كفه لينهض هو الآخر قائلة ـ"هيا نجهز الغذاء..لابد وأنك تتضور جوعًا."
تأملها بدهشة حقيقية بدت وكأنها الشعور الوحيد الذي يسيطر عليه في هذا اليوم، ورغم ذلك تبعها إلى خارج غرفتهما وهو يسألها بحنان ـ"هل زال المغص؟"
تحسست معدتها للحظات قبل أن تجيبه بلا مبالاة ـ"إنه متقلب...لقد هدأ الألم الآن ولكنه سرعان ما سيعود.. سأتناول قرصًا مسكنًا للألم الآن."
لم يستطع التغلب على القلق الذي يكتنفه، لذا قال بلهجة حاسمة ـ"سأصحبك إلى الطبيبة لتفحصك..لابد وأن أطمئن عليك."
أشاحت بكفها وهي تشعل الموقد قائلة بلامبالاة ـ"لا تشغل بالك يا

حبيبي..لقد نمت أمام المكيف وأصبت ببرد في المعدة سرعان ما سيزول..ولا تنس أنني طبيبة أنا الأخرى وأفهم جيدًا ما بي."
تأمل ظهرها وهي تعمل بهدوء قبل أن يقول بلهجة طبيعية -"إذن نُجري فحوص الزواج الجديدة."
التقطت نفسًا عميقًا وهي تتظاهر بتسخين الطعام وحاولت ألا يبدو توترها في صوتها وهي تقول -"إنها للمقبلين على الزواج يا (طارق) ونحن متزوجان بالفعل. فلا داعي لإجرائها إذًا."
اتجه إلى المبرد وفتحه ليلتقط بعض الخضروات الطازجة لصنع السلاطة قائلًا بنفس الهدوء -"على العكس تمامًا.. ربما كانت هناك أشياء خافية علينا، فقد يكون الـ RH عندك أو عندي سالبًا وهو ما قد يؤثر على الأجنة فيما بعد."
لم تستطع كبح أعصابها فأفلتت منها وهي تلتفت إليه قائلة بتوتر -"أي أجنة؟ لماذا تتسرع هكذا؟ إننا مازلنا في بداية حياتنا وآخر شيء أريده الآن هو الأطفال. يجب أن أنهي رسالة الماجستير أولًا قبل أن أفكر في الإنجاب."
عقد هو حاجبيه هذه المرة وترك الخضروات في حوض المطبخ والماء يتدفق عليها وهو يقول بحنق -"ما معنى هذا؟ إننا لم نتفق على هذا الرأي، وأنا أريد أطفالًا."
هتفت به في حدة -"فيم تريدهم؟ أليس لديك ثلاثة بالفعل؟ ما الداعي إلى المزيد؟"
أغلق صنبور المياه والتفت إليه يجذبها من ذراعها لتواجهه قائلًا من بين أسنانه -" ما هذه النغمة الجديدة؟ صحيح أن أبناء (حازم) أصبحوا أبنائي ولكنهم ليسوا من صلبي. أريد أطفالًا منك أنت ليشهدوا على حبنا، وأنت ترفضين؟!"
أدارت وجهها بعيدًا عنه قائلة -"توقف عن الحديث كأنصاف المتعلمين. الأطفال لا تشهد على الحب. مع مولد أول طفل ستبدأ المشاكل، ورغمًا عنك ستفرق في المعاملة بين أبنائنا وأبناء أخيك مثلما فعل زوج أمي

حينما أنجبت أمي له صبيًا."
ورغمًا عنها سالت دمعة ساخنة على وجنتها وهي تقول -"حتى حينما توفى أخي هذا ظل يعاملني وكأنني المسؤولة عن وفاته."
أدار وجهها إليه في حنوّ ومسح دمعتها بإبهامه هامسًا -"حبيبتي، أنت تعرفينني جيدًا، ولست أنا من يفرق بين أولاده. لا تخافي من هذه النقطة، فقط أرجوك ألا تحرميني من حمل ابننا بين ذراعي. اتفقنا يا حبيبتي؟ سنجري الفحوصات من أجل الاطمئنان لا غير."
رفعت عينيها إليه ثم ما لبث أن طغى عليها عنادها الذي بدا في عينيها وهي تقول -"أنت طبيب وتدرك جيدًا أن القلق من عدم الحمل يبدأ بعد عام من الزواج، ونحن لم نكمل ثمانية أشهر بعد. فلم العجلة؟"
قرص وجنتيها كالأطفال وهو يقول كمن يداعب طفلته -"لأنني أريد الاطمئنان فقط..ولأنني أريد طفلة تشبهك كي أقرص وجنتيها كما أشاء."
ضحكت رغمًا عنها وأفلتت وجهها منه وهي تدفنه في صدره قائلة -"ادع لنا..وافعل بها ما تشاء."
ربت على ظهرها بحنان قائلًا -"لا نملك سوى الدعاء يا حبيبتي والأخذ بالأسباب...وأملنا في الله كبير."

وفي أعماقه ابتهل إلى الله أن يرزقهما الذرية الصالحة.

*****

(١٩)

جلست برفقة أمها والأطفال حول مائدة الطعام التي خلا مقعدها الرئيسي، لليوم الخامس على التوالي، من وجوده الذي يضفي دومًا على الطعام مذاقًا خاصًا، مذاقًا عائليا افتقده الجميع وعبّر عنه(هاني) بأسلوبه الطفولي وهو يقول بضيق ـ"أين بابا(طارق)؟ إنه لم يأت منذ خمسة أيام وهاتفه المحمول مغلق، لا أستطيع الأكل في غيابه."

تبادلت(هالة) نظرة سريعة حائرة مع أمها قبل أن تقول لابنها في هدوء ـ"بابا(طارق) في مؤتمر كما أخبرتكما من قبل، وعندما ينهي أعماله سيعود بإذن الله. وحيث أننا لا نعلم متى سيعود، فأنت لا تستطيع البقاء دون طعام. تناول غداءك الآن، وبعد الأكل أعدك بأن نحاول محادثته ثانية. اتفقنا؟"

أومأ الولدان برأسيهما وتظاهرا بتناول طعامهما بتكاسل وهي تراقبهما بعينين حزينتين.

فقد تعلق أبناؤها بعمهم بطريقة لم تكن تتخيلها أبدًا وصار وجوده معهم في المنزل أهم إليهم من الأكسجين في الهواء.

هو أيضًا كان لا يمل الجلوس معهم حتى لو طالت جلستهم لساعات أو حتى لأيام.

لكنه تغير في شدة مؤخراَ ولم يعد(طارق) الذي عرفته وتزوجته،

لقد صار شخصًا آخر.

شخص عصبي المزاج، متقلبه، وكأنه يخفي بداخله شيئًا لا يريد البوح به وهو ما ينغص عليه حياته بهذا الشكل، بل ويجعله منطويًا عنها ولا يرغب في مشاركتها إياه.

وما يقلقها عليه هو غيابه الطويل هذا،

لقد اعتاد أن يحادثهم كل ليلة يبيت فيها في بيته الثاني مع (سمر)، لكنه لم يفعل هذه المرة.

والأدهى أن هاتفه المحمول مغلق وهي لا تجرؤ على محادثته في المستشفى لا بنفسها ولا حتى بواسطة الأولاد لاقتناعهم بأمر المؤتمر

المزعوم هذا.
وبينما هي غارقة في التفكير تناهى إلى مسامعها صوت مفتاح يدور في الباب الأمامي و(هاني) يقفز من فوق مقعده هاتفًا بسعادة لا مثيل لها
ـ"لقد عاد بابا (طارق)."
قالها وهو يهرع مع(هيثم) إلى الباب ليستقبلا عمهما قبل أن يدلف إلى الشقة، وكان(هاني)هو الأسرع حيث أحاط ساقي عمه بذراعيه هاتفًا بلهجة تجمع بين السعادة والعتاب ـ"حمدًا لله على سلامتك يا أبي، لماذا غبت طويلًا هكذا؟"
ولدهشة جميع الحضور، فقد خرج صوت(طارق) قاسيًا وهو يزيح الصغير بعيدًا عنه بخشونة قائلًا ـ"ماذا تفعل؟ تلوث ملابسي بيديك المتسختين وتحاول أن توقعني على الأرض؟"
شحب وجها الولدين و(هيثم) يقول مدافعًا عن شقيقه الأصغرـ"ولكن يدي(هاني) مازالتا نظيفتين، فنحن لم نبدأ الأكل بعد."
التفت إليه عمه هاتفًا بغضب ـ"وهل انتدبك لتدافع عنه؟"
ومن موقعها أدركت(هالة) سخونة الموقف فهرعت لتقف بين أولادها وعمهم الذي كان في أشد حالات الغضب حينها ويهم بصفع(هاني). فوجئت بنفسها تمسك ذراع(طارق) المرفوعة وعلى وجهها ابتسامة مرتبكة قائلة بلطف ـ"هدئ من ثورتك يا(طارق). الأمر لا يستحق ذلك" ثم استدارت إلى ابنيها قائلة بحزم ـ"اعتذرا لعمكما وحسابكما معي فيما بعد."
نظر الولدان إليها في ذهول وقد عجز عقلاهما عن فهم السر خلف عقابهما لأنهما هرعا لاستقبال عمهما، إلا أن عنادهما وترددهما ذابا مع نظرة(هالة) الصارمة، فاعتذرا في هدوء وأسرعا إلى حجرتهما والدموع تسبقهما.
وبعد أن أسرعت أمها خلف الطفلين استدارت(هالة) بوجهها نحو(طارق) وهالها ما رأت...
فقد كان ذابلًا، وشعره غير مرتب، وقد نمت لحيته لتعطيه عمرًا يفوق

عمره الحقيقي...
ولكن ما أدهشها حقًا هو أنه لم يكن وحيدًا، فقد كانت بصحبته حقيبة سفر كبيرة.
نفس الحقيبة التي ساعدته في ترتيبها قبل زواجه من (سمر).
غاص قلبها بين ضلوعها لمعنى عودة الحقيبة إلى شقتها...
وبكل قلقها ولهفتها عليه هتفت به ـ"ماذا بك؟ ماذا حدث؟"
لم تندهش حين سحب ذراعه من قبضتها ورمقها بنظرة طويلة قبل أن يتجه إلى غرفتهما ويغلق بابها خلفه.
للحظة وقفت حائرة في الردهة، أتتجه إلى طفليها أم إليه؟ ثم ما لبثت أن حسمت أمرها واتجهت إلى طفليها تهدئ من روعهما، و(هاني) يقول من بين دموعه ـ"لم أقصد تلويث ملابسه يا أمي، أقسم لك. انظري إلى يديّ، إنهما نظيفتان."
احتضنته في حنان وربتت على ظهره قائلة ـ"أعلم هذا يا حبيبي، لقد انفعل لأنك اندفعت إليه مسرعًا وكان من الممكن أن يفقد اتزانه ويقع."
أما (هيثم) فلم يبد عليه الاقتناع بما قالته أمه إذ مسح دموعه وهو يقول بثبات يفوق عمره ـ"لقد تغير بابا(طارق) وأصبح مثل بابا(حازم) رحمه الله، لم يعد يجلس معنا كما اعتاد في السابق وتغيرت معاملته معنا."
التفتت إلى ابنها في دهشة وأدركت لحظتها أن(هيثم) نضج قبل أوانه، وأن ذهنه تفتح ليدرك ما ظنته مرئيًا لها وحدها، فمدت يدها إليه لتأخذه هو الآخر بين ذراعيها قائلة بهدوء ـ"لا تقل هذا، إنها ضغوط العمل. سيعود بابا (طارق) إلى ما كان عليه في السابق، أعدكما بذلك."
*****

(٢٠)

وقف في شرفة غرفة النوم وأشعل سيجارة نفث دخانها بعيدًا في قوة علها تخفف توتره، وقلبه يقرّعه على ما فعله في ابني شقيقه للتو.
كان تأنيب ضميره يمزق قلبه وأحاسيسه كلسعات السياط، فما كان ينبغي أن يثور هكذا على الولدين، خاصة وهو يعلم بمدى حبهما له وافتقادهما لوجوده.
استغرقته أفكاره فلم يسمع طرقاتها الهادئة على باب الغرفة، حتى فوجئ بها إلى جواره.
فعندما لم يجبها فتحت (هالة) باب الغرفة ودلفت إليها لترى -أول ما رأت- حقيبته موضوعة إلى جوار الفراش. وعندما بحثت عنه بعينيها في الغرفة لم تجده، كان بالشرفة، ولم ينتبه إلا وهى تربت على كتفه وتسأله في تعاطف ـ"ماذا بك يا(طارق)؟ ماذا حدث؟ ولماذا عدت إلى التدخين ثانية؟"
انتفض وهو يخرج من شروده قبل أن يستدير إليها بعينين حزينتين، ويسحب نفسًا عميقًا من سيجارته ثم يقذفها بعيدًا في الهواء بأصابع مرتجفة ويعود بوجهه ثانية إلى الشارع وينفث الدخان بعيدًا في صمت.
ضايقها صمته وأقلقتها نظرة عينيه فقالت بلهجة خاصة ـ"(هيثم) و(هاني) يبكيان في الداخل، وأنت هنا تعود للتدخين ولا تبالي بإجابة أسئلتي و..."
قاطعها وهو يرفع كفه الأيمن أمامها صامتًا.
هالها مرأى ارتجافة كفه القوية فأمسكتها برفق وهي تقول بهلع ـ"ما هذا؟ كفك ترتجف في شدة."
نظر إلى كفه في ألم ولم يجبها فازدردت لعابها الجاف وسألته في جزع ـ"هل حملت شيئًا ثقيلًا أو..."
قاطعها قائلًا بصوت مختنق ـ"أتدرين ما هي ثروة الجرّاح؟ إنها أصابعه. تخيلي خطورة أن تهتز أصابع الجرّاح أثناء عمله. لقد كدت أفقد مستقبلي اليوم حين اهتز المبضع في يدي، ورغم أن أحدًا لم يلحظ ما

حدث فقد شعرت بانهيار ثقتي في نفسي دفعة واحدة وطلبت من زميلي إجراء الجراحة بدلًا مني."

اتسعت عيناها في ذعر وهي تستمع إليه وأصابعها تكتم شهقة عنيفة من حلقها قبل أن تقول بحزم -"هيا إلى الداخل، إنك ترتجف من البرد."

قال معترضًا-"أنا لا أرتجف من البرد."

أشارت إليه بالدخول قائلة في ثبات -"أيًا كان السبب، يجب أن ندخل سويًا إلى الغرفة لأننا لن نناقش ما أنت فيه أمام مدينة نصر بأكملها."

بدا قولها مقنعًا إلى حد كبير فتبعها في هدوء للداخل وجلس على أول مقعد صادفه واضعًا وجهه بين كفيه، فركعت أمامه على ركبتيها وربتت على كتفه في حنان قائلة -"(طارق)! لا تقلق، ستكون بخير غدًا إن شاء الله. أؤكد لك أن الأمر لا يعدو كونه إرهاقًا زائدًا لعضلات ذراعك وستعود لطبيعتك بعد قليل من الراحة."

رفع وجهه إليها قائلًا في سخرية -"راحة؟ ومن أين تأتي الراحة؟ من أبي، أم من(سمر)، أم من المستشفى؟"

عقدت حاجبيها قائلة في قلق -"ماذا حدث؟ وما سر هذه الحقيبة؟"

ألقى نظرة سريعة على الحقيبة قبل أن يقول بتهكم -"الحقيبة؟ إنها نهاية الفصل."

سألته في حيرة -"أي فصل؟ وماذا تقصد بذلك؟"

تنهد في عمق قائلًا -"نهاية الفصل الأخير من المسرحية المؤلمة التي كنت أعيشها في الفترة الماضية والتي بدأت بتدخل أبي في حياتي مع (سمر) بحجة رغبته في رؤية أبنائي، وبعدها إصراري على إجراء فحوصات شاملة لي ولها، وانتهت المسرحية بانفصالي عن(سمر)."

قفزت واقفة على قدميها هاتفة في استنكار-"ماذا قلت؟ انفصالكما؟ كيف ولماذا؟"

نهض بدوره مبتعدًا وقال بخفوت -"لا رغبة لي في الحديث عن هذا الأمر الآن."

اتجهت إليه وتابعت وكأنها لم تسمع ما قاله -"وأين ذهب حبكما؟ هل

نسيت كل ما فعلته (سمر) مـن أجلـك وأجـلي ومـن أجـل أولادي؟ هـل نسـيت كـم عانـت وكـم ضـحت في سـبيل حبهـا؟ كيـف تتركهـا بهـذه السهولة؟"

هتف بحنق ـ"قلت إنني لا أريد الحديث عن هذا الموضوع."

جذبته من ذراعه ليلتفت إليها قائلة بحزم ـ"بل ستتحدث لأن هذا الأمر لا يتعلق بكما وحدكما، بل بي وبأبنائي أيضًا. لقـد احترمـت صـمتك فـيما مضى رغم إحساسي بوجود مشاكل في حياتك، وقلت لنفسـي إنك حـر في الاحتفاظ بأسرار بيتك لنفسـك وإنـك سـتحلها بشـكل أو بـآخر. لكـن أن يصل الأمر للانفصال فهذا ما لن أسكت عليه وأصر على معرفة أسبابه."

رمقها بنظرة حادة فتداركت بلهجة ناعمة ودود ـ"موضوع يدك له علاقة بالأمر، لذا اجلس في هـدوء وأخـرج كـل الضـغوط التـي انعكسـت عـلى أعصابك وتوشك أن تفقدك مستقبلك."

قالتها وهي تقوده برفق إلى مقعده ثانية وتُجلسه عليه بهدوء.

أما هو فقـد ظـل ينظـر بـألم إلى كفـه اليمنـى التـي ترتجـف رغـمًا عنـه والدموع الحبيسة تحرق مقلتيه وتكتم أنفاسه، وعقله يضـخم لـه الأمـر موحيًا له بأنه سيفقد مستقبله كجرّاح إذا ظل على هذه الحالة.

شعرت بقلبها يتمـزق لمـرآه هكـذا فركعـت أمامـه ثانيـة وتناولـت كفـه المرتجفة بـين يـديها وهمسـت بحنـان ـ"إنك تزيـد الأمـر سـوءًا هكـذا، صدقني ستتحسن يدك قريبًا و..."

قاطعها وهو يتأمل عينيها السوداوين قائلًا ـ"لقد طلبت (سـمر) الطـلاق بنفسها."

تراجعت مبهوتة للحظة وهي تستمع إليه قبل أن يخرج صوتها مبحوحًا وهي تقول ـ"بسببي؟"

هز رأسه نفيًا في صمت قبل أن يتنهد بعمق ويعود بذاكرتـه إلى خمسـة أيام مضت.

***

كان قد عاد لتوه إلى شقته وقد بلغ معه الإرهاق مبلغه بعـد يـوم عمـل طويل، وأدهشه ألا يجد (سمر) في الردهة تشاهد التلفاز كعادتها.
حتـى حيـنما أدار بصــره في أرجـاء الشـقة لم يجـدها حولـه، فاتجـه إلى غرفتهما وما أن اقترب حتـى تنـاهى إلى مسـامعه صـوت نحيـب مكتـوم ففتح الباب في سرعة ليجد زوجته تحتضن وسادتها وتبكي بألم.
راعته دموعها وصوت نحيبها فهرع إليها ورفع وجهها عن الوسادة قـائلًا في لهفة ـ"ماذا بك يا حبيبتي؟ لماذا تبكين؟"
رفعت إليه عينيها المتورمتين من شدة البكاء ثم عادت لتدفن وجههـا في الوسادة وتجهش بالبكاء لتزيد من قلقه، فسألها بتوتر وهو يمسح ظهرها براحته ـ"هل تتألمين؟ هل تُوفي أحد من أقاربنا؟ أجيبيني يا (سمر) فأنا لا أطيق التوتر."
رفعت عينيها ثانية والتقطت مظروفًا كبيراَ بجانبهـا ناولتـه إليـه دون أن تنطق وعيناها تتابعان ملامحه لمعرفة ردة فعله.
أما هو فتناول منها المظروف وعقله لا يزال متوقفًـا مـن الإرهـاق الـذي يشعر به. فتحه بعد أن جلس على طرف الفراش ليجد به مجموعـة مـن صور الأشعة السينية والموجات فوق الصوتية ونتائج التحاليل.
حينها بدأ يـدرك أنهـا ولا شـك نتيجـة تحاليلـه وأشـعاته هـو و(سـمر)، وبدأت دقات قلبه في التسارع وهو يحـاول الـتكهن بمـا تحملـه النتـائج ويربطه ببكاء زوجته الشديد.
بدأ بأشعته وتحاليله أولًا، والتهمت عيناه أسطر التقارير في سرعة إلى أن تأكد من أنه سليم تمامًا ولا يوجد ما يمنعه من الإنجاب.
لحظتها فقط سمح لأنفاسه الحبيسة بالخروج من رئتيه في صورة تنهيدة قوية أعقبها بقوله ـ"الحمد لله."
ثم ما لبث أن انتبه إلى النتـائج الأخرى...لابـد وأنهـا تحمـل سـبب بكـاء (سمر).
تزايدت دقات قلبه ثانية وهو يفحص أوراقها وأشعاتها وعينـاه تتسـعان أكثر وأكثر، ثم ما لبث أن شـعر بقبضـة بـاردة تعتصــر قلبـه وهـو يقـرأ

النتيجة النهائية لتقرير أشعة الموجات فوق الصوتية، فأغلق عينيه في ألم والتقط نفسا عميقًا يهدئ به توتره الذي فاق كل حد، قبل أن يلمس كف (سمر) قائلًا بصوت حاول أن يبثه قدراً من الهدوء -"حبيبتي هذه ليست النهاية...الطب يتقدم كل يوم وكل ساعة...ومع الاجتهاد في الدعاء سيرزقنا الله بالذرية الصالحة و..".
قاطعته من بين دموعها قائلة بلهجة جافة -"أي طب وأي دعاء!؟ ألم تقرأ التقارير بعناية؟ أنا عقيم يا دكتور...عقيم ولا يمكنني الإنجاب."
هتف بها مستنكرًا -"أستغفر الله العظيم...هل سنكفر مع أول ابتلاء؟"
استغفرت ربها بصوت خفيض في حين تابع هو بهدوء وثبات -" يا (سمر) لا تقنطوا من رحمة الله..لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالدعاء ووعدنا بالاستجابة..ولا يوجد ما هو مستحيل على قدرة الله. ومن يدري..فقد تستيقظين يومًا لتجدين طفلي بين أحشائك."
عادت إلى دموعها ثانية وهي تقول بانهيار -"أعد قراءة التقارير يا (طارق). الأمر واضح. أنا لا أستطيع الإنجاب لأن رحمي لا يستطيع التمدد مع نمو الجنين. ألا تدرك معنى ذلك؟ معناها أنه لا يمكنني الإنجاب حتى بواسطة التلقيح الصناعي. لقد انتهى الأمر."
اقترب منها ووضع رأسها على صدره واحتواها قائلًا بحنانه المعهود -"لن أفقد الأمل..وحتى إذا لم ننجب أطفالًا فوجودك معي يكفيني. أستطيع الحياة معك دون أطفال. ألم تقولي إن لدي ثلاثة بالفعل...سأكتفي بهم ونستمر في حياتنا وكأن شيئًا لم يكن و...".
قاطعته وهي تبتعد عن صدره في حدة قائلة بعنف -"طلقني."
اتسعت عيناه وهو ينظر إليها وكأنه يراها لأول مرة، ثم حاول أن يقربها إليه ثانية ليمتص انفعالها لكنها دفعته في صدره بقوة قائلة بشراسة لم يرها من قبل -"ألم تسمعني؟ قلت لك طلقني."
تنهد بقوة واستعاذ بالله من الشيطان في داخله قبل أن يقول بهدوء -"وحدّي الله يا (سمر)...ما الداعي للحديث عن الطلاق الآن؟ قلت لك إنني راض بقضاء الله ولن أفقد أملي فيه، وإنني لا أريد أطفالًا وإنما

أريدك أنت..فلماذا الحديث عن الطلاق؟"
سألته في حدة ـ"أتستطيع مواجهة والدك بذلك؟ أتستطيع أن تقول له بكل صراحة زوجتي عقيمة يا أبي وأنا لا أريد الإنجاب."
قال في ضيق ـ"وما دخل أبي بالأمر؟"
أجابته بنفس الحدة وقد ارتفعت نبرة صوتها الباكي قائلة ـ"أتنكر أن السبب الحقيقي في موافقته على زواجنا كان رغبته في رؤية أبنائك؟ أتنكر أنه ألمح إلى تأخر حملي أكثر من مرة؟ قل لي كيف ستمنحه ما يريد من أحفاد..هل تتبنى أطفالًا أم تتزوج الثالثة لتنجب لك وبذلك ترضي جميع الأطراف. تتزوج (هالة) لتربي أبناء شقيقك الراحل وتحمي إرثهم، ثم تتزوجني لأنك تحبني، ثم تتزوج الثالثة لتنجب لك ولي العهد المنتظر."
كان يسمع كلماتها القاسية بضيق، ولكن كلماتها الساخرة الأخيرة أخرجته عن هدوءه فهتف بها من بين أسنانه ـ"(سمر).. لقد تغاضيت عن الكثير من حديثك لعلمي بحالتك النفسية الآن، ولولاها لكان لي تصرفًا آخر. لقد انتهت المناقشة ولا رجعة في ذلك، ولن أسمح لك بالحديث عن الطلاق ثانية."
تأملته للحظات وأدركت كيف يجاهد للحفاظ على هدوء أعصابه في وجه كلماتها الجارحة، وحمدت ربها سرًا أنه يجيد كبت انفعاله وإلا لكان صفعها في قوة على إهانتها له.
ولدهشتها فقد أشار إليها بسبابته قائلًا بلهجة شبه آمرة ـ"هيا اغسلي وجهك وغيري ملابسك..سنخرج للعشاء."
اتسعت عيناها وهي تتأمل ملامحه المرهقة قائلة بدهشة ـ"ماذا؟"
لاح شبح ابتسامة على طرف شفته وهو يقول بإرهاق ـ"ماذا ماذا؟ إنني أتضور جوعًا وأنت لم تجهزي العشاء فما الحل؟ هيا سنتناول العشاء في الخارج."
ترددت وهي تتأمل أصابع كفيها الرقيقة في حرج قائلة ـ"لا داعي للخروج...سنطلب خدمة التوصيل و..."

اقترب منها باسمًا وتناول كفيها في رقة قائلًا ـ"كلا..العشاء في المطعم مقصود كيلا تطاردك الأفكار السوداوية وكي تضطرين إلى الحفاظ على مظهرك ولا تبكين."
ابتسمت رغمًا عنها واحتضنت أصابعه بين أصابعها قبل أن تبتعد لتستعد كما طلب منها.
حينها تنهد في عمق واعتقد أن المشكلة انتهت على خير.
ولكنها كانت أبعد ما تكون عن الخير...

ففي الصباح التالي حينما استيقظ مبكرًا كي يستعد للذهاب إلى عمله جلست في الفراش وابتدرته بسؤالها ـ"لماذا ستذهب إلى المستشفى الآن؟ مواعيدك اليوم بعد الظهيرة."
أجابها بتلقائية وهو يصفف شعره في المرآة ـ"لقد أرسلوا إلي في الفجر كي أحضر عمليات الدكتور (سلطان) بدلًا منه لأن زوجته تل..".
قطع عبارته فجأة وهو ينظر إلى انعكاس صورتها في المرآة وقد حمل وجهها تعبيرًا غريبًا فالتفت إليها سريعًا كي يعتذر لكنها كانت أسرع وهي تقول بألم ـ"هل علمت المستشفى بهذه السرعة؟"
وضع كفيه على رأسه قائلًا بصبر نافذ ـ"لا حول ولا قوة إلا بالله..أصبحنا وأصبح الملك لله...ما الذي علمته المستشفى يا (سمر)؟ ومالحياتنا الشخصية بها؟"
اغرورقت عيناها بدموع سريعة وهي تقول ـ"ما تفسيرك إذًا لهذا الاستدعاء؟ لماذا لم يستدعوا أي جراح آخر؟ لا يوجد تفسير سوى أنهم يعلمون أن زوجتك لن تلد يومًا ولهذا فأنت متاح في أي وقت."
زفر في ضيق وخلل شعره بأصابعه قائلًا ـ"يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم...(سمر) يا حبيبتي..ما أدراك أنهم لم يطلبوا غيري؟ ثم كيف تعلم المستشفى بتقاريرنا الصحية التي أجريناها في مستشفى آخر؟ استعيذي بالله من شيطانك وهيا لتذهبي معي إلى العمل."
اعتدلت على طرف الفراش وهي تقول ـ"أفضل ألا أذهب اليوم...حالتي

النفسية ليست..."
جذبها من كفيها ليوقفها على الأرض قائلًا برقة وكأنه يتعامل مع طفلة كبيرة ـ"الحل الأمثل لحالتك النفسية هو الخروج من البيت..أتنكرين أنك كنت أفضل بالأمس بعد عودتنا؟ هيا استعدي فلن أنتظر طويلًا."
وأطاعته ثانية وظن أن الأمور في تحسن.
لكنه فوجئ بعد انتهاء عمله في المستشفى بأنها غادرت منذ الصباح وبأن هاتفها المحمول مغلق.
عاد منهكًا إلى المنزل فلم يجدها، ولم يجد بالطبع ما يأكله.
حاول الاتصال بجوالها ثانية دون جدوى، ثم ما لبث أن أرشده عقله إلى الاتصال بمنزل والدتها التي قالت له بهدوء إن زوجته بحاجة إلى إراحة أعصابها وإلى البقاء وحدها بعيدًا عنه لفترة.
لم يحاول الجدال معها لعلمه بأن (سمر) لن تغير رأيها بسهولة وأنها بحاجة إلى وجود أمها إلى جوارها في حالتها تلك.
واتخذ قراره حينها بالذهاب إلى (هالة)...فمؤكد أنها ستهتم به وسيجد عندها الطعام الساخن والملابس النظيفة و...
قطع عليه تفكيره صوت هاتفه المحمول برسالة من المستشفى تطلبه بشكل طارئ فزفر في ضيق قائلًا ـ"أستغفر الله العظيم...ألا يوجد جراح غيري في هذا المستشفى؟"
قالها والتقط سلسلة مفاتيحه وغادر الشقة متجهًا إلى عمله ثانية، والذي استغرقه حتى الصباح التالي. وحينما انتهى كان الإرهاق قد بلغ معه حدًا يجعله لا يكاد يرى أمامه، فلم يهتم حتى بسؤال زملائه ما إذا حضرت (سمر) إلى عملها أم لا.
غير أنه حينما فتح باب شقته ودلف إليها تبخرت من عقله كل أحلام النوم.
فقد كان شكلها يبدو مختلفًا...
ليس مختلفًا بشكل كبير، ولكنه مختلف بالنسبة لمن عاش فيها طيلة سبعة أشهر أو يزيد، ويتمتع بقوة ملاحظة غير عادية.

فقد لفت انتباهه تحرك أحد مقاعد الأنتريه عن موضعه أمام غرفة النوم، مما يعني أنه كان يعوق خروج شيء من بابها.

أسرع عند هذه النقطة إلى غرفة نومه وفتح بابها بقوة ليجد خزانة الملابس التي تحوي ثياب زوجته فارغة ومفتوحة على مصراعيها...

التفت برأسه إلى حيث المرآة ليلحظ اختفاء عطورها ومستحضرات تجميلها...

وكأنما كان يحتاج إلى براهين أقوى على رحيلها، هرع إلى الحمام وفتحه ليكتشف اختفاء باقي متعلقاتها من شامبو وملطف و و و

حينها أسند ظهره إلى الجدار ورفع كفيه إلى وجهه للحظات قبل أن يخلل شعره بأصابعه ويتجه إلى الهاتف ويطلب رقم والدة زوجته.

وعلى غير هدوءه المعتاد فوجئ بنفسه يهتف بوالدتها بعصبية -"أريد التحدث إلى (سمر) من فضلك."

أجابته والدتها بنفس الهدوء الذي يميزها قائلة -"(طارق) يا بُني..لا داعي للانفعال..فالأمر لا يستحق."

سألها في حنق -"إذا كان الأمر لا يستحق فما تفسير اختفاء كل متعلقات (سمر) من شقتها؟"

أجابته بثقة -"لقد أخبرتك من قبل أنها بحاجة إلى البقاء بعيدًا لفترة، ومن الطبيعي أن تأخذ ملابسها لأنها لن تذهب إلى العمل بنفس الملابس كل يوم."

لم يبد عليه الاقتناع بما قالت، لكنه تنهد في عمق قائلًا -"سأتظاهر بالاقتناع بمبرراتك..ولكن من فضلك صليني بـ(سمر)."

قالت بصدق -"أقسم لك يا بُني أنها في المستشفى...ستعود في المساء...هاتفها حينها وتفاهما سويًا."

هز رأسه باستسلام ثم ما لبث أن عاد صوته إلى هدوءه وهو يقول -"حسنًا إذًا. سأهاتفها حينما أستيقظ."

قالها ثم أنهى المكالمة بود، فآخر ما يريده الآن هو أن يفقد دعم أهلها لموقفه وإصراره على بقائهما معًا.

وفي تكاسـل نهـض ليأخـذ حمامًـا سريعًـا، قبـل أن يسـتلقي عـلى فراشـه ويستغرق في نوم عميق.
لم يدر كم مضى من الوقت وهو نائم، لكنه حينما اسـتيقظ كـان الظـلام يحيطه من كل جانب والجوع يقرص معدته...تذكر حينها أنـه لم يتنـاول شيئًا منذ مساء اليوم السابق فـنهض يعـد لنفسـه طعامًـا سريعًـا تناولـه بدافع من الجوع فحسب.
وبعد أن قضى ما فاته من صلوات ارتدى ملابسه وخـرج إلى منـزل أهـل (سمر).
كان يتوقع ترحيبها به، لكنها على العكس استقبلته ببرود وكأنه المسـؤول عما بها...
والأدهى أنهـا لم تسـتمع إليـه وهـو يؤكـد لهـا اسـتعداده وإصراره عـلى مواصلة الحياة معها كأن شيئًا لم يكن...
وفي النهاية فاجأته بطلب الطلاق ثانية.
حينها نهض من مقعده بهدوء يتناقض وغليان مشـاعره الـداخلي وتنهـد في عمـق قـائلًا ـ"سأتظاهر بـأنني لم أسـمع شـيئًا، وسـأنتظر عودتـك في بيتنا."
قالها وخرج دون أن يضيف حرفًا، بعدما شعر بضيق يطبق على أنفاسه.
تجول بسيارته قلـيلًا في شـوارع القـاهرة المزدحمـة قبـل أن يجـد نفسـه بالقرب من النيل في منطقة هادئة.
نزل من سيارته واكتفى بالجلوس وهو يدخن ساهمًا أمـام صـفحة النيـل وهواء الليل المنعش يداعب شعره ويدغدغ أعصابه المتوترة حتى ما بعد منتصف الليل.
حينها شعر برجفة خفيفة تسـري في أوصـاله فخـرج مـن شروده ووضـع كفيه في جيبي سترته متحركًا إلى حيث سيارته، وأدارها متجهًا إلى شقته.
كان يتمنى الذهاب إلى (هالة) حتى يشـعر بـبعض الراحـة، ولكنـه كـان يشفق عليها من الدخول في دوامة مشـاكله مـع (سـمر)، لأنهـا سـتلحظ توتره وضيق أعصابه ولن تهدأ حتى يُخرج ما بداخله.

لذا وجه السيارة إلى شقته الخاصة وهرب من ضيقه إلى النوم، عسى أن يرتاح عقله قليلًا.
حينما استيقظ في الصباح التالي كان يشعر ببعض النشاط، ولكنه لم يستطع تجاهل الشعور بثقل يجثم على أنفاسه فاستهل يومه بالتدخين علّه يزيح ذلك الشعور.
كان يدرك بحكم دراسته أن التدخين لن يفيده وإنما سيضره بشكل قاتل، ورغم ذلك كان يلهي نفسه بالتدخين حتى أجهز على نصف العلبة قبل أن يغسل وجهه.
وعلى عكس ما كان يمني نفسه، لم يزده التدخين إلا ضيقًا فوق ضيق، فنهض يأخذ حمامًا منعشًا قبل أن يتصل بالمستشفى ويطلب إجازة عارضة لهذا اليوم بعد مجهود عمليات اليومين الماضيين.
قضى يومه يقلب في قنوات التلفاز، وبين الحين والآخر ينظر في شاشة هاتفه المحمول ليتأكد من تغطية الشبكة، ثم يرفع سماعة الهاتف الأرضي ليتأكد من وجود حرارة...ورغم ذلك لم يأته أي اتصال.
حتى كانت السابعة مساء.
تزامنت دقات ساعة الحائط مع رنة جرس الباب حتى أنه لم ينتبه إليه في البداية.
ثم ما لبث أن انتبه مع الرنة الثانية وقام ليفتح الباب...
ولدهشته فقد كانت (سمر) أمامه هي وأمها وزوجها وأبنائه...ووالده.
ألجمته الدهشة للحظات قبل أن يهمس لزوجته ـ"لماذا تدقين الباب ومعك مفتاح؟"
لم تجبه وتهربت من نظراته فأشار إلى ضيوفه بالدخول وهو يقبل ظاهر كف والده باحترام قائلًا ـ"مرحبًا بك يا والدي."
وحينما جلس الجميع في صالة الاستقبال الأنيقة توقع أن يكون الهدف من الزيارة إعادة زوجته إلى بيتها فقال لها بابتسامة واسعة ـ"لقد فعلت الصواب بعودتك إلى بيتك وبيت زوجك يا (سمر). هو أولى بك."
ولكن ما نطقه زوج والدتها في اللحظة التالية جعل الابتسامة تتجمد على

شفتيه و....

خرج من ذكرياته على صوت (هالة) الحنون وهي تسأله باهتمام ـ"ماذا حدث يا (طارق)؟"
منحها نظرة خاوية وتنهد قائلًا بخفوت ـ"لقد أظهرت التحاليل والأشعات التي أجرتها(سمر) أنها لا تستطيع الإنجاب بأي شكل من الأشكال، ويبدو أنها كانت تعلم بذلك مسبقًا أو أنها أجرت هذه التحاليل من قبل دون أن تخبرني لأنها وافقت مُجبرة على إجرائها معي. وحين تأكدت من استحالة حملها طلبت الطلاق."
سألته بصوت مختنق وعيناها لا تفارقان وجهه ـ"وماذا فعلت؟"
هز كتفيه قائلًا ـ"رفضت بالطبع. إنها زوجتي وأحبها فلماذا تطلب الانفصال؟"
ازدردت لعابها في صعوبة وهي تجيبه قائلة ـ"لأنها تحبك، وحين أيقنت أنها عاجزة عن تحقيق حلمك في أن يكون لك ابنًا من صلبك شعرت بأنها تظلمك بالبقاء معها."
هز رأسه نفيَا وهو يقول بإصرار ـ" من تحب لا تفعل ما فعلته (سمر)."
قالت بهدوء ـ"إحساسها بالنقص جعلها..."
قاطعها قائلًا بحنق ـ"جعلها ماذا؟ جعلها تترك البيت وتجمع أهلها وأبي لإقناعي بتطليقها؟ جعلها تحرجني أمام كل العاملين بالمستشفى بطلبها الطلاق علانية؟"
اتسعت عيناها في دهشة وقالت باستنكار ـ"أفعلت كل هذا؟ لماذا؟"
هز كتفيه في حيرة قبل أن يقول ـ"لقد كنت مصراَ على أن نواصل حياتنا سوياً بشكل عادي، وأن الطب يتقدم كل يوم وأنها قد تستيقظ في أحد الأيام لتجد نفسها حاملًا، وكنت أكثر إصرارًا على أنني أستطيع الحياة معها دون أطفال على الإطلاق، إلا أن إهانتها لي وجرحها لكرامتي أفقدني اتزاني وجعلني أطلقها في غمرة انفعالي أمام الجميع."
شهقت باستنكار قائلة ـ"أتعني أن كل هذا حدث بالمستشفى؟"

أومأ برأسه إيجابًا في صمت ثم ما لبث أن قال -"فوجئت بها تأتي إلى شقتنا بصحبة أهلها ووالدي، والذين اجتمعوا لإقناعي بتطليقها، وفوجئت بأبي -على غير توقع- يطلب مني أن أطلقها ما دامت تريد ذلك. شعرت بأن شيئًا عزيزًا يؤخذ مني غصبًا والمطلوب أن أعطيه عن طيب خاطر، لذا رفضت وبشدة أن أترك زوجتي وأصررت على أنني مازلت أحبها وأن موضوع الإنجاب لا يشكل فارقًا كبيرًا بالنسبة لي. ويبدو أن والدي لم يكن يعرف بأمر الإنجاب هذا، إذ ازدادت حدة لهجته فجأة وهو يحاول إقناعي بالطلاق. المهم هو أنني رفضت طلبهم جميعًا وقلت إنها ستظل زوجتي وإنه ما من قوة في الأرض ستجعلني أتركها أو أضحي بها."

وتوقف عن السرد للحظات أشعل فيها سيجارة بيده اليسرى تاركًا يمناه راقدة بين كفي(هالة)، وقال بعد أن نفث الدخان بعيدًا عن وجهها -"بعد انصرافهم ظل أبي معي يحاول إقناعي بتركها ما دامت غير قادرة على الإنجاب، وأثارني موقفه. شعرت لحظتها بأن الغرض الرئيسي لزواجي منها هو الإنجاب وليس لأننا متحابان. سألته حينها هل كان رأيه سيظل كما هو لو كان ابنه هو العاجز عن الإنجاب؟ لكنه لم يجبني. وبعد انصرافه أحسست بالدماء تزداد غليانًا في رأسي وعدت إلى التدخين بشراهة."

توقف عن الحديث للحظة أخذ فيها نفسًا عميقًا من السيجارة أتى على نصفها وتابع بعد أن نفثه في هواء الغرفة-"لم يغمض لي جفن بقية الليل، وصباح اليوم فوجئت بيدي ترتجف فخرجت من غرفة العمليات محطمًا نفسيًا. خرجت لأجدها واقفة أمامي عاقدة ذراعيها أمام صدرها وتنظر لي في تحفز. سألتها في هدوء عن سبب وقوفها هكذا فأجابتني ببرود قائلة 'طلقني'. حاولت إثنائها قائلًا إننا سنواصل الحديث في بيتنا فعلا صوتها وطالبتني بتطليقها فورًا واتهمتني بأنني عديم الكرامة لأنني أريد الحياة معها غصبًا، فلم أتمالك نفسي وطلقتها."

قالها وعاد لأخذ نفس آخر من السيجارة قبل أن تلتقطها(هالة) من بين

أصابعه وتطفئها في منفضة مجاورة وتنهض قائلة في ذهول ـ"أكاد لا أصدق ما تقول، إنك تتحدث عن(سمر) أخرى غير التي طالما تحدثت عنها في حب. لكن تفسيري الوحيد لما فعلت هو أنها أرادت أن تبتعد عنك برغبتها قبل أن تهجرها أنت. ولا تنس أنها كانت تشعر بانعدام الأمان من قبل، وعاد إليها هذا الشعور عندما اكتشفت مشكلتها تلك. قد يكون رد فعلها مبالغًا فيه ولكنني واثقة من أنها مازالت تحبك وأنها ستهدأ بمرور الوقت. وقريبًا جدًا ستعودان إلى منزلكما سويًا."
هز رأسه نفيًا وقال بشك ـ"أستبعد ذلك."

وبداخله كان يشعر بأن قلبه لم يعد عاشقًا كسابق عهده.

*****

(٢١)

طرقت باب غرفتها المفتوح بهدوء وهي تنظر إليه يعدل رباط عنقه في المرآة، فابتسم بعذوبة لصورتها المنعكسة وعيناه تحملان تساؤلًا عما تريده.

دلفت إلى الغرفة بنعومة وهي تتنحنح بحرج قائلة ـ"هل ستتأخر اليوم في المستشفى؟"

التفت إليها وهو يغلق أزرار معصميه قائلًا بنفس الابتسامة ـ"أعتقد ذلك...فلدينا اجتماع مع المدير العام."

قالها وتنحنح وهو يعدل ياقة قميصه بشكل سينمائي ويضيف ـ"يبدو أنه سيكافئني على مجهودي الخرافي في الفترة السابقة وكأنني الجراح الوحيد بالمستشفى..ولهذا أرتدي الملابس الرسمية."

ضحكت على عبارته وهي تلتقط السترة من فوق الفراش وتساعده في ارتدائها قائلة ـ"ستكون هذه المكافأة استجابة لدعاء أمي لك..فهي تدعو لك أكثر مما تدعو لي ولأبنائي."

أدخل ذراعه في كم السترة التي تمسكها قائلًا بمرح ـ"أهذه غيرة؟ أم محاولة للوقيعة بيني وبين أمي؟"

ضحكت ثانية وهي تعود لتقف أمامه وتربت على كتفه قائلة بنبرة خاصة ـ"لا غيرة ولا شيء.. هنأكما الله سويًا."

ضحك هو لطريقتها في الحديث قبل أن يكتسي صوته بالجدية وهو يقترب بوجهه منها ويسألها بود ـ"المهم...بعد الاجتماع سأجري جراحتين بإذن الله..أي أنني سأعود بعد العاشرة مساء إن شاء الله. هل أجبت سؤالك؟"

تورد وجهها حرجًا لاقترابه منها فتراجعت قليلًا وهي تزدرد لعابًا وهميًا وتحاول أن تقول بشكل طبيعي ـ"تقريبًا..بعد إذنك ستأتي (نهى) صديقتي لتزورنا بعد المغرب."

تناول ساعة يده وهو يسألها باهتمام ـ"هل تريدينني أن أستقبل زوجها؟"

قالت في سرعة ـ"كلا...سيوصلها أخوها بسيارته، فزوجها مع الأولاد في الخليج وهي هنا في زيارة قصيرة لتطمئن على والدتها المريضة."
عقد حاجبيه للحظات لاح فيها الضيق على وجهه حينما ذكرت الخليج، فقد نغزته الكلمة لتذكره بأن هذه الصداقة تعود لأيام كانت زوجة لشقيقه الراحل.
لكنه تجاهل هذا الضيق ومحاه من على وجهه قبل أن يسألها وهو يلتقط جواله من جوار الفراش قائلًا بروتينية ـ"وهل زرت أنت والدتها؟ عهدي بك أنك تعرفين الواجب."
قالت بثقة ـ"بالطبع زرتها واستأذنت منك قبلها."
التفت إليها وعادت ابتسامته الهادئة إلى وجهه وهو يقول ـ"دائمًا أقول إن الذوق كله عند (هالة) دون جميع النساء."
ازداد تورد وجهها من الخجل وهي تخفضه أرضًا وتتمتم ـ"شكرًا."
أربكه خجلها غير الطبيعي فضغط فكيه بقوة لثوان قبل أن يسألها ـ"هل أشتري بعض الحلوى وال.."
قاطعته في سرعة لتفلت من حيائها ـ"كلا..سأصنع حلوى مميزة نحبها وهي ستحضر معها القهوة العربية التي اشتقت لرائحتها."
مد يده يلتقط علبة السجائر والولاعة وهو يقول مازحًا ـ"أهم شيء أن تتركوا لي جزءًا من هذه الحلوى."
تابعت عيناها كفه وهو يلتقط علبة السجائر ويهم بوضعها في جيبه فأسرعت تقول بضيق ـ"ألم يكفك أكثر من شهر؟"
توقفت يده في الهواء وعقد حاجبيه مستفهمًا لتتابع هي بنفس الضيق ـ"لقد عدت إلى التدخين منذ أكثر من شهر...أدرك أن ما مررت به صعب ولكنك أقوى من أن تخضع لسيجارة."
خفض عينيه أرضًا ثم عاد يرفعهما قائلًا بجمود ـ"أخبرتك أنني أدخن كلما شعرت بالضيق، وليس طوال الوقت."
أدهشته بحنانها وهي تقول ـ"فلماذا لا تعيدها إلى عصمتك إذًا؟ لماذا تكابر وتقاوم حبها في قلبك؟"

اتسعت عيناه في دهشة وهو يسألها باستنكار ـ"ماذا تقولين يـا (هالـة)؟ أي حب هذا الذي أقاومه؟ لقد كنت أعيش وهمًا كبيرًا وأفقت منه."
قالت بنفس الحنان ـ"لا تعاند نفسك...أعتقد أن شهرًا فترة كافية جدًا كي تهدأ أعصابكما وتبحثا ...".
قاطعها قائلًا بحدة أخافتها ـ"نبحث ماذا؟ إنها ليست قضية السلام...لقد انتهى الأمر ولا يستحق إعادة النظر فيـه..هي أهـانتني أمـام الجميـع، وكرامتي لا تسمح بأن أتركها على ذمتي بعد ذلك."
حاولت تهدئته قائلة بابتسامة مرتبكة ـ"ولكن حبكما..".
قاطعها وهو يشير إلى قلبه قائلًا ـ"قلبي قبل كرامتي لا يقبل الإهانة..هي باعت هذا القلب وتمسكه بها، وأنا كذلك لم أعد بحاجة إليها. لقـد كنـت وفيًا لها حتى النهاية وكنت مستعدًا للتضحية من أجلها بكل شيء..لكنها باعتني عند أول منعطف."
قالها وزفر بعمـق قبـل أن يسـتغفر ربـه بصـوت خافـت ويعـود ليرسـم ابتسامته العذبة ويقول ملوحًا بسـبابته في تحـذير ـ"دعك مـن هـذا..لا تنسي نصيبي في الحلوى."
ثم تابع وهو ينظر إلى علبة السجائر في كفه قائلًا ـ"وإذا كانـت السـجائر تضايقك أعدك ألا أدخن ثانية."
وأقرن قوله بالفعل وهو يلقي بعلبة السـجائر في سـلة مجـاورة للفـراش ويعود بوجهه إليها مازحًا ـ"لقد توقفت عنها من أجلك قبـل ذلـك، وهـا أنذا أتوقف ثانية من أجلك."
وبحركة عابثة أشار إلى وجنته وهو يخرج من الغرفة قائلًا ـ"ألا أسـتحق مكافأة لأنني أطيع زوجتي؟"
قالها ومضى إلى عمله تاركًا إياها وقد اتسعت عيناها في ذهول من جرأته الجديدة التي جعلتها تشتعل حرجًا للمرة الثالثة خـلال أقـل مـن نصـف ساعة.

***

حاولت ألا تُحمل مزحته أكثر من معناها وهي تُلهي نفسها بأعمال المنزل التي لا تنتهي مستغلة أنها في إجازة عارضة من عملها بالمدرسة.
ولكن حينما ارتدت ملابسها استعدادًا للقاء صديقتها وقفت تتأمل نفسها قليلًا في المرآة.
لم تكن ملابسها ملفتة قياسًا بما اعتادت ارتداؤه لاستقبال صديقاتها حينما كانت في الخليج.
كانت ترتدي سروالًا قصيراً من الجينز يصل إلى منتصف ساقها وبلوزة قطنية حمراء ناعمة بدون أكمام زانتها رسوم لبالونات مختلفة الألوان.
كانت تبدو أصغر سنًا في هذه الملابس، وخاصة بعدما أضافت رتوشًا هادئة من مساحيق الزينة لتبرز جمال عينيها السوداوين وتزيد غموضهما، ورفعت شعرها الأسود الفاحم قليلًا ليصل إلى منتصف ظهرها بدلًا من نهايته.
ورغم ذلك راودتها هواجس أن يراها (طارق) هكذا ويسيء فهمها.
لكنها ترتدي هذه الملابس لأنها تشتاق حقًا لأوقات مرحها مع صديقتها، تمامًا كما تشتاق لأوقات براءتها قبل أن تتزوج وتخنقها المسؤوليات.
وبتمرد غريب عليها أكملت وضع زينتها بأحمر الشفاه اللامع وهي تتمتم لنفسها في المرآة قائلة ـ"(طارق) لن يعود قبل العاشرة، وحينها تكون (نهى) قد عادت إلى منزلها وأزلت أنا مساحيق التجميل وعدت إلى ملابسي المعتادة...لا يُعقل أن أقابلها مثل ربات المنازل اللائي يهملن أنفسهن...كفاني إهمالًا."
قالتها وأعادت تأمل نفسها وقد ارتسمت ابتسامة رضا على شفتيها ولسان حالها يقول "نعم كفاني إهمالًا."

*****

(٢٢)

"ماذا!؟ ساعدته في الزواج من أخرى؟"

هتفت بهذه العبارة في ذهـول واسـتنكار بـالغين وهـي تتأمـل صـديقتها تجيبها في بساطة ـ"(نهى)..لا تنسـي أننا تزوجنا مـرغمين، ولم يكـن مـن المعقول أن أفرض نفسـي عليه كزوجـة وأنـا التـي كانـت تعـارض فكـرة الزواج من الأساس."

ضربت (نهـى) كفًـا بكـف وهـي تقـول في حـيرة ـ"لا حـول ولا قـوة إلا بالله..وأنا التي توقعت أن أجدك تحملـين طفلـه عـلى ذراعـك. الغريـب أنني لم أشك لحظة في سعادتك أثناء حديثنا على الإنترنت وحينما قابلتك في بيت والدتي الأسبوع الماضي."

أزاحت (هالة) خصلات شعرها عـن وجههـا وهـي تقـول بهـدوء غريـب ـ"لأنني سعيدة بالفعل...سعيدة بهذه الحياة أيًـا كانـت، ولم أكـن لأخـبر مخلوقًا بحقيقة علاقتـي بــ(طارق) لـولا سـؤالك المُلـح عـن سـبب عـدم إنجابنا حتى الآن."

تخضب وجهها خجـلًا وهـي تقـول بحـرج ـ"آسفة يـا (هالـة)، لم اقصـد التدخل في حياتكما..لكنني توقعت أن...".

ربتت (هالة) على كفها قائلـة بودــ"حبيبتي أنـت أختـي التـي لم تلـدها أمي، ولهذا فتحت قلبي لك."

احتضنتها بحب صادق قائلـة ـ"يعلم اللـه وحـده مـدى حبـي لـك منـذ عرفتك."

ثم ابتعدت عنها وهي تمسح دمعة حائرة على طرف عينها قائلة ـ"المهم كيف هي زوجته تلك معك؟"

هزت (هالة) كتفيها قائلة بلامبـالاة مصـطنعة ـ"لم أرهـا سـوى في صـور الزفاف التي أحضرها (طارق) خلسة كيلا يراها الأولاد..هي فاتنـة تبـارك الله، وفي عينيها شقاوة محببة و..".

قاطعتها قائلة بغيظ ـ"لم أسألك عن رأيك فيها يا (هالة)...أنا مقهورة مما فعلته أنت أصلًا...تسلمينه بيديك إلى أخرى!؟ ماذا ينقصـك أنـت كـأنثى

ها!؟ أشك أنك ارتديت ملابس كهذه أمامه."
شهقت (هالة) في استنكار قائلة ـ"أجُننت؟ كيف يراني هكذا؟ كلانا يعامل الآخر كأخ وصديق، ولا ينبغي أن يتغير ذلك."
سألتها بضيق ـ"أخ وصديق!؟ اصبري إلى أن تلد له وحينها سينسى أخته وصديقته وأبنائها و..".
قاطعتها (هالة) هذه المرة وهي تقول بنبرة محايدة ـ"اطمئني...لن تنجب."
اتسعت عيناها وهمت بالتعقيب لولا أن سبقتها (هالة) بقولها ـ"لقد انفصلا."
بدت (نهى) وكأنما أخرستها الصدمة فتابعت (هالة) قائلة ـ"طالبته بالطلاق حينما علمت بأنها لن تستطيع الإنجاب..وطلقها منذ شهر."
لاح بريق ماكر في عيني (نهى) لم يخف عن عيني (هالة) التي قالت في سرعة وكأنها تدفع عنها اتهامًا مباشرًا ـ"لقد حاولت معه أكثر من مرة أن يعيدها إلى عصمته، ولكنه يثور في كل مرة..حتى هذا الصباح ثار و..."
قاطعتها (نهى) بابتسامة هادئة قائلة ـ"(هالة)..أنت تحبينه."
رفعت (هالة) رأسها في حدة واستنكار فتابعت (نهى) بنفس الهدوء الواثق قائلة ـ"لا تحاولي الإنكار...أنت تحبينه ولكن كبريائك يمنعك من مصارحته بهذا الحب بعدما ابتعد عنك في بداية زواجكما."
حاولت (هالة) الاعتراض ولكن صديقتها تابعت قائلة ـ"أدري أنك كنت ترفضين فكرة الزواج وأنني أقنعتك بها على مضض، وأنه لو لم يضايقك ذلك الموظف يومها لربحت رهانك مع نفسك وظللت أرملة (حازم) رحمه الله. ولكنك أنثى في المقام الأول يا (هالة). أنثى تحب أن تشعر بضعفها وحاجتها إلى رجل يقف إلى جوارها. وحينما يكون الرجل حنونًا، لا تستطيع الأنثى الفكاك من أسر حنانه. صدقيني الحنان هو السلاح الوحيد الذي لا تستطيع المرأة مقاومته."
تاهت نظرات (هالة) بعيدًا ولم تحر جوابًا وهي تسمع صديقتها ومرآة روحها تقول بصدق وحالمية ـ"ربما تستطيعين مقاومة الحب ووأده في

مولده بحجج عديدة، وستنجحين في ذلك. أما الحنان فهو الشعور الذي يدغدغ مشاعرك رغمًا عنك ويدفعك إلى التعلق بهذا الشخص وكأنك مسلوبة الإرادة."

أطرقت (هالة) بنظرها إلى الأرض وكلمات صديقتها تدوي في عقلها.

نعم هي تحبه، وتحب حنانه عليها وعلى أطفالها، وحتى على أمها.

حنانه الصادق الذي لا رياء فيه، ولا هدف خلفه.

ربما يبدو ضعيفًا أحيانًا أمام والده، ولقد خذلها أمامه من قبل.

لكنها تغاضت عن ألمها من هذا الموقف بعدما أخبرها بأنه يحب أخرى سواها، لأن ألم مصارحته كان أقوى.

لم تكن تتوقع منذ البداية أن يكون زوجًا طبيعيًا لأرملة شقيقه الوحيد بعد عام من وفاته.

ولكنها حاولت أن تبدو زوجة طبيعية كيلا تلعنها الملائكة.

ورغم ابتعاده عنها، ومحاولاته الهروب من أن يجمعهما وقت النوم معًا، لم تمنع نفسها من الإشفاق عليه.

فهو طبيب وسيم وخلوق ومن أصل طيب تتمنى أعرق العائلات نسبه، ومع ذلك أجبر على الزواج من أرملة لديها ثلاثة أطفال.

أيًا كان حبه لأبناء أخيه، وأيًا كان احترامه وطاعته لأبيه، فلابد وأن يحب نفسه أكثر.

لابد وأن تكون له زوجة خاصة به يبدأ معها حياته وأحلامه.

زوجة لم تكن لغيره من قبل.

ولهذا شعرت بأنها مدينة له بمعروف لابد من رده.

وهنا داست على قلبها وحافظت على ما تبقى من كرامتها وفضلت أن تساعده في الزواج من محبوبته.

فأن يبقى إلى جوارها وأطفالها أخًا وأبًا أفضل من أن يكون لها زوجًا لا يشعر بها ولا يبادلها أية مشاعر، بل وربما يلعنها سرًا لأنها كانت سببًا في ضياع حبه.

هو ضحى من أجلها، وهي قادرة على التضحية بدورها.

ومن هنا كان إصرارها على إتمام المعروف إلى النهاية، وإعادة (سـمر) إلى (طارق) و...
"(هالة)....أين ذهبت؟"
أجفلت (هالة) وهي تشـعر بلمسـة صـديقتها لكفهـا فالتفتـت إليهـا في شرود وابتسامة باهتة على شفتيها لتسمعها تتابع ـ"فيم تفكرين؟"
أجابتها (هالة) في هدوء ـ"لا أنكر أنك على حق...ولكني لا أستطيع تغيير موقفي. لقد طوقني هو و(سمر) بمعروفهما، ولابد من رد الجميل."
سألتها صديقتها بعدم اقتناع ـ"على حساب قلبك؟"
أجابتها بثقة ـ"على حساب أي شيء سوى أولادي."
ثم ما لبثت أن هتفت بصديقتها بلهجة مرحة لتغير الموضوع ـ"(نهي) يا ماكرة...ألهيتني في الحديث كيلا أشرب القهوة وأنت تعلمين مدى شوقي إليها..هيا أفرغي لي فنجانًا فرائحتها تزكم أنفي."
قالتها وتظاهرت بتقديم الحلوى لصديقتها التي تناولت حافظـة القهـوة لتفرغ منها وهي تتابع (هالة) بنظرات آسفة.
جلستا لدقائق في صمت وكلتاهما تحتسـي القهـوة بيـنما شرد عقلاهـما بعيدًا عن حدود الغرفة، ولم يخرجا من شرودهـما إلا عـلى صـوت جـرس الباب فقالت (نهى) في دهشة ـ"هل تنتظرين أحدًا؟"
هـزت (هالـة) رأسـها نفيـا وهـي تضـع فنجانهـا عـلى الطاولـة قائلـة ـ"كلا..عمي لم يخبرنا أنه قادم..ربما كانت (سناء) جارتي."
لم تكد تتم عبارتها حتى تناهى إلى مسامعهما صوت (هاني) الشقي وهو يهتف بجذل ـ"لقد عاد بابا..لماذا لم تفتح بالمفتاح؟"
بلغت دهشتها الذروة وهي تحدق في وجه صديقتها التي ابتسمت بمكر فأشاحت (هالة) بكفها في ضجر قائلة ـ"أمر غريب..لقد أخـبرني أن لديـه جراحتين بعد الاجتماع مع المدير..اللهم سترك."
قالتهـا ونهضـت باتجـاه البـاب وفتحتـه قلـيلًا وهـي تنـادي ابنهـا قائلـة ـ"(هاني)...تعالى هنا."
أتاها الصغير يقفز كعادته وهو يقول في سرعة ـ"لقد عاد بابا (طارق)."

قالت بهدوء ـ"أعلم ذلك يا حبيبي..هيا أحضـر إسدال الصلاة مـن غرفـة جدتك و(هند) ولا تصـدر ضوضـاء..فربما كـان بابـا (طـارق) منهكًـا مـن العمل."

أومأ الصغير برأسه وأسرع لينفذ طلـب أمـه التـي تناهـت إلى مسـامعها عبارة تهكمية

"إسدال الصلاة!؟"

التفتت في حدة لصديقتها قائلة لتغيظهاـ" لا تتخيلي أنه سـيراني في هـذه الملابس...نجوم السماء أقرب إليك."

لم تتمالك (نهى) نفسها من الضحك وهي تراقب صديقتها ترتدي إسـدال الصلاة وتحكم طرحته فوق شعرها ووجهها كما لو كانت تستعد للصـلاة بالفعل، فقالت بسـخرية وهـي تـنهض لترتـدي عباءتهـا السـوداء ـ"هل تتوقعين أن يصدق زوجك أنك كنت معي بإسدال الصلاة؟"

هتفـت بهـا (هالـة) في حنـق قائلـة ـ"اجلســي وسـأنادي أمـي تجلـس معك..منذ تركتنا لصلاة العشاء وهـي مـع الأولاد..سـأناديها وأرى سـبب عودة (طارق)."

حاولت(نهى)الاعتراض فلوحت(هالة)بسبابتها محذرة وهي توسع عينيها كما تفعل مع أبنائها وهي تحذرهم قائلـة ـ"قلت اجلســي...ستسافرين قريباَ ولا أدري متى أراك ثانية."

***

خرجت إلى غرفتها مع (طارق) الذي كان يوليها ظهره ويخلع سترته.

طرقت الباب بهدوء كالعادة وهي تسـأله بقلـق ـ"(طارق) لمـاذا عـدت مبكرَا؟ هل أنت بخير؟"

ضحك من نبرتها القلقـة وأجابهـا وهـو يسـتدير ليواجههـا ـ"أعتذر عـن الحضور مبكرَا، ولكن حرارة المريض ارتفعت فجأة فأجلنا الجراحة و..."

قطع عبارته وهو يتأملها للحظات وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة.

كان واثقًا أنها ارتدت الإسدال الآن فقط حين وصوله، وأنها ترتدي تحتـه شيئًا آخر.

فمع زينتها الرقِيقة تلك لا يمكن أن تجلس مع صديقتها بإسدال الصلاة.
لذا قال مشاكسًا ـ"ما هذا؟ صوان ملابسك يمتلئ بالملابس من كل نوع وتقابلين صديقتك بالإسدال؟"
أربكها سؤاله وحارت في الإجابة للحظات قبل أن تقول بارتباك ـ"لـ..لقد كنت معها في الشرفة لترى صندوق العصافير الذي أحضرته ل(هند) في يوم مولدها، ولذلك ارتديت الإسدال."
تظاهر بتصديقها وهو يتجه إليها قائلًا ـ"أهاا...حسنًا. أريني ماذا ترتدين إذًا."
زاد ارتباكها وهي تشعر باقترابه فقالت لتخرج من الغرفة ـ"لا يصح أن أترك صديقتي الآن...سأذهب لأودعها وأجهز لك العشاء..ألا تتضور جوعًا؟"
تحسس معدته بكفه قائلًا بألم مصطنع ـ"جئت على الجرح..نعم أتضور جوعًا...أخبريني أولًا أين نصيبي من الحلوى؟"
أشارت بكفها إلى الحمام الملحق بالغرفة قائلة ـ"غير ملابسك وريثما تنتهي من حمامك يكون طبق الحلوى في انتظارك..المهم ألا تكثر منها وإلا فقدت شهيتك."
تحسس معدته ثانية وهو يتجه إلى الحمام قائلًا ـ"لا تقلقي...فأنا اليوم أتضور جوعًا بالفعل."
لم تتحرك من موقعها عند باب الغرفة إلا حينما لمحته يغلق باب الحمام، فأسرعت إلى صوان ملابسها وفتحته لتلتقط أول بلوزة حريرية صادفتها في سرعة قبل أن تغلق الصوان وتغادر الغرفة في خفة ونبضات قلبها كقرع الطبول في أذنيها.
وعند باب غرفة الصالون التي كانت تجلس بها مع صديقتها فوجئت بوالدتها تحاول إقناع(نهى)بالبقاء قليلًا وسمعتها تعتذر قائلة ـ"كان بودي البقاء أكثر، ولكن ينبغي أن أعود إلى أمي، فسأسافر بعد غد إن شاء الله ولابد أن أقضي الفترة الباقية معها."
تدخلت (هالة) في الحديث قائلة ـ"ولكن الحديث لم ينته بعد، وكذلك

القهوة."
قبلتها صديقتها على وجنتيها قائلة ـ"نكمل حديثنا على الهاتف، وبعـدها على الإنترنت. أعدي القهوة كل خميس واشربيها معي على الماسنجر."
ثم صافحت والدة صديقتها واتجهت إلى باب الشقة قبـل أن تلتفـت إلى صديقتها التـي تبعتهـا قائلـة بضـحكة مكتومـة وهـي تشـير إلى البلـوزة الحريرية التي تمسكها بيـدها قائلـة ـ"ارضي بقـدرك يـا (هالـة) وخـذي بنصيحتي...أراك على خير."
احتضـنتها (هالـة) واسـتودعتها قائلـة ـ"لقد اسـتودعتك، فـلا تجعلينـي أرتكب جريمة الآن...هيا مع السلامة."

أغلقت الباب خلف صديقتها ثم هرعت إلى غرفة ابنتها لترتـدي البلـوزة الحريرية فوق بلوزتها الحمراء.
ولكن لسوء حظها لم تنتبه إلى البلوزة إلا متأخراَ...
فقد كانت البلوزة شبه شفافة
جزء منها لامع مثل الساتان، وجزء آخر أقرب إلى الشيفون الشفاف
وبالتالي كانت البلوزة الحمراء واضحة من تحتها
دارت بعينيها في الغرفة تبحث عما يمكنها ارتداؤه بدلًا من تلـك البلـوزة، لكنها لم تجد سوى إسدال الصلاة، وهو طلب منها أن يراها دونه.
راودتها نفسها بـالعودة سريعًـا إلى الغرفـة لتأخـذ بلـوزة أخـرى قبـل أن يخرج من الحمام، وعزمت أمرها على ذلك.
لكنها ما أن خرجت من غرفة الصغيرة حتى تنـاهى إلى مسـامعها صـوته يناديها من غرفتهما قائلًا ـ"أين الحلوى يا (هالة)؟ لا تقولي إنها انتهت."
غاص قلبها بين ضلوعها للحظات قبل أن تجد صوتها لتقول بهدوء ـ"حالًا يا (طارق)."
واتجهت إلى المطبخ لتجهز طبقه وهي تدعو الله ألا يلحظ ارتباكها.

*****

(٢٣)

خطت داخل غرفتهما وهي تحمل صينية أنيقة عليها طبق الحلوى وحافظة القهوة وفنجان صغير وضعتهم على مائدة صغيرة تتوسط مقعدين وثيرين في طرف الغرفة هامسة ـ"الحلوى والقهوة."

التفت إليها (طارق)، الذي كان أنهى للتو حمامه، قائلًا ـ"أدركيني بقطعة سريعًا..أشعر بأن جسدي فقد كل ما به من سكريات."

قدمت إليه الطبق وبه شوكة صغيرة وانتظرت أن يلتقطه منها، لكنه قال بتذمر مشيراَ إلى كفيه ـ"(هالة)..ألا ترين أن يدي ملطخة بكريم الشعر..من فضلك ضعيها في فمي."

أربكها طلبه وحاولت أن تتماسك وهي تتناول الشوكة لترفع بها قطعة من الحلوى، ولكن اضطرابها وخجلها جعلاها تعجز عن السيطرة على الشوكة في الوقت الذي يراقبها فيه (طارق) بضجر قائلًا ـ"(هالة)...بالله عليك دعك من الشوكة..فأنا أثق في نظافة يديك."

رفعت عينيها إليه بدهشة وحاولت أن تتحكم في دماء الخجل التي تصاعدت بقوة إلى وجهها وعقلها يهتف بها محنقًا 'ماذا بك يا غبية؟ سيلحظ ارتباكك وقد يسيء فهمه..تعاملي بطبيعية كما كنت تفعلين دومًا..ما الفارق بين أن تطعميه الحلوى بيديك الآن وأن تسقيه الحساء وهو مريض قبل شهرين؟'

استجابت لعقلها الباطن سريعًا ورسمت ابتسامة محايدة على شفتيها وهي تلتقط قطعة من الحلوى بين أصابعها وتقترب منه لتضعها في فمه برفق وهي تمسك الطبق بيدها الأخرى تحت ذقنه وتحاول ألا تلتقي أعينهما.

سمعته يتلذذ بطعم الحلوى ويقول باستمتاع ـ"مممممممم سلمت يداك يا (هالة)...طعمها رائع."

ابتسمت بثقة هذه المرة وهي تسمعه يطلب قطعة أخرى بعد أن ابتلع الأولى فاقتربت لتضع قطعة ثانية في فمه بعد أن دهن شعره بالكريم، ولكنه أمسك كفها بحركة مباغتة ومال برأسه يلتقط الحلوى بشفتيه من

بين أصابعها قائلًا ببطء وهو يتعمد النظر في عينيها ـ"طعمها هكذا أفضل."
فاجأتها حركته ففقدت ثقتها المزعومة وعادت إلى ارتباكها السابق وهي تشعر بسخونة غريبة تعتريها جعلتها تحاول جذب يدها وهي تشعر باقترابه أكثر وهو يتشممها هامسًا ـ"ما هذه الرائحة الطيبة؟"
أجابته بحروف متقطعة من الارتباك والحرج ـ"إن..إنها رائحة القهوة و...".
هز رأسه نفيًا وهو يواصل الاقتراب حتى صدمها بأنفاسه وصوته لا يزال هامسًا ـ"كلا...إنها رائحتك أنت..فأنا لا أخطئها."
خفضت وجهها أرضًا هربًا من وجهه الذي اقترب منها بشكل غير مسبوق، وحاصرتها أنفاسه التي اختلطت فيها رائحة نعناع معجون الأسنان برائحة الشيكولاتة في الحلوى

كانت في قرارة نفسها تتمنى هذا القرب وتنتظره
لكنها كانت أيضًا ترفضه لأنها لا تراه من حقها
وربما لأن كرامتها تأبى الرضوخ لمن نبذها من قبل
فلماذا هذه الرجفة إذًا كلما اقترب
ولماذا يخفق قلبها مع كل همسة ولمسة ولفتة؟
ولماذا...

خرجت من شرودها على لمسته فشهقت بعنف وهي تبتعد عنه وتدفعه بعيدًا بقوة هاتفة ـ"ماذا تفعل؟"
أجابها ببساطة أغاظتها ـ"أريد رؤية ملابسك التي كنت ترتدينها قبل عودتي...لقد لمحتك تلتقطين هذه البلوزة من الصوان بعد دخولي الحمام، وخمنت أنك سترتدينها. وأنا...".
قاطعته قائلة بلهجة جافة لم يعتدها منها ـ"سأذهب لأعد العشاء...القهوة في الحافظة إذا كنت تود تجربة مذاقها."

قالتها واستدارت تغادر الغرفة في قوة، أو بالأحرى تهـرب منهـا إلى غرفـة ابنتهـا وهـي تتمـتم لنفسـها بغضـب ـ"أنا الغبيـة...لماذا ارتـديت هـذه البلوزة، لماذا ارتديت هذه الملابس من البداية؟ لماذا خلعت إسـدالي...أنا غبية..غبية."

***

في عنف لم تعهده في نفسها اتجهت إلى بعض الملابس المطوية بعناية على فراش والدتها وفتشت بين ملابسها إلى أن وجدت منامـة قطنيـة واسـعة طويلة الأكمام فالتقطتها من بينهم وهـي تحمـد اللـه في سرهـا لأنهـا لم تأخذ ملابسها إلى صوانها بعد غسيلها.

دخلت الحمام الرئيسي وأغلقته خلفهـا ثـم نظـرت لانعكـاس صـورتها في المرآة التي تعلو الحوض قبل أن تتجه إليه وتغسل وجههـا بغـيظ وكأنهـا تنتقم منه لأنه كان يحمل تلك الزينة.

ثم أبدلت ملابسـها بالمنامـة القطنيـة وتنهـدت بارتيـاح وهـي تنظـر إلى شـكلها المعتـاد ووجههـا الخـالي مـن المسـاحيق وشـعرها الأسـود الـذي عقصته إلى الخلف بعدما رفعـت خصـلاته القصـيرة عـن وجههـا بمشـبك صغير لا يكاد يُرى.

وعلى العكس من عصبيتها قبـل دخـول الحـمام، خرجـت (هالـة) وهـي تشعر بعودتها إلى سابق عهدها وإلى قوتها التي خانتها اليوم.

وفي هدوء، توجهت إلى المطبخ لتجهز عشـاء زوجهـا، أو بـالأحرى غدائـه الذي لم يتناوله بسبب عمله. وبعد أن رتبت مائدة الطعـام طلبـت مـن ابنها (هاني) أن ينادي عمه للعشاء.

ما أن رأته يقترب من المائدة وابتسامته الجذابة تزين محياه حتى أجبرت نفسها على مغـادرة الغرفـة لـولا أن سـبقها وهـو يمسـك معصـمها قـائلًا بدهشة ـ"ألن تتناولين العشاء معي؟"

التفتت إليه ببرود قائلة ـ"ومنذ متى أتنـاول العشاء..عشـائي منـذ عشـر سنوات لا يخرج عـن الزبـادي قليـل الدسـم وثمـرة فاكهة..وقـد تناولـت الكثير من الحلوى اليوم، لذا لن أتناول العشاء."

استعطفها قائلًا -"ولكنني لا أحب الأكل وحدي. على الأقل اجلسي معي."
قالت بنفس البرود -"لا أحب أن أبدو كمن يُعد اللقيمات..سأنادي (هيثم) و(هاني) ليتناولا العشاء معك."
وبكل ثقة خطت بعيدًا عنه وهي تسمعه يقول بإحباط -"أولن تسأليني عما حدث بالاجتماع، أو تهنئيني بالترقية؟"
للحظة فقدت برودها وهي تلتفت إليه في سعادة حقيقية بنجاحه، قبل أن يعود البرود ليغلف صوتها وهي تهنئه قائلة -"ألف مبروك."
ثم ابتعدت لتنادي طفليها إلى العشاء قبل أن تتجه إلى غرفة ابنتها وتحمل الملابس النظيفة عن فراش والدتها وتندس إلى جوار صغيرتها بين أغطيته وتحاول الخلود إلى النوم.
ولكن قبل انقضاء خمس دقائق شعرت بخطواته في الغرفة وهو يقترب من الفراش وينحني عليها هامسًا بخيبة أمل -"هل نمت دون قبلة المساء؟"

***

شددت من إغلاق جفنيها وهي تضغط كفيها تحت الغطاء وتشعر باقترابه منها وهو يواصل بنفس الهمس -"(هالة)..بالله عليك قبلي (هند) نيابة عني..لقد أوحشتني هذه الصغيرة."
لم تدر لم فتحت عينيها فجأة بعد جملته..ربما لأنها شعرت بأن تظاهرها بالنوم أصبح مكشوفًا
وربما لأنه كان يقصد التلاعب بمشاعرها
المهم أنها فتحت عينيها لتلتقي بعينيه للحظات انكمشت خلالها أكثر وسط الأغطية وهو يقترب أكثر معتمدًا بكفه على ظهر الفراش وبكفه الأخرى على الفراش نفسه حتى تجاوزها وهو يضيف قائلًا -"لقد غيرت رأيي...أفضل أن أقبلها بنفسي."
قالها وهو يقبل الصغيرة على وجنتها بهدوء قبل أن يرفع جذعه ويستقيم ليسألها بلهجة حيادية -"هل ستقضين ليلتك هنا؟"

أجابته بهزة من رأسها، ثم ما لبثت أن بررت ذلك قائلة بصـوت مبحـوح
ـ"لقد اشتقت إلى مبيتها بين أحضاني."
هــز رأســه مـتفهمًا وبـدت خيبــة الأمـل عــلى ملامحــه وهــو يقــول
ـ"حسنًا..تصبحين على خير."
ودون أن ينتظر ردها، غادر الغرفة سريعًـا في الوقـت الـذي دلفـت فيـه
أمها لترمقها بنظرة صارمة تدرك معناها جيدًا.
لم تستطع أن تواجه نظرة أمها فتظاهرت بـالنوم لتهـرب مـما ستسـمعه
منها
ولكن الأم أدركت محاولتهـا فاقتربـت منهـا وهــي تقـول بلهجـة سـاخرة
ـ"هل ستنامين في مكاني الليلة؟ معنى هذا أن أنام أنا إلى جوار (طارق)."
أجابتها (هالة) قائلة بلامبالاة وعيناها لا تزال مغلقة ـ"عادي..زوج ابنتك
مثل ابنك."
جلست الأم على طرف الفراش وجذبت الغطاء عـن ابنتهـا قائلـة بـنفس
اللهجة الساخرة ـ"حقًا؟"
للحظة تذكرت (هالة) نفسها وهي تقول نفس الكلمة لـ(طارق) في بداية
زواجهما حينما طلب منها أن ينفق هـو عليهـا وعـلى أبنائهـا بحجـة أنـه
زوجها. يومها سخرت منه لأن زواجهما كان صوريًا،
واليوم تسخر منهـا والـدتها لأن الـزواج لا يـزال صـوريًا رغـم محـاولات
(طارق) للتقرب منها.
نعم هو يحاول التقرب منها وتحويل الزواج إلى زواج فعلي، بينما تتهرب
هي منه وهي تدرك ذلك جيدًا،
تدرك محاولاته وتدرك تهربها منه لأنها لا تريد أن تكون مرحلة مؤقتة في
حياته، أو أن تكون قرصًا مسكنًا لآلام قلبه الجريح،
ولكنها ملزمة بإطاعته شرعًا، وهي لا تستطيع ذلك.

وكأنما شعرت والدتها بما يدور في خلدها، ربتت عـلى كفهـا قائلـة بحنـان
ــ"(هالة)..أين تـدينك؟ أنـت حـرة في حياتـك، ولكنـي لا أسـتطيع منـع

نفسـي عن نصحك. فأنت لن تتحملي لعـن الملائكـة طـوال الليـل، حتـى وإن كان لديك عذراً شرعياَ."
ثـم قطبـت حاجبيهـا بضـيق مصـطنع وهـي تقـول ـ"هيا انهضــي إلى غرفتك..لا تشاركيني فراشي، فهو مـن حـق (هنـد) وحـدها الآن...فـراشي للفتيات فقط وليس للمتزوجات."
قالتها وهي تجذب (هالة) من الفراش لتنهض بتذمر وتمط شفتيها قائلـة ـ"ولكن يا أمي...".
ربتت والدتها على كفها ثانية بتعاطف ومنحتها ابتسـامة تشـجيع وهـي تقول ـ"ابنتي الجميلة مطيعـة وتعـرف دينهـا جيـدًا..والأهم أنهـا تحـب زوجها وتكابر هذا الحب بعناد."
تنهدت (هالة) بعمق وعادت تمط شفتيها وتهز كتفيهـا باستسـلام قائلـة ـ"أمري إلى الله...أمي تطردني من غرفتها ومن أحضانها."
اتسعت ابتسامة والدتها وهي تشير إليها بكفها لتغادر الغرفة.

***

كان يذرع الغرفة المظلمة ذهاباً وإياباً والضيق يملؤه...
الآن فقط شعر بما كان يمزق (هالة) وهو يتجاهلها.
فهاهي الآن تتجاهل كل محاولاته للتقرب منها،
ولها كل الحق في ذلك.
فهو لم يمنحها حبه واهتمامه بها كزوجة من قبل،
هو صدمها منذ بداية زواجهما ووضع حدوداً للعلاقة بينهما،
فلماذا يتوقع منها الآن أن تتقبل منه أي تغيير في هذه الحدود؟
ولكنه يعترف الآن بخطئه...وبحبه...
نعم حبه.
لم يتخيل يوماً أن يشعر بتلك المشاعر نحو (هالة)،
لكن هذه المشاعر تحاصره ولا فائدة من إنكارها.
لم يعد يؤرقه كونها كانت لرجل من قبله قدر اهتمامه بقربها منه هو،
ولم يعد شبح شقيقه الراحل يقف حاجزاً بينهما،

على الأقل في هذه الآونة،
وهو ما يدهشه حقًا.
فقد تغيرت نظرته إلى (هالة) منذ طلاقه من (سمر).
فجأة بدأ ينظر إليها كأنثى،
أنثى طالما تعامى عن النظر إليها،
أو بالأحرى عن النظر إلى عينيها.
لأنه لو كان نظر إلى عينيها منذ زمن لوجد فيهما انعكاس صورته...وانعكاس حبها له،
ولكان كل شيء مختلفًا الآن.
للحظة لعن غباءه وغباء قلبه الذي أعمى عينيه،
وللحظة أخرى وسوس له شيطانه أن يدخن سيجارة ينفث مع دخانها نيران غيظه،
لكنه استعاذ بالله من شيطانه...لقد وعدها هذا الصباح بالتوقف عن التدخين من أجلها، ولابد أن يلتزم بكلمته.
ثم إنه ألقى علبة السجائر أمامها في سلة المهملات بالغرفة، ولابد أنها أفرغت السلة بعد خروجه.
وبدافع من الفضول فقط ألقى نظرة سريعة على السلة المجاورة لفراشه ليجدها خالية تمامًا قبل أن يهز رأسه في إعجاب بنشاط (هالة).
ثم ما لبث أن عاد إلى غيظه من الموقف الذي يواجهه وهو يقف أمام زجاج النافذة المغلق ويتابع بعينيه أضواء الحي تحته ويعيد حساباته مع نفسه وكيف يستميلها إلى جانبه.
فجأة تناهى إلى مسامعه حفيف خطوات هادئة مترددة فالتفت في لهفة كاد معها أن يرتطم بالطاولة الصغيرة التي كانت لا تزال تحمل حافظة القهوة،
ورآها...
رآها وسط الظلام تدلف إلى الغرفة بهدوء عاقدة ذراعيها أمام صدرها كالأطفال وضوء الممر خلفها يخفي ملامحها،

لكنه لم يكن بحاجة إلى الضوء كي يرى ملامحها التي نُقشت في ذاكرته.
تابعها وهي تغلق الباب خلفها بهدوء وتقترب من الفراش كالمجبرة فترفع أغطيته وتسمي بالله وهي تضربه ثلاث ضربات خفيفة لطـرد الشـيطان قبل أن تندس داخله بنعومة،
حينها لم يمنع نفسه من أن يتأملها على ضوء القمر الوليد الذي تسلل من النافـذة وحمـل صـوته ابتهاجـه وهـو يسـألها ـ"هل تراجعـت في رأيـك وستبيتين هنا الليلة؟"
أجابته بهدوء وهي تنام على جانبهـا الأيمـن قائلـة ـ"الفراش لـن يكفـي ثلاثتنا فاضطررت للعودة."
تقدم إلى الفراش واندس هو الآخر بين أغطيته على الجانـب الآخـر قـائلًا بجذل ـ"الحمد لله أنك عدت..فلنتحدث قليلًا إذًا..لقد أصـابتني القهـوة التي شربتها قبل العشاء بالأرق و.."
قاطعته قائلة بضجر ـ"(طارق) أنا مرهقة طوال اليـوم في أعـمال المنـزل، ولا يزال الغد ينتظرني بالمزيد منها."
شعر بمحاولتها الجافة لصده فاعتدل في جلسته مسـتندًا برأسـه إلى ظهـر الفـراش وهـو يعقـد ذراعيـه أمـام صـدره قـائلًا في إحبـاط ـ"ستنامين وتتركيني وحدي حتى الفجر؟ ألن تسأليني عن..."
التفتت إليه فجأة كمن تذكرت شيئًا وهـي تقـول ـ"تذكرت..لا تـوقظني لصلاة الفجر."
قالتها وعادت توليه ظهرها وتعدل من وضع وسادتها تحت رأسها وكأنها لم تقل شيئًا.
أما هو فتعجب من طلبها وهي التي توقظه دومًا لصلاة الفجر إذا تـأخر في النوم، لذا سألها في حيرة ـ"لماذا؟"
وكانت إجابتها البسيطة سببًا للمزيد من الإحباط
فقد أجابته وعيناها لا تزال مغلقة ـ"عذر شرعي"
وانهارت آماله في التقرب منها هذه الليلة.

*****

(٢٤)

تقدم بخفة إلى غرفة نومه وقال في مرح موجهًا حديثه إلى(هالـة) ـ"لقد نام الأولاد وكل شيء على ما يرام و..."

بتر عبارته حين وجدها جالسة على الفـراش ومسـتغرقة في تأمـل شيء في يدها، فأغلق الباب خلفه واتجه إليها على أطراف أصابعه حتى جلس إلى جوارها وهمس في أذنها بنعومة ـ"فيم استغراقك هكذا؟"

التفتت إليه لتلفح أنفاسه الدافئة وجهها، فارتبكت وعـادت بعينيهـا إلى ألبوم الصور الفوتوغرافية الراقد بين يديها، في حين ألقى هو نظرة سريعة عليه قبل أن يسألها ـ"أهذه (هند)؟"

هزت رأسها نفياَ وهي تجيبه بخفوت ـ"كلا، إنها أنا وهذا أبي."

أمعن النظر في الطفلة الجميلـة ووالـدها الـذي ارتـدى زي رائـد بسـلاح الطيران ثم ما لبث أن قال في دهشة ـ"أكان والدك طيارًا؟"

أومأت برأسها إيجابًا قائلة ـ"أجل، واستشهد في مناورة تدريبية."

هز رأسه متعجباَ وقال ـ"لولا ثقتي في أنني لم أنضم لسلاح الطيران يومًـا لظننت أنه أنا."

تنهدت قائلةـ"أنت تشبهه بالفعل، وهذه أول ملاحظة أبدتها أمـي حـين رأتك في حفل خطبتي على(حازم) رحمـه اللـه، لـيس في الهيئـة والملامـح فقط بل في الطباع أيضًا. الفارق الوحيد أن شعره وعينيه كانا سـوداوين، وأنت شعرك بني وعيناك تميلان إلى اللون الأخضر."

ثم تابعت وهي تطيل النظر إلى الصورة قائلة ـ" لقد كان والـدي رحمـه الله حنونًا للغاية هو الآخر، ويبدو أنه كان يشعر بقصر حياته لذا التقط لي معه أكثر من مئة صورة منذ مولدي وحتى وفاته."

أشار إلى صورتها وهي طفلة وداعبها قائلًا ـ"وهذه الصغيرة الفاتنـة هـي أنت؟! لقد كنت جميلة جدًا في صغرك."

لكزته في جانبه بحركة لا شعورية قائلة بدلال ـ"وهل فقدت جمالي؟"

تناول الألبوم في يده واعتدل في جلسته عـلى الفـراش كي يواجهها وهـو ينقل بصره بين وجهها والصورة وتظاهر بالجدية وهو يتحسس ملامحها

وشـعرها ويقـارنهما بالصـورة قـائلًا ـ"دعيني أقـارن. العينـان واسـعتان ولونهما الأسود مثير للغمـوض، الأهـداب طويلـة تـأسر الألبـاب، الأنـف صغير ورقيق، والفم موسوعة جمال؛ أما الشـعر فشـلال حريـري لم أر في جماله من قبل. لو أردت رأيي فقد زادت فتنتك وجمالك أضعافًا."

ارتبكت من لمساته التي بدت أشبه بتيار كهربائي، وتضـرج وجهها خجـلًا فخفضته أرضًا في حرج وحاولت النهوض من جواره في سرعة، إلا أن يـده كانت أسرع وهي ترفع وجهها إليه ثانية وتابع مضيفًا في إعجـاب واضـح ـ"وأجمل ما فيك هو تورد وجهك هكذا."

أبعدت وجهها عن يديه قائلة بحرج بالغ ـ"ما هذا؟ هل تغازلني؟"

اقترب بوجهه من وجهها هامسًا ـ"وما المانع؟ ألسنا زوجين؟"

نهضت بعيـدًا وتنحنحـت لتغـير الموضـوع قائلـة ـ"تصور أننـي نمـت في أحضان أبي في آخر يوم رأيته فيه ولم أرد مفارقته وبكيـت بحرقـة حيـنما انصرف، وحدث نفس الشيء مع أولادي قبل وفـاة (حـازم) رحمـه اللـه. فقد قضى الليل معهم يلعب ويضحك كما لم يفعل مـن قبـل وأصّر عـلى المبيت معهم في غرفتهم. أتراه كان يشعر بدنو أجله؟"

أدرك محاولتها لتغيير دفة الحوار فهـز كتفيـه وأجابهـا قـائلًا ـ"ربما كـان لديه حدسًا داخليًا، فكثيرًا ما كـان يفعـل أشـياء بنـاء عـلى حدسـه هـذا وتنجح، على عكسي تمامًا بحكم اختلافنا منذ الصغر."

تركته لتقف أمام النافذة وشردت بذهنها بعيـدًا إلى نحـو عـامين لتتـذكر تفاصيل اليوم السابق على وفاة (حازم).

***

يومها كانت ترتب المنزل نحو الحادية عشـرة صـباحًا حيـنما ارتفـع رنـين الهاتف فجأة، فأجفلت للحظة وهي تشعر بدقات قلبها المتسـارعة قبـل أن ترفع سماعة الهاتف قائلة باضطراب ـ"السلام عليكم."

أتاها صوته من الطـرف الثـاني يقـول في سرعـة ـ"وعليكم السـلام..كيف الأحوال؟"

أجابته ودقات قلبها لا تزال سريعة عن معدلاتها ـ"بخير الحمد لله..كيف

حالك أنت؟ ليس من عادتك الاتصال وقت العمل."
أجابها بضحكة صافية لم تعتد سماعها كثيراَ وهو يضيف -"لا تخافي..أنا بخير..لقد اتصلت لأطلب منك الاستعداد أنت وأميرتنا الصغيرة...فسنذهب جميعًا لتناول الغذاء في الخارج..في مطعم على الخليج مباشرة"
اتسعت عيناها في دهشة وهي تقول بسعادة طفولية -"حقًا يا (حازم)؟ يا لها من مفاجأة. لقد يئست من أن نذهب إليه بسبب مشاغلك الكثيرة."
ضحك ثانية للهفتها وهو يقول -"وها أنذا مستعد لتنفيذ طلباتكم الليلة. هيا استعدي وسأمر عليك في الواحدة ظهراَ إن شاء الله، ثم نصحب الولدين في طريقنا من مدرستهما."
سألته قائلة -"لماذا لا ننتظر إلى الغد؟ إنه الخميس وسيكون الأولاد في أجازة بالفعل و..".
قاطعها قائلًا بمرح -"(أم هيثم)..اغتنمي العرض قبل أن يفوتك..وتذكري بيت الشعر 'إذا هبت رياحك فاغتنمها'."
أكملت بيت الشعر قائلة -"'فإن الريح عادته السكون'. وهو كذلك يا (أبا هيثم). سنغتنم رياحك اليوم..سأكون مستعدة في الموعد بإذن الله."
وما أن أنهى اتصاله حتى بدأت في الاستعداد للخروج والنزهة التي كانت تنتظرها منذ زمن لتذكرها بأيام زواجها الأولى.
قضت وقتًا رائعًا هي والأولاد معه حتى المساء، ثم عادوا جميعًا إلى المنزل بعد أن أحضر (حازم) طعام العشاء معه.
والغريب أن (حازم) لم يترك أبنائه طيلة الليل..
ظل يلعب معهم في مرح وسعادة حتى تجاوز موعد نومهم، ثم أقدم على شيء أدهشها
فقد ضم فراشي (هيثم) و(هاني) واستلقى عليهما ليتوسد كل منهما إحدى ذراعيه، ربما للمرة الأولى في حياته
وبعد منتصف الليل، وحينما تأكد من استغراق الولدين في النوم، تسلل

إلى غرفته مع زوجته التي كانت ترضع (هند) في هذه اللحظة وبدلًا من أن يترك الصغيرة تستسلم للنوم بين ذراعي (هالة)، حملها في حنان وهو يداعبها بشكل لم تعهده زوجته من قبل.
عندما نامت الصغيرة بين ذراعيه، تأملها قليلًا ونقل بصره إلى (هالة) متسائلًا ـ"ترى هل أعيش إلى اليوم الذي أسلمها فيه إلى عريسها؟"
شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبها وهي تقول في سرعة ـ"بإذن الله تحضر زواجها هي وأشقائها وتحمل أحفادهم أيضًا."
لاحت نظرة غريبة في عينيه وهو يتأمل زوجته بتمعن وكأنه يقول لها 'لا أظن'.
أقلقتها نظراته فاقتربت منه تحمل الصغيرة وهي تسمي بالله وتضعها في فراشها قبل أن تعود لتجلس إلى جواره على فراشهما وتتناول كفه قائلة بجزع ـ"ماذا بك يا (حازم)؟ ولماذا هذه النظرة في عينيك؟"
تلاقت نظراتهما للحظات حاولت خلالها سبر أغواره الغامضة عبر عينيه السوداوين الأكثر غموضًا، لكنه أحبط محاولتها وهو يسبل جفنيه ويسند جبهته على جبهتها هامسًا ـ"لقد أرهقتك معي كثيرًا."
ابتعدت عنه في سرعة كمن مسه تيار كهربي ووضعت كفها على وجنته قائلة بقلق حقيقي ـ"ماذا بك يا (حازم)؟ ماذا تخفي عني؟ نزهة اليوم خلفها سر كبير. أخبرني ما هو. هل أنت مريض؟ هل...".
قاطعها وهو يضع أنامله على شفتيها برقة افتقدتها منذ أيام زواجهما الأولى وهمس لها بابتسامة صادقة وهو يداعب خصلات شعرها الأسود قائلًا ـ" السر هو أنني شعرت بتقصيري في حقك، وبأنك تستحقين مني كل كلمات الشكر والتقدير..والحب. أدري أنني كنت جاف المشاعر معك، وأنني لم أمنحك الحب الذي تستحقينه رغم أنك منحتني السعادة التي يتمناها أي زوج بهدوئك وطاعتك وأدبك وتدينك وكل صفاتك الجميلة."
وتابع وهو يضمها إليه بكل حب قائلًا ـ"قد لا أجيد التعبير عن الحب بالكلمات، فهذا طبعي الذي ورثته عن والدي. ولكنني قررت أن أعوضك

الليلة كل ما فاتك، وأن أشكرك بطريقتي الخاصة."
كانت كلماته الرقيقة غريبة على أذنيها، ولم تفلح في طمأنة قلبها الذي ظلت تلك القبضة الباردة تعتصره.
وازداد توترها في الصباح حينما استيقظت متوقعة أن تجد نفسها بين ذراعيه..لكنه كان قد رحل إلى عمله
رحل دون أن يودعها أو يودع أبنائهما
وقبل أن تستوعب الوقت وتبدأ حواسها في العمل...كان صوت الانفجار
الانفجار الذي دوى في أحشائها قبل أن تسمعه بأذنيها
الانفجار الذي أودى بحياة زوجها ووالد أبنائها
الـ.....

***

قطع (طارق) تدفق ذكرياتها وهو يسألها في دهشة ـ"أين شردت؟"
التفتت إليه بعينين خاويتين وكأنها لا تزال تعيش صدمة حادث (حازم) قبل أن تهز رأسها يمنة ويسرة كمن ينفض الذكريات عنه وتعود لتسأل (طارق) باهتمام وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها وتراقب هدوء الشارع من خلف زجاج النافذة المغلق ـ"كيف كان يصدق حدسه؟"
ارتفع حاجباه في دهشة وهو يقترب منها قائلًا ـ"أظللت زوجته لعشر سنوات ولم تعرفي كيف كان يصدق حدسه؟ بشكل عام كانت لديه بعض وجهات النظر الخاصة به مثل أن الزواج عن طريق العقل أفضل من زواج الحب، وكنت أعارضه بالطبع، لكنه كان يقول بثقة 'عندما تحب امرأة فإنك لا تراها على حقيقتها ولا تستطيع فهمها بالشكل الصحيح، أما لو أنك فهمتها أولًا فستقع في حبها فورًا'. سألته بعد مولد (هيثم) عن رأيه في زواج العقل، أو تدرين ماذا قال؟ يومها منحني ابتسامة صافية من ابتساماته النادرة وقال بنفس الثقة التي تميزه 'أنا أسعد إنسان على وجه الأرض، وأحبها بكل ذرة في كياني'."
التفتت إليه بدهشة وجملة (حازم) المشابهة تدوي في أذنيها وتنبهها إلى أنه قال ذلك لأخيه قبل حتى أن يعترف لها به. زادها ذلك الاكتشاف

توترًا فقالت بصوت مبحوح ـ"أقال (حازم) هذا عني؟"
أجابها بثقة قائلًا ـ"أجل، وانظري إلي. لقد سرت خلف قلبي وظننت أنني أعرفها كنفسي وتغاضيت عن الكثير من عيوبها، ولكنني كنت مخطئًا واكتشفت أنني لم أفهمها أبدًا ولم أحظ معها بالسعادة التي أردتها، بينما سعادتي معك ومع الأولاد لا يمكن وصفها."
همت بأن تقول له إنها -علي عكس شقيقه- لم تكن سعيدة معه وإنه لم يشعرها بالحب الذي تكلم عنه إلا ليلة وفاته بعدما أقنعها أسلوبه الجاف بأنه لم يكن ليعترف حتى بوجوده. إلا أنها آثرت الصمت وعادت تلتقط ألبومها من فوق الفراش وتطالع صورها مع أبيها.
لاحظ (طارق) صمتها ونظرة عينيها التي تخفي الكثير، وشعر أنها لا تريد الإفصاح عما بداخلها، فشكر الله في سره لأنه لم يكن ليحتمل سماع المزيد من الحديث عن علاقتها بشقيقه الراحل، فسألها ليغير هو الموضوع هذه المرة ـ"ولكن ما سبب تطلعك لهذه الصور الآن بالذات؟"
اختنق صوتها بالعبرات وهي تجلس على طرف الفراش قائلة ـ"لقد شعرت بحاجة شديدة إلى وجوده بجانبي، أردت أن أقفز في أحضانه وأن أشعر بيده تمسد شعري وأسمعه يغني لي هامسًا ويسألني كم أحبه فأفتح ذراعاي عن آخرهما وأحيط عنقه بهما. رغم استشهاده في حادث تدريب منذ نحو ثلاثين عامًا مازلت أفتقده وأشعر بحاجتي إليه في أوقات عديدة."
اقترب منها وأدار وجهها إليه ليمسح بأنامله عبرة خانتها وسالت على وجنتها هامسًا في حنان دافق ـ"أنا إلى جوارك، أنا أبوك وأخوك وزوجك وابنك إذا أردت."
قالها وهو يحيط كتفيها بذراعه ويريح رأسها على كتفه وبيده الأخرى يمسد شعرها في رفق قبل أن يطبع قبلة دافئة على جبهتها، إلا أن (هالة) ابتعدت عنه في سرعة كالمصعوقة ووجهها محتقن بالدماء قائلة بارتباك ـ"أشكرك على مشاعرك الطيبة هذه."
رفع حاجبيه في دهشة قائلًا ـ"مشاعري الطيبة؟!(هالة) إننا زوجان."

رتبت شعرها بارتباك قائلة ـ"هل حاولت إعادة(سمر) إلى عصمتك كما وعدتني؟"
ضغط(طارق) أسنانه في غيظ قائلًا ـ"ألا يهمك سوى إعادة(سمر) إلى عصمتي؟ أيريحك قولي إن أمها أخبرتني بأنها سعيدة بابتعادها عني وأنها ستتزوج من آخر؟"
هتفت في ذهول ـ"وهل صدقتها؟ إنها لا تستطيع الزواج قبل انتهاء عدتها أي قبل شهرين. من الواضح أنها تكذب."
أشاح بكفه قائلًا بضيق ـ" تكذب أو لا تكذب، فأمرها لم يعد يهمني بعد ما صدر منها. لقد كسرت شيئًا عميقًا بداخلي ولا أظن من الممكن إصلاحه."
ثم التفت إليها وقال بابتسامة هادئة ـ" كما أنني سعيد هكذا، وأدركت أخيرًا أن أبي كان على حق حين قال إنه اختار لي أفضل زوجة، ولن أستبدلك بأخرى مهما حدث."
قالت بتردد ـ"وماذا عن حبكما؟"
قال بثقة وهو يتأمل عينيها ـ"افهميني يا (هالة)..لقد أحببتها بقلبي ولم أكن موفقًا، وهي أدارت وجهها لهذا الحب. أدري أنها كانت مجروحة بعد نتيجة التحاليل، ورغم ذلك احتويتها وحاولت أن أخفف عنها وطأة الصدمة. بل وسعيت إلى استرضائها أكثر من مرة وهي رفضتني. والأسوأ أنها أهانتني، وكرامتي لا تحتمل أن أعود لمن تجرأت على إهانتي. سأعتبرها تجربة بحلوها ومرها، ولكنني لن أعيدها معها ثانية. لقد طويت صفحتها منذ ذلك اليوم."
تهربت من نظراته وهي تقول بلعثمة ـ"و..ولكنكما تعملان في نفس المستشفى."
رفع وجهها إليه ليمعن النظر في عينيها ثانية وهو يقول بهدوء ـ"أنا أعمل مع مائة طبيب وممرض..لا أكاد ألتقي بربعهم. فعملي في غرفة العمليات، وهي في العيادات الخارجية، وبيننا ثلاثة أدوار. أعترف أننا كنا نتحين فرص اللقاء من قبل، ولكن بعد ما حدث صارت تتجنب تجاوز

الدور الثاني."
تاهت في نظراته وشعرت بالصدق في عينيه وهو يتابع بابتسامة جذابة
ـ" أما أنت يا (هالة)، فقد أحببتك بعقلي وكياني كله قبل قلبي، وأجمع ثلاثتهم على أنني لن أجد من هي أفضل منك لأهبها اسمي وحياتي إن أرادت."
ثم أضاف وهو يحتضن كفيها بين راحتيه هامسًا ـ"هل تقبليني زوجًا يا (هالة)؟"
اتسعت عيناها في ذهول وهي لا تكاد تصدق أذنيها...أهذا صحيح؟
أشعر بها أخيرًا؟
أيبادلها الحب حقًا؟ هي وليس غيرها؟
وبكل دهشتها ولهفة قلبها قالت بارتباك ـ"(طارق) أنا..."
قاطعها وهو يلمس شفتيها بأطراف أنامله ويقترب منها أكثر قائلًا ـ"أريدك زوجة وحبيبة وصديقة. أريدك أن تكوني حياتي الجديدة التي أنسى معها أي ماضي. أريدك لي وحدي يا (هالة)."
اغرورقت عيناها بدموع غزيرة لم تستطع منعها فسالت على وجنتيها وهي تتأمله بكل الحب في أعماقها ولسانها عاجز عن النطق أمام صدق المشاعر الذي تراه في عينيه.
كانت ترى نفس النظرة التي رأتها لأول مرة وهو يحدثها عن (سمر) نظرة حب صادقة.
طال صمتها وهي تتأمله من خلف دموعها، فابتسم ومسح دموعها برقة واقترب بوجهه منها حتى تعانقت أنفاسهما هامسًا في خبث ـ"سأعتبر صمتك قبولًا لعرضي."
ثم أضاف بعد أن طبع قبلة دافئة على جبهتها ـ"هل لي أن أسألك مثل والدك عن مدى حبك لي؟"
وأجابته بكل صراحة.

*****

(٢٥)

استند بكتفه إلى باب غرفة (هند) ليتابعها باهتمام حنون وهـي تهمـس لابنتها بكلمات أغنيتها المفضلة، ولم يبد عليها أنها تشـعر بوجـوده. فقـد استغرقت في مداعبة شعر صغيرتها والغناء لهـا حتـى استسـلمت للنـوم. حينها نهضت من جوارها على أطراف أصابعها لتخـرج وأشـارت لزوجهـا بالتزام الصمت كي لا يوقظ الطفلة.

وفي غـرفتهما، جلسـت عـلى الفـراش في إرهـاق قائلـة بابتسـامة هادئـة ـ"تخيل أن (هند) تفضل غناء جدتها عن غنائي؟ إنها حتـى لم تعتـد بعـد على غياب أمي."

استلقى(طارق) إلى جوارهـا قـائلًا بهـدوء ـ"أنا أيضًـا لم أعتـد بعـد عـلى غيابها. أشعر بأن شيئًا ما ينقص المنزل. أعادها الله سالمة إلينا."

تنهدت في عمق وهي تسند رأسها على ظهر الفراش قائلة ـ"وماذا عنـي أنا؟ إنها صديقتي الوحيدة، لم أفارقها إلا يوم زواجي ولكنها كانت دومًـا في بالي. أتدري أنها كانـت تشـعر بي عنـدما أمـرض وأنـا عـلى بُعـد آلاف الأميال؟ طيلة عمري وبيننا توارد خواطر قوي، أشعر بها وتشـعر بي دون أن ينبس أحدنا بحرف. لا أدري كيف سأحتمل غيابها فترة الحج؟"

أحاط كتفيها بذراعه وقربها منه قـائلًا ـ"سيمر الوقـت بسـرعة، إنهـا لم تسافر إلا اليوم فقط؛ ومادامت مع صحبة آمنة فلا سبيل للقلـق عليهـا. على العكس، يجب أن تسعدي لها لأن حجها هـذا تكـريم لهـا ولوالـدك الشهيد."

ابتسمت ابتسامة جانبيـة دون اقتنـاعٍ وقالـت ـ"تكريم متـأخر للغايـة، ولكنها كانت واثقة من أنـه سـيأتي يومًـا مـا لـذلك لم تـأت معنـا عنـدما ذهبت أنا و(حازم) رحمه الله للحج."

داعب شعرها المنسدل قائلًا ـ"لم يكن المولى قد أذن لها بعد، وعندما أراد سبحانه وتعالى يسـر لها هـذا التكـريم، وبـإذن اللـه ستسـتمتع في هـذه الرحلة."

تنهدت في ضيق ولسان حالها يعكس افتقادها لوالدتها فزاد من احتضانه

لها قائلًا بغـيرة ـ"ثم ألا يكفيـك حنـاني الـدافق؟ يبـدو أننـي سـألجأ إلى أساليبي الخاصة."
رفعت عينيها بتساؤل ليفاجئها بحركته المعتادة وهو يدغدغها ويستمتع بضحكتها الصافية وهي تتلوى بـين ذراعيـه إلى أن توقـف عـن دغـدغتها وهو يقول مهددًا ـ"ها؟ أيكفيك حناني أم لا؟"
دفنت وجهها في كتفه قائلة بدلال طفولي ـ"مازلت مصرّة أنني سأفتقدها بشدة. أدعو الله أن ينتهي الحج سريعًا كي تعود لي أمي بالسلامة."
ابتســم وهــو يقبــل رأســها ويعيــدها إلى أحضــانه قــائلًا ـ"لقد تغلبــت على(هند)، لا أدري من منكما أدلل أكثر."
رفعت عينيها إليه قائلة بدلال ـ"من تحب أكثر."
تاه في غموض عينيها الجميلتين للحظات همس خلالهـا بصـدق ـ"أحبك كروحي."
تنهدت في ارتياح عميق وغاصت في أحضانه هامسة ـ"وأنا أحبك أكثر."
خلل خصلات شعرها بأصابعه قبل أن يطبع قبلة حانية عليه قائلًا في ثقة ـ"أعلم، وأكدته لي أمي هذا الصباح قبل أن تسافر."
عقدت حاجبيها وهي تبتعد عنه في حيرة قائلة ـ"أمي أنا؟ ماذا قالت؟"
قال بابتسامة صافية ـ"قالت الكثير."
رجته في دلال قائلة ـ"أخبرني ماذا قالت؛ لـو كنـت حبيبتـك حقًـا أخـبرني ماذا قالت."
أشار إلى وجنته فرفعت جذعها لتصل إليه وتطبع قبلة دافئة عـلى خـده القريب منها، لتجده يدير خده الثاني لها فقبلته ثانية وعادت ترتاح على الفراش إلى جواره لولا نظرته الماكرة التي جعلتها تضربه بقبضتها في كتفه قائلة بحنق ـ"لا تكن طماعًا..هيا قل ما لديك، وإلا تركتك ونمت إلى جوار ابنتي."
ضحك منها ومن تهديدها الذي لا يتحمله فقال بسرعة من بين ضـحكاته ـ"لا أرجوك..إلا هذا العقاب. سأخبرك."
ثم داعـب وجنتهـا بأناملـه وقـال بهيـام ـ"قالت لي إنـك تحبيننـي منـذ

تشاجرنا أول مـرة، وإن حبـك لي هـو الـذي دفعـك لمسـاعدتي في الـزواج من(سمر)؛ وعندما أكدت لها أنني أحبك بكل ذرة في كياني طلبـت منـي أن أقسم لها على المصحف الشريف أن أصونك وأرعاك وأحميك بحياتي."
داعبت أزرار منامته قائلة بدلال ـ"وهل أقسمت؟"
اتسعت ابتسامته وهو يجيبها ـ"أتسألينني؟ رغم أنني مستعد بالفعل لأن أفديك بحياتي دون قسم، فقـد أقسـمت كي أرضـيها وأطمئنهـا أن ابنتهـا وأحفادها في أيد أمينة."
انكمشت في أحضانه ثانية وقالت بثقة ـ"أعلم هذا. ماذا قالت أيضًا؟"
أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يجيبها بلمحة تـردد ـ"سألتني إن كنـت أعـرف شعور المرأة حين تحب مرة واحـدة في حياتهـا رجـلًا لـيس لهـا ويتحـول حلمها فجأة إلى حقيقة ويصبح زوجًا لها وحدها. والحقيقة أنني دُهشت لوصفها لك هكذا، إلا أنها فسرت لي ما عنته."
ابتعدت(هالة) عنه قليلًا وسألته بارتباك ـ"وماذا قالت؟"
نظر إليها بثبات قائلًا ـ"قالت أغرب شيء سمعته في حياتي. قالت إنـك لم تحبـي (حـازم) ولم تكـوني سـعيدة معـه وإنهـا شـعرت بـذلك دون أن تصرحي أنت به. ولكن كيف هذا و(حازم) كان يؤكد لي أنه سعيد معك وأنه يحبك. أمن الممكن أن يكون الزوج سعيدًا والزوجة تعيسة؟"
نهضت مبتعدة واتجهت إلى الشرفة تنظر من خلـف زجاجهـا إلى لا شيء قبل أن تتمتم بعصبية ـ"ما الذي جعلها تقول هذا؟"
نهض بدوره متجهًـا إليهـا وأدارهـا إليـه ليتأملهـا قـائلًا ـ"أنا رجوتهـا أن تخبرني بكل ما هو غامض عني. أنـت لم تخبرينـي سـوى مقتطفـات مـن حفل زفافك على (حازم) ولم تذكري غيرها؛ لم تعطني فكرة عـن حيـاتكما معًا وأنـا لم أطلـب ذلـك لعلمـي المسـبق بسـعادته معـك والتـي تعنـي سعادتكما سويًا. لكن حين تخبرني بأنك لم تحبي سوى مرة واحدة، فـماذا إذًا عن زوجك السابق؟ ولا تنسي أنه كان شقيقي الوحيد."
هتفت بصوت خنقته الدموع وهي تشيح بوجهها بعيدًا ـ"أعلم هـذا ولا أستطيع نسيانه، لكن شقيقك للأسف لم يكن الزوج الذي تمنيته. أسلوبه

الصارم جعلنـي أجفـل منـه. لا أنكـر أننـي أحببتـه في بدايـة زواجنـا -أو بالأحرى حاولت أن أحبه- لأنه كان يحاول امتصاص خوفي من الغربة. إلا أنه مع عودته للعمـل ازداد ابتعـادًا عنـي، وشـعرت بـأنني لا أفهمـه ولا أتكيف مع عصبيته ولا أسلوبه الآمر الناهي كأنني أحد العاملين معه. لم أتقبل الوضع ومع ذلك لم أشتك، خاصـة بعـد مولـد (هيـثم) وإحسـاسي ببعض الهدوء في طباعه، إلا أنه كان سرعان ما يعود بسرعة البرق (حازم) بجبروته وسطوته، وأنا بطبعي لا أحب تلقي الأوامر."

ثم تابعت ودموعها تنهمر على وجهها دون توقـف ـ"لقد كـان (حـازم) رحمه الله يعتبر المشاعر نوعًـا مـن الضـعف، لـذا كـان يعوضـها بأشـياء أخرى. كان كريمًا معي ومع الأولاد في كل شيء..ماعدا المشاعر. (حازم) لم يعترف يومًا بأنه يحبني إلا ليلة وفاته، وحتى يومها لم يقلها صريحة. ربما كنت الزوجة المثالية بالنسبة لـه. الزوجـة التـي تهـتم بـه وتلبـي جميـع طلباته وتحافظ له على هدوء وجمال المنزل، وفي الوقت نفسه تحفظه في غيابه. هـذه مميـزات الزوجـة التـي كـان يتمناهـا (حـازم) ووجـدها في شخصيتي. أما مميزات الزوج الذي كنت أتمناه فلم يوجد منها في (حازم) سوى الذكاء والوسامة والأصل الطيب."

حاولت مسح دموعها المنهمـرة التـي أفسـدت كحـل عينيهـا الجميلتـين، ولكن مجرد ذكرى زواجها ب(حـازم) كانـت تـدفع الـدموع سريعـة عـبر مقلتيها وهي تضيف ـ"أكثر ما كنت أريـده في زوجـي هـو الحنـان. لقـد نشأت يتيمة وكنـت بحاجـة إلى زوج يحتـويني ويعوضـني حنـان الأب، ولهذا وافقت على الزواج بعد تخرجي مباشرة على أمـل أن أجـد ضـالتي عند زوجي. ولكن (حازم) للأسف لم يكن ليعترف بالحنان. كان يعتقد أن حنان الرجل هو أقصر الطرق لسيطرة زوجتـه عليـه. ولا تسـألني كيـف وافقت على (حازم) من البداية لأنه كان قدري، قسمة ونصيب."

تنهد في عمق قائلًا ـ"نفس العبارة التي قالتها أمي 'قسمة ونصيب'."

ثم أدار وجهها إليه برفق وهو يتابع بحنان ـ"حبيبتي أنـا لا أعاتبـك ولا أريد نبش الماضي لأن أصعب شيء على نفس الرجل هو أن يتذكر أنـه لم

يكن الزوج الأول في حياة زوجته، والأكثر صعوبة أن يكون هذا الزوج شقيقي. كل ما هنالك هو أن حديث أمي ترك العديد من علامات الاستفهام في عقلي."

وأضاف مبتسمًا وهو يمسح دموعها بأنامله ويزيل آثار الكحل السائل قائلًا ـ"ولكن لا أنكر أن كوني حبيبك الأول أرضى غروري كرجل."

ثم قبل جبهتها في حنان وهو يقول ـ" أعدك ألا أعيد فتح هذا الموضوع ثانية، اتفقنا؟"

قالها بصدق قبل أن يضمها إليه بقوة وحنان ويدفن وجهه في شعرها للحظات قصيرة كان من الممكن أن تطول لو لم تبتعد(هالة) عنه في حركة عنيفة ويدها على فمها وعلى وجهها ارتسم تعبير امتعاض أقلقه، خاصة حينما تركت الغرفة في سرعة متجهة إلى الحمام وتناهى إلى مسامعه صوتها وهي تفرغ معدتها رغمًا عنها.

وعندما عادت إلى الغرفة بعد دقائق أدهشها التعبير المرتسم على وجه زوجها.

***

كان جالسًا على طرف الفراش يهز ساقه في عصبية والقلق -وربما الضيق- بادِ على وجهه، ولم يكد يرها حتى سألها في لهجة بدت حادة إلى حد ما ـ"هل تسمحين بتفسير ما حدث لك حينما اقتربت منك؟ هل أصبتك بالاشمئزاز أم أنك لا تطيقينني؟"

ارتفع حاجباها في دهشة بالغة وهي تقترب منه هاتفة باستنكار ـ"أنا؟ أنسيت أننا منذ دقائق كنا نتبارى من منا يحب الآخر أكثر؟"

سألها في حيرة ـ"إذًا ما السبب؟ إنك لم تكوني هكذا من قبل، هذا الأمر جديد عليك."

جلست إلى جواره وربتت على كتفه قائلة بتردد ـ"أنت لست السبب بشكل مباشر ولكنه...إنه عطرك يا حبيبي."

عقد حاجبيه وهو يتشمم ملابسه قائلًا ـ"عطري؟ أي عطر هذا؟ أنا لا أشمه، كما أنني لم أغير نوع العطر الذي أستخدمه."

ابتسمت وخفضت وجهها وصوتها وهـي تقـول بخجـل ـ"أنت لا تشـمه لأنك اعتدت عليه، ولا أنكر أن رائحته طيبة لكنها بدأت تثيرني وتجعلني أفرغ معدتي أكثر من مرة في اليوم بمجرد اقترابك مني؛ أنا آسفة."
التفت إليها وربت على وجنتها قائلًا بحنـان ـ"لابد وأن هنـاك سـببًا مـا. يجب أن تستشيري طبيبًا متخصصًا في الجهاز الهضمي لأنني قلـق عليـك للغاية."
استكانت للمسة كفه وأسبلت جفنيها للحظات قبـل أن تفـتحهما قائلـة ـ"لا داعي لقلقك يا حبيبي، موضوع استثارة الروائح النفاذة لمعدتي أمـر قديم ويتكرر كل فترة."
عقد حاجبيه وبدا القلق في صوته وهو يسألها في اهـتمام قـائلًا ـ"يتكرر بأي معدل؟"
ابتسمت في خبث قائلة ـ"ليس معدلًا متقاربًا، فقد حدث لي أربع مـرات خلال اثني عشر عامًا، وسبب عدم قلقي هو أنه يزول تلقائيًا بعد تسعة أشهر."
اتسعت عينـاه في دهشـة وهـو يهتـف بانفعـال ـ"تسعة أشـهر؟ تسـعة بالضبط؟ إذًا فأنت حامل!! يا إلهي..."
قاطعته بلكزة في جانبه قائلة ـ"يا لك من طبيب غـير متمـرس. ألم تفهـم إلا الآن؟ ظننتك أنت ستسألني متى يأتي ولي العهد، مثلما فعل والدك."
أحاط وجهها بكفيه قائلًا ـ"لم أسألك لأنني تزوجتك فعليًا من أجلك أنت وليس من أجل الإنجاب. ولكن ذلك لا يمنعني من سؤالك متى سـنحتفل بقدومه؟"
هزت كتفيها قائلة ـ"لا أدري متى بالضبط لأنني لم أستشـر طبيبًا مختصًا بعد؛ إلا أنه من المحتمل أن ألد بعد سبعة أشهر ونصف من الآن."
هـب واقفًـا يهتـف في جـذل وهـو يتحـرك في الغرفـة كـالمجنون ـ"يا إلهي...سأصبح أبًـا حقًـا. لا أدري مـاذا أفعـل؛ أريـد أن أرقـص، أريـد أن أغني، أريد أن أخبر العالم كله أن زوجتي وحبيبتي حامل، أن أخبر أبنـائي أن أخاهم قادم في الطريق. يا إلهي...سأجن من السعادة."

انفجرت (هالة) ضاحكة وهي تراه حائرًا في التعبير عن سعادته بحملها، ثم ما لبثت أن نهضت متجهة إليه إلا أنه هتف بها ويداه ممدودتان عن آخرهما قائلًا ـ"إلى أين؟ إنك لن تتحركي أو تقومي بأي مجهود طوال فترة الحمل. ستأخذين أجازة من العمل حتى الولادة، ومن الأفضل أن تكون أجازة مفتوحة. ممنوع الإرهاق أو الانفعال. سنذهب سويًا لأفضل الأطباء وستخضعين لنظام غذائي صحي يضمن عدم زيادة وزنك عن الوزن المطلوب و..."

قاطعته قائلة من بين ضحكاتها ـ"على رسلك يا حبيبي.أنا لا أشعر بأي شيء غير طبيعي، ولا تنس أنها رابع مرة أحمل فيها."

تابع وكأنه لم يسمعها قائلًا ـ"وأهم شيء ألا تنظري في وجهي كثيرًا وإلا أتى المولود شبيهًا بي."

قبلت وجنته في حب قائلة ـ"وهذا ما أريده، أن يكون نسخة عنك في الشكل والطباع، أن يكون له عينيك ولونهما الدفيء وابتسامتك وحنانك وبساطتك التي أعشقك من أجلها."

تأمل ملامحها ليرى الصدق في عينيها يثبت مدى حبها له ووجد نفسه يهمس تلقائيًا قائلًا ـ"يا إلهي...أتحبينني إلى هذا الحد؟"

لاحت نظرة عتاب سريعة في عينيها السوداوين وهمست ـ"ألديك شك؟"

هز رأسه نفيًا ومال يطبع قبلة حانية على جبينها هامسًا بصدق ـ"أبدًا يا حبيبتي...ولا تشُكي ولو للحظة واحدة في حبي لك."

رفعت عينيها إلى عينيه في لحظة هادئة قطعها(طارق) حين هتف فجأة ـ"لقد نسيت، يجب أن أغتسل فورًا."

عقدت(هالة) حاجبيها وهي تتابعه بعينيها يلتقط منشفته فهتفت به ـ"ماذا بك؟ ولماذا الآن بالذات؟"

تناول زجاجة عطره قائلًا بابتسامة جذابة ـ"ما دام عطري يثير معدتك فلا بد أن أزيل آثاره من جسمي وملابسي."

وفي حركة سريعة قبّل الزجاجة قبل أن يقذفها في سلة المهملات ويتجه للحمام تاركًا(هالة) مستغرقة في الضحك.

(٢٦)

بخطوات سريعة واثقة يميزها صوت كعب حذائها المرتفع، دلفت إلى غرفة الطبيبات بالمستشفى وهي ترفع نظارتها الشمسية الراقية فوق شعرها بحركة أنيقة وتبتسم لصديقتها التي جلست تحتسي شرابًا دافئًا في هدوء.

وبرقتها المعتادة ألقت التحية على صديقتها قائلة ـ"صباح الخير يا دكتورة (ضحى)."

بادلتها (ضحى) الابتسامة وهي تجيبها بود ـ"صباح الخير يا دكتورة (سمر). ما الذي أخرك هذا الصباح؟"

اتجهت إلى طاولة بجانب الغرفة اصطفت عليها أكواب ورقية نظيفة وعلب للشاي والقهوة الفرنسية وهي تجيبها قائلة بابتسامة منهكة ـ"كنت أنهي بعض الأوراق الهامة. لقد خرجت مبكرًا من منزلنا حتى أنني لم أتناول قهوتي الصباحية المعتادة."

قالتها وهي تلتقط كوبًا ورقيًا وتفرغ مظروفًا للقهوة فيه قبل أن تضيف عليه الماء المغلي وتقلبه متجهة إلى مقعد مجاور لصديقتها وتجلس برقة قائلة ـ"كنت أقاوم النوم في سيارة الأجرة وأنا قادمة الآن."

تأملتها (ضحى) قليلًا قبل أن تهمس بتعاطف ـ"الإرهاق يبدو جليًا على وجهك، لكنك تجيدين إخفاء مشاعرك دومًا."

التفتت إليها بحركة حاولت ألا تجعلها حادة وهي تسألها بضيق ـ"ماذا تقصدين؟"

ربتت (ضحى) بتعاطف على كف صديقتها قائلة ـ"كلنا يعلم كيف كنت تحبينه، وأن...".

قاطعتها قائلة بجمود ـ"أنت قلتها..كنت أحبه. لقد انتهى ما بيننا وطويت هذه الصفحة من حياتي."

حاولت (ضحى) أن تلين صلابتها قائلة ـ"أنت ما زلت في العدة، وإذا أردت يمكن ل(سامي) زوجي أن يتدخل ليعيدكما و...".

قاطعتها ثانية وهي تقول بصوت حاولت أن تجعله طبيعيًا ـ"لم أعتد

التراجع في قراراتي..ثم إنني أعددت العدة للسفر قريبَا."
عقدت صديقتها حاجبيها قائلة بدهشة ـ"السفر؟ إلى أين؟"
ارتشفت (سمر) بعضًا من قهوتها الساخنة متجاهلة حرارتها قبل أن تجيبها قائلة ـ"لقد وجدت فرصة عمل في دولة خليجية وسأسافر بمجرد انتهاء العدة."
استفسرت (ضحى) بلهجة أقرب إلى الاستنكار"بدون محرم؟"
واصلت ارتشاف قهوتها واعتدلت في مقعدها وهي تجيب ببساطة ـ"لم يشترطوا محرمًا، كما أن هناك سكن داخلي للطبيبات..أشبه بالمدينة الجامعية للطالبات."
سألتها (ضحى) ـ"أهي هذه الأوراق التي كنت تنهينها في الصباح؟"
سحبت نظارتها الشمسية من بين خصلات شعرها المصبوغ ووضعتها في جراب أنيق وهي تجيب صديقتها بهدوء ـ"نعم هيِ. لقد أشارت علي صديقة بالسفر وساعدني (حسام) ابن زوج أمي كثيرا حتى وجدنا هذا العقد."
تنهدت (ضحى) بعمق وهي تتمتم بصوت خافت ـ"وكأنك تقولين له مصر كلها لا تكفيني للهروب منك."
سمعتها وهي تدرك مغزى جملتها، فقالت بنفس البرود ـ"نعم مصر كلها لا تكفيني للهروب منه. لا أنكر أنني أتحاشى التحرك في المستشفى بعيدًا عن عيادة العيون وغرفة الطبيبات كيلا ألقاه قدرًا، ولا أنكر أنني غيرت مواعيد عملي كذلك. ولكن إلى متى؟ المستشفى ليس بهذه الضخامة بحيث نتوه بداخله، ومن المؤكد أننا سنلتقي يومًا ما، وأنا لا أريد ذلك."
قالتها وشعرت بالضعف يعتريها ويتغلب على قوة صوتها الذي تهدج رغمًا عنها وهي تقول ـ"لقد عشت معه أيامًا جميلة لا أنكرها، وهو تحمل عصبيتي ودلالي وأحيانًا إهاناتي بصبر وحكمة لم أرها في رجل من قبل. لكن كرامتي لا تتحمل المزيد. لقد كان يتحملني من قبل بدافع الحب، ولكن دافعه الآن سيكون الشفقة، وأنا لا أقبلها. بل ربما لا يتحملني أكثر من ذلك ويأتي اليوم الذي يطلقني فيه لأنني لم أنجب

طفله."
وبسرعة غريبة عادت القوة تغلف صوتها وهي تضيف ـ"لذا كان قـراري بطلب الطلاق هو الحل الأمثل للحفاظ على ما تبقـى مـن كرامتـي أمـام أسرته وأسرتي."
ربتت (ضحى) على كف صديقتها في تعاطف قائلة ـ"ولكنك لسـت أول من تعجز عن الإنجاب يا (سمر)، والعلم في تقدم مسـتمر. وحتـى إذا لم يأذن الله لك بالإنجاب، فحب (طارق) لك كان كفيلًا بتعويضك. أنـت لا تعلمين كيف كان حاله منذ بـدأت المشـاكل بيـنكما. لقـد كـان (سـامي) زوجي يتمزق ألمًا حزنًـا عـلى صـديقه الوحيـد ويشـعر أنـه لا يسـتطيع مساعدته في أصعب مواقف حياته. هل تعلمين أن (طارق) كاد أن يفقـد مسـتقبله المهنـي كطبيـب بسـبب خلافـاتكما التـي أثـرت عـلى أعصـابه وجعلت أصابعه تهتز أثناء إحدى العمليات؟"
تظاهرت بتأمل كوبها الورقي وهي تتمتم ـ"ربما."
ثم رفعت عينيها إلى (ضحى) لتضيف ببرود ـ" لكنه عـاد وتفـوق وكرمـه مدير المستشفى منذ نحو شهرين. ألا يعني ذلـك أنـه تجـاوز أزمتنـا؟ ألا يعني ذلك أنني لم أعد أمثل أية أهمية بالنسبة له؟"
مطت (ضحى) شفتيها قليلًا وهي لا تدري بما تجيب صديقتها. لقـد أسر إليها زوجها من قبل بأن (طارق) يبدو مختلفًا وأكـثر تفـاؤلًا، بـل ويبـدو أنه تجاوز أزمة (سمر) وطلاقهما وكأنها لم تكن يومًـا زوجتـه التـي قاتـل من أجلها.
كانت تجهل هي وزوجها سبب هذا التغيير.
أما (سمر) فكانت على شبه يقين من سبب التغيير.
كانت تشعر بأنها قدمت زوجها على طبق من ذهـب لـ(هالة) وأبنائهـا، وأن (طارق) ربما أجاد استغلال الفرصة.
ولم لا؟
لقد كانت (هالة) بالنسبة له الزوجة المثاليـة في كـل شيء، عـلى النقـيض منها تمامًا

وبعد اختفائها من حياته بناء على طلبها...ما الذي يمنعه عن تحويل زواجه منها إلى زواج حقيقي؟
شعرت بغصة تخنقها عند تلك النقطة فسعلت بقوة جعلت الكوب الورقي يهتز في كفها ليسكب قليلًا من محتواه الساخن على ساقها فهبت واقفة لتبعد سروالها الضيق قليلًا عن فخذها كيلا تحرقه القهوة الساخنة واتجهت في سرعة إلى حوض جانبي والتقطت منشفة صغيرة نظيفة بللتها قليلًا بالماء قبل أن تمسح بها آثار القهوة عن السروال الأسود.
بعد أن انتهت من تنظيف ملابسها عادت تجلس في هدوء إلى جوار صديقتها وهي تعيد ترتيب شعرها بأصابعها بحركة مدروسة اعتادت عليها منذ قصرت شعرها قبل فترة.
حينها شعرت (ضحى) بما تحاول صديقتها إخفاؤه دون جدوى فقالت بحرج ـ"آسفة يا (سمر)..أنت تدركين كيف أحبك، وكيف تعود صداقتنا إلى ما قبل ارتباطك بصديق زوجي. كل ما أريده لك هو السعادة والراحة."
ربتت على كفها بود ومنحتها ابتسامة صادقة وهي تقول ـ"أدرك ذلك يا صديقتي الوحيدة...أنت وزوجك فقط دونًا عن أي من معارفنا تعلمان السبب الحقيقي لانفصالنا، وهذا لأنكما أقرب إلينا من أهلنا بالفعل."
قالتها دون أن تشعر بأنها جمعت نفسها و(طارق) في ضمير واحد كما كانت تفعل دومًا.
ولكن هذا لم يخف على (ضحى) التي بادلتها الابتسامة في ألم قبل أن تسألها باهتمام لتغير الموضوع ـ"هل حددت موعد السفر؟"
أجابتها في هدوء وهي تضع جراب النظارة الشمسية في حقيبة يدها قائلة ـ"غالبًا سيكون بعد عيد الأضحى...أنا في انتظار التحقق من موعد انتهاء العدة لحجز تذكرة السفر."
عقدت (ضحى) حاجبيها وهي تسألها في حيرة ـ"ماذا تقصدين؟"
هزت كتفيها وهي تجيبها قائلة ـ"لا أعرف كيف تُحتسب الحيضات الثلاث...هل بداية من الحيض الذي يتبع الطلاق أم من الحيض الذي

حدث أثناؤه الطلاق."
وضعت (ضحى) كوبها الورقي على المنضدة أمامها في سرعة واستدارت إلى صديقتها تسألها بانفعال ـ"هل كنت حائضًا حينما طلقك (طارق)؟"
تراجعت في جلستها لتسند ظهرها إلى ظهر المقعد وهي تجيب صديقتها بهدوء ـ"نعم...وهذا سبب انفعالي الزائد عليه منذ معرفتي بنتائج التحاليل والأشعة."
ثم ما لبثت أن سألتها باهتمام وهي تقترب بوجهها من صديقتها ـ"لماذا أرى في عينيك انفعالًا مكتومًا؟ ماذا تخفين عني؟"
وضعت (ضحى) كفيها على حجابها الأنيق وهي تعدله فوق رأسها بارتباك قائلة ـ"لا....لا شيء..لقد تذكرت شيئًا."
قفز الاهتمام إلى عيني (سمر) وهي تمسك كف صديقتها في قوة قائلة ـ"ما الذي تذكرته؟ ولماذا أشعر أن له علاقة بي؟ أجيبيني يا (ضحى) بالله عليك."
تلعثمت (ضحى) قليلًا وهي تفرك كفيها بارتباك قائلة ـ" أنا لست واثقة تمامًا من المعلومة، ولابد من استشارة رجل دين أولًا."
عقدت حاجبيها وهي تسألها بنفاذ صبر ـ"ما هي المعلومة التي قلبت حالك رأسًا على عقب؟ أخبريني ربما كنت أعرفها."
هزت (ضحى) رأسها نفيًا وهي تقول بضيق ـ"لا أظنك تعرفينها، ولازلنا بحاجة إلى التحقق من مدى صحتها."
ضغطت فكيها في غيظ وهي تقول بعصبية ـ"(ضحى)..كفى تلاعبًا بأعصابي..هات ما عندك."
تنهدت صديقتها في عمق قبل أن تستغفر ربها بهدوء وتقول ـ"لقد سمعت إحدى معارفي تقول منذ فترة إن طلاقها من زوجها لم يقع لأنها كانت حائضًا."
شحب وجهها وهي تتراجع مصدومة وتحاول عبثًا العثور على صوتها الضائع لتقول بكلمات متقطعة ـ"م..ماذا تقصدين؟"
ازدردت (ضحى) لعابًا وهميًا وهي تجيب بتردد ـ"أخشى أن طلاقك

أنت و(طارق) لم يقع، وأنه لا داعي لهذه العدة."

وكان الذهول المرتسم على ملامح (سـمر) في تلـك اللحظـة أبلـغ رد عـلى هذه الصدمة.

*****

(٢٧)

جلست على فراشها ترتب الملابس النظيفة التي غسلتها في غياب(طارق) الذي يمنعها من القيام بأي مجهود زائد ووافـق -عـلى مضـض- أن تقـوم هي بالطهي حتى تعود والدتها من رحلة الحج.

وفي هدوء شردت بذهنها بعيدًا وهي تتذكر أحلى أيام حياتها منذ اعترف لها (طارق) بحبه

لا تنكر أنها كانت سعيدة بقربه ومحاولته إثبات مدى حبه لها

لكنها كانت تخشى التجاوب مع طوفان مشاعره كيلا يُساء فهمها

فرغم كل شيء، هو شقيق زوجها الراحل

حتى وإن كان نقيضه تمامًا

ولكن إذا كان هو لا يخجل من إغراقها بطوفان حبه وحنانه

فلماذا تخجـل هـي وتـنغص سـعادتها التـي تأتيهـا وللمـرة الأولى رائقـة كشلال ماء بارد يروي ظمأها الطويل.

لذا تجاوبت بكل ما يعتمل بداخلها من شوق لهذا النبع الصافي.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهها وهي تتذكر خروجهـا معـه كزوجـة تتأبط ذراعه للمرة الأولى أمـام العـالم وهـو يصـحبها وأطفالهـا في رحلـة سريعة إلى الملاهي، رحلة قصد بها أن يكسر جمودها الخارجي.

ونجح في ذلك بجدارة...كما نجح في اقتحام جميع حصونها من قبل.

وبحالمية شديدة، رفعت كفها الأيسر إلى مسـتوى نظرهـا لتتأمـل دبلتـه الذهبية الجديدة التي أحاط بها بنصرها خلف دبلة أخيه التي رفـض أن تخلعها اعترافًا منه بأن وفائها لأخيه الراحل لا يقلل من حبها له الآن.

ثـم عـادت تتـذكر الأيـام التاليـة عـلى معرفـة (طـارق) بحملهـا وبحـور السعادة التي أغرقها فيها بحبه وحنانه ورقته معها.

كانت لمعة عينيه وابتسامته العذبة تثير في جسدها قشعريرة لذيذة كلما نظرت إليه، وتزيد من دقات قلبها التي تبدو وكأنها تهتف باسمه.

وهو كان لا يألو جهـدًا في سـبيل إسـعادها وتعويضـها الأيـام السـابقة... وتعويض نفسه أيضًا.

كانت تشعر بالصدق في عينيه وصوته وهو يهمس في أذنيها بكلمات العشق والغزل.
كما كانت تشعر بلهفته عليها وهو يساعدها بأعمال المنزل منذ أصبح زوجها فعلياَ وكأنه يخشى أن يرهقها بطلباته.
كانت تشعر ب(طارق) مختلف...مختلف كزوج وحبيب و...رجل.

وبكل الحب الذي تحمله بين شرايينها لهذا الرجل قربت كفها لتلثم دبلته بعمق وهي تهمس ـ"حفظك الله لي ولأبنائنا."
ثم أعادت كفها لتتحسس برقة بطنها الذي يحمل ثمرة هذا الحب.
كانت سعادتها بهذا الحمل لا تضاهيها سعادة، سوى سعادتها بحملها الأول.
فحينها كانت سعيدة لأنها ستصبح أمًا
ولكنها الآن سعيدة لأنها ستصبح أمًا لطفله...لكائن صغير نصفه لها ونصفه له.
لحظتها تذكرته حينما طلب منها ألا تنظر إليه حتى لا يشبهه المولود
وبابتسامة ناعمة نقلت عينيها إلى المنضدة المجاورة لفراشهما، والتي حملت صورة جماعية لها معه ومع أبنائها.
تناولت الصورة ذات الإطار الأنيق وتأملتها قليلاَ
لا تزال تذكر اليوم الذي أصر فيه (طارق) على أن يذهبوا جميعًا إلى المصور ليلتقط لهم صورة جماعية.
حينها برر إصراره هذا بأنه لا توجد صورة تجمعهما سويًا كزوجين، وهذه الصورة بدلًا عنها
ولكن المصور أوقف كل منهما في جانب بينما وقف الأطفال في المنتصف وكأن (طارق) و (هالة) يحيطانهما بالحب والحماية.
وبكل الحب الذي تغلغل في أعماقها لهذا الرجل تحسست ملامحه في الصورة وهي تتأمل نظرة عينيه الحنونة، والتي لا تخلو من لمحة شقاوة تذكرها بابنها الأوسط (هاني).

ثم ما لبثت أن قربت الصورة من وجهها لتلثم وجهـه في الصـورة بحنـان وتتخيله أمامها وهي تبثه حبها.
كانت تفتقده في شدة هذا الصباح، وكأن وجوده معها هو وحام الحمـل الجديد
فقد خرج إلى المستشفى بعد صلاة الفجر مباشرة ولم يوقظها كعادته منذ علم بحملها، خاصة وأنه يوم السبت ولن يذهب الأولاد إلى المدرسة
ولهذا فهي تشعر وكأنها لم تره منذ زمـن، رغـم أنهـا كانـت بـين أحضـانه طوال الليل
تنهدت في عمق وهي تعيد الصورة إلى موضعها وتسللت ابتسامة شـقية إلى شفتيها وهي تتخيل رد فعل(طارق) حين يعلم أنهـا غسـلت ملابسـه المتسخة دون علمه؛ وتوقعت أن يهتف بها في عصبية قائلًا 'ألم أقـل لـك ممنوع الإرهاق أو المجهود الزائد؟ ألم..."
وعلى حين غرة قطع تخيلاتها دخول ابنها(هاني) المفاجئ إلى غرفتها هاتفًا في فزع ـ"ماما...(هيثم) يمسك بطنه ويتأوه من الألم."
ألقت ما في يدها ونهضت مسرعة إلى حجرة ابنيها لتجد (هيـثم) يتلـوى من الألم واضعًا يديه الصغيرتين على جانبه الأيمن فسألته في جـزع ـ"ماذا بك يا(هيثم)؟ أين الألم؟"
أشار إلى جانبه الأيمن ولسـانه لا ينطـق سـوى بتأوهاتـه مـن شـدة الألم، وهذا ما جعل قلبها يهوي بين ضـلوعها؛ لا بـد وأنـه يشـكو مـن الزائـدة الدودية، إلا أن قلبها دعا اللـه أن يخيـب ظنهـا وحاولـت تهدئـة ولـدها قائلة ـ"لا تقلق يا حبيبي. إنه مغص عادي وسيزول سريعًا. هل تستطيع تحريك ساقك اليمنى؟"
قالتها وهي تلمـس سـاقه عفـوًا فـازداد صراخ(هيـثم) وأيقنـت خطـورة الموقف فهتفت ب(هاني) قائلة ـ"أحضر الهاتف فورًا."
وبأعصاب مفككة ضغطت أرقـام هاتف(طـارق) المحمـول لتجـد رسـالة مسجلة تفيد بأن الهاتف مغلق. حاولت مرة ثانية وثالثة دون جدوى.
وفي يأس ورعب شديدين على فلذة كبدها راحت تطلب رقم المستشفى

التي يعمل بها زوجها، والتي ظلت أرقامها مشغولة لفترة بدت لها كالدهر حتى استجاب لها أخيراً وسمعت موظفة الاستقبال تجيبها فهتفت تستنجد بها قائلة ـ"صليني بالدكتور(طارق حفني) بسرعة لو سمحت."

سألتها الممرضة بلهجة روتينية ـ"من أنت؟"

هتفت بها(هالة) في عصبية قائلة ـ"وما شأنك أنت؟ صليني به سريعًا، فالأمر خطير."

لم ترق لهجتها للممرضة التي قالت في ضجر ـ"الدكتور(طارق) في غرفة العمليات و..."

همت بالصراخ فيها ثانية حينما صك مسامعها صوتًا أنثويًا هادئًا يقول من الطرف الآخر في رقة ـ"ألو...ماذا هناك؟"

استغاثت بصاحبة الصوت الرقيق وقالت في لهفة ـ"صليني بالدكتور (طارق حفني) إذا تكرمت. ابني يتلوى من الألم وهاتف(طارق) المحمول مغلق."

حاولت صاحبة الصوت الرصين تهدئتها قائلة ـ"دكتور(طارق) في غرفة العمليات بالفعل. أعطني اسمك وسأجعله يتصل بك فور خروجه، ولا تقلقي فلن أنسى."

تفجرت الدموع من عينيها واختنق صوتها وهي تقول ـ"صليني بأي دكتور آخر إذًا، أخشى أن ابني يعاني من مغص الزائدة الدودية."

تشبع الصوت الهادئ بلهجة اهتمام وصاحبته تقول ـ"لا تقلقي يا سيدتي، أنا دكتورة (سمر) زوجة الدكتور(طارق). أخبريني بالأعراض التي يعاني منها ابنك يا مدام...ما اسمك؟"

لم يبد عليها أنها سمعت أيًا مما قيل بعدما اخترقت أذنيها عبارة 'زوجة الدكتور(طارق)'؛

فقد اتسعت عيناها في ذهول وأفلت حلقها شهقة رغمًا عنها وهي تكاد لا تصدق أذنيها.

فالمتحدثة لم تقل 'زميلة الدكتور(طارق)' أو حتى زوجته السابقة، بل

قالت ’زوجة الدكتور(طارق)‘...
وفي رد فعل سريع لصدمتها خرج صوتها متحشرجا يقول -"أنا(هالة شوقي)، زوجة دكتور(طارق)."

وكان آخر ما سمعته هو شهقة دهشة من حلق(سمر) قبل أن تغلق سماعة الهاتف في عنف.

*****

(٢٨)

اندفع (طارق) في سرعة ولهفة إلى شقته عبر بابها المفتوح وهرع إلى غرفة الأولاد ليرى(هيثم) راقدًا على فراشه وطبيب الإسعاف يفحصه في دقة، بينما وقفت (هالة) إلى جواره ودموعها تغرق وجهها الشاحب الذي رفعته إليه للحظة ثم ما لبثت أن أدارته بعيدًا، لكنه لم ينتبه لذلك، إذ خاطب طبيب الإسعاف قائلًا -"أنا دكتور(طارق حفني) والد(هيثم)، ماذا به؟"

رفع الطبيب رأسه قائلًا بالإنجليزية -"التهاب بالزائدة الدودية. لا بد من إجراء جراحة عاجلة."

قال(طارق) بثبات -"أنا جراح وسأنقله إلى المستشفى الذي أعمل به."

وأشار إلى(هالة) بلهجة آمرة قائلًا -"ابق أنت هنا بصحبة(هاني)و(هند) و..."

قاطعته بإصرار وتحد قائلة -"ابني لن يذهب للمستشفى وحده، سأترك(هاني) وأخته عند جارتي؛ لقد تركتني منذ قليل لتجيب الهاتف."

حاول الاعتراض قائلًا -"ولكن صحتك..."

قاطعته ثانية وهي تقول بلهجة لم يعتدها -"حبي للقادم لن يكون أكثر من حبي لابني البكر، ولن أحتمل الجلوس هنا وابني في غرفة العمليات."

عقد حاجبيه للحظات وهو يتأمل نظرتها المتحدية التي تعمدت أن ترمقه بها، قبل أن يقول -"حسنًا..أعدي حقيبة (هيثم)."

مسحت دموعها بكبرياء وأنامل مرتعشة وهي تومئ برأسها إلى حقيبة صغيرة مجاورة -"لقد أعددتها بالفعل. هيا بنا."

وبمجهود نفسي خارق حاولت السيطرة على أعصابها كي لا تفقدها أمام طفلها الذي يتلوى من الألم، وجلست على الأريكة الخلفية لسيارة (طارق) بينما وضع ابنها رأسه في حجرها وترك كفه بين كفيها وكأنما تشحنه بقوة حنانها.

كان القلق يبدو جلياَ على ملامح (طارق) الذي يتابعهما بعينيه عبر مرآة

السيارة، وكلما التقت أعينهما لمحت في عينيه تساؤلًا إليها عن سر نظرتها الحانقة له، لكنها كانت تتعمد تجاهله وهي تسمعه يتصل بالمستشفى ويطلب بتوتر تجهيز غرفة العمليات له والاتصال بالدكتور (سامي)، ثم سمعته يسأل ابنها عن حالته ومدى الألم وموضعه ومتى بدأ، إلى أن وصل بسيارته إلى المستشفى الذي يعمل به.
وما أن أوقف السيارة أمام باب الطوارئ بالمستشفى حتى لمحت (هالة) ممرضين يهرعان نحوها ويتعاونان على حمل الصغير برفق ووضعه على فراش متحرك دفعاه إلى داخل المستشفى ومن صالة الطوارئ إلى مصعد العمليات الذي ابتلع الممرضين والفراش وفوقه (هيثم).
كانت تريد الركوب مع صغيرها لكنه وضع كفه على ظهرها وهو يقودها بهدوء نحو مصعد آخر مجاور هامسًا -"لا يمكنك ركوب المصعد مع (هيثم) لأنه يفتح داخل صالة العمليات."
وكأنما أصابتها لمسته بتيار كهربائي مبعثه الاشمئزاز الذي زاد من شعورها بالغثيان، لكنها تماسكت كيلا تحرجه في ردهة المستشفى. وما أن أغلق باب المصعد عليهما حتى أزاحت يده عنها بضيق وهي تشيح بوجهها في غير اتجاه وقوفه.
أدهشه موقفها فعقد حاجبيه وهو يلمس كفها ويسألها بتوتر -"(هالة) ماذا بك؟ نظراتك وحديثك يصيبانني بالتوتر. حالة (هيثم) ليست خطيرة والحمد لله، وسيكون معي صديقي (سامي). حبيبتي لا تثيري قلقي عليك. يكفيني ما أنا فيه."
رمقته بنفس النظرة التي تذبحه وهي تبعد كفها عنه قائلة بلهجة ساخرة لم يعتدها -"حبيبتك!؟ لا تقلق، فحبيبتك بخير.. ركز فقط في عملك وفي أمانة شقيقك الراحل."
زاد من انعقاد حاجبيه وهم بسؤالها عما تعنيه لولا أن سبقه المصعد بفتح أبوابه إيذانًا بوصولهما إلى الطابق الذي يحوي غرف العمليات.

لأول وهلة أثارتها رائحة المعقم القوية التي زكمت أنفها وزادت من غثيانها بشكل كبير، لكنها واصلت تماسكها وهي تدور بعينيها على غرفة العمليات وتهم بسؤاله عن صغيرها، إلا أنه ابتدرها وهو يشير في اتجاه آخر قائلًا ـ"سأدخل لغرفة التعقيم الآن ومنها إلى غرفة العمليات، وأنت اجلسي على هذه المقاعد هناك حتى نخرج."

سألته بلوعة ـ"ألن أراه قبل الجراحة؟"

منحها ابتسامة باهتة وهو يربت على كتفها قائلًا ـ"حبيبتي إنهم يعدونه الآن للجراحة بالفعل. استودعيه عند العلي القدير وادعيه أن يفك كربك."

شعرت بغصة في حلقها وشعور متناقض يكاد يقتلها في تلك اللحظة.

ففي هذه اللحظة الحرجة من حياتها كانت بحاجة إلى صدر حنون تفرغ فيه توترها وتشعر بالاطمئنان لمجرد سماع دقات قلبه المحب...

لكن الشخص الوحيد الذي كانت تتمنى أن تلقي بنفسها بين ذراعيه هو نفس الشخص الذي كان شيطانها يوسوس لها بإلقائه من نافذة الدور الثالث.

شعور متناقض بين الحب والكراهية امتزجا داخلها بشكل خانق، زادته رائحة المطهر التي تميز المستشفيات.

شعور استغرقها ولم يخرجها منه سوى حركة (طارق) على ذراعها، والتي جعلتها تجفل للحظة تأملت فيها وجهه الذي عشقت ملامحه يومًا قبل أن تهمس كالمغيبة ـ"استودعتكما الله الذي لا تضيع ودائعه."

***

ما أن غاب (طارق) داخل صالة العمليات ذات الباب المتأرجح حتى شعرت بالأرض تميد من تحتها فاستندت إلى الحائط في ضعف وأسبلت جفنيها لكبت دموعها التي تهدد بالنزول عند أول كلمة تسمعها أو تنبس بها..

تناهى إلى مسامعها في تلك اللحظة صوت خطوات أنثوية تقترب منها وتتجاوزها لتقف أمامها وتحجب عنها الباب الذي غاب خلفه (طارق)

قبل قليل.
فتحت عينيها في بطء لتجد أمامها شقراء فاتنة في أواخر العشـرينات من عمرها ترتدي معطفًا أبيض وتبتسم في وجهها قائلة بهدوء ـ"لا بد وأنـك مدام(هالة)، أنا(سمر)."
لم تكن بحاجة لأن تعرفها (سمر) بنفسها.
صحيح هي أجمل مما توقعت، لكن ملامحها لا تزال كما هي
فهي تحفظ تلك الملامح جيدًا منذ رأتها بصور زواجها من (طـارق) قبـل نحو عام
الزواج الذي ظنته انتهى ولم يعد له بقايا
لكنها فوجئت اليوم بأنها كانت واهمة، وأنه لم ينته كما ظنت.
وأكثر ما أثارها هو أنها آخر من يعلم
وكأنها لا قيمة لها في حياته
لا كزوجة، ولا حتى كصديقة كما اعتادت أن تكون
ولم تكن بحاجة إلى انتظار المزيد،
فقبل أن تنبس (سمر) بحرف أو حتى تسـتمع لمواسـاتها الرقيقـة كانـت معدتها المضطربة قد أعلنـت التمـرد وهـي تنقـبض في عنـف وتقفـز إلى حلقها فوضعت كفها على فمها في سرعة وهي تقـاوم مشـاعر الامتعـاض بداخلها، وأدركت(سـمر) مـا بهـا فصـحبتها إلى حـمام السـيدات وتركتهـا تفرغ معدتها في عصبية.
وبعد أن غسلت وجهها بالماء البارد خرجت لتجد(سمر) بانتظارها وعـلى شفتيها ابتسامة هادئة وهي تقول ـ"لا تخافي، ابنك معه اثنان من أفضـل جراحينا، والحالة ليست خطيرة كما تتخيلين. تعـالي معـي إلى الاسـتراحة، يبدو أن أعصابك متوترة."
أومأت برأسها في إنهاك قبل أن تضع كفهـا عـلى معـدتها وكأنهـا تهـدئها قائلة ـ"معدتي هي الأخرى متوترة بسبب خوفي عليه، ولذلك أتقيـأ كثـيرًا رغم أنها فارغة من الأساس."
صحبتها(سمر) إلى استراحة قريبة وأجلسـتها قبـل أن تجلـس إلى جوارهـا

قائلة بود ـ"كنت أتمنى أن نتعارف في ظروف أفضل من هذه، ولكنها إرادة الله أن نتقارب الآن، وأشعر أننا سنصبح صديقتين؛ من كلام(طارق) عنك أشعر أنني أعرفك منذ زمن."
منحتها ابتسامة منهكة وهي تقول ـ"أنا الأخرى كنت أريد التعرف إليك عن قرب لأعرف من استطاعت سرقة قلب (طارق)."
اتسعت عينا (سمر) في دهشة من تعبير (هالة) ووصفها بأنها سرقت قلب (طارق) لكنها تغاضت عن ذلك وتنحنحت في حرج وهي تخلل شعرها بأصابعها الرشيقة قبل أن تقول ـ"لماذا أشعر أن خبر عودتي لـ(طارق) كان مفاجئًا لك؟"
أجابتها ببساطة قائلة ـ"لأنه كذلك بالفعل."
حاولت (سمر) تبرير عودتهما بارتباك قائلة ـ" ل..لقد جاءت عودتنا بشكل غير متوقع منذ أسبوع واحد فقط."
قفز إلى عيني(هالة) مشهد(طارق) وتوتره في الفترة الماضية وشروده الطويل حتى وهي إلى جواره،
كان يتحجج بضغوط العمل ووجود مؤتمر في الفترة القادمة قد يدفعه إلى الغياب عن البيت لفترة
وتذكرته وهو يعتذر لها بعد عيد الأضحى مباشرة للغياب لثلاثة أيام مقبلة واضطراره للسفر إلى هذا المؤتمر في الإسكندرية.
اعتراها لحظتها شعور غريب بالمهانة.
إذًا فقد كذب عليها بشأن عودة(سمر) إلى عصمته،
كان معها يستعيدان ذكريات زواجهما ولم يخبرها بذلك
وكأنها لا تعنيه بشيء
ولكن لماذا؟!
أسلمها التفكير إلى حالة من القيء ثانية فهرعت إلى الحمام و(سمر) حائرة لا تدري ماذا تفعل.
وعندما عادت أخيراَ وهي تترنح من الإنهاك ابتدرتها(سمر) قائلة باهتمام ـ"سيلتهب حلقك هكذا، سأحضر لك شرابًا دافئًا ليهدئ معدتك."

أشارت بكفها قائلة ـ"كلا، لا داعي لذلك."
أصرت(سمر)على دعوتها قائلة ـ"لا مجال للرفض، سأحضر لك شايًا. هل تشربينه بالسكر أم دايت؟"
أجابتها بتهالك قائلة ـ"سكر خفيف."
وعندما عادت(سمر) بالشاي سألت (هالة) باهتمام ـ"ولكن أين(هاني) و(هند)؟ لقد أخبرني(طارق) أن والدتك مسافرة للحج، فأين تركتهما؟"
تنهدت(هالة) في عمق قبل أن تجيبها قائلة ـ"عند جارتي، عندما علمت بمرض(هيثم) طلبت مني أن أترك الصغيرين عندها مع أبنائها."
ارتشفت(سمر) قليلًا من كوبها وهي تحاول التغلب على دقات قلبها المتسارعة في مواجهة ضرتها قبل أن تقول بهدوء ـ"لقد طلبت من(طارق) أكثر من مرة أن يقدمني إليكم على أنني زميلته بالمستشفى فقط لكنه كان يخشى أن يستنبط أي من الولدين حقيقة علاقتي به. ولا أخفي عليك، فقد شعرت بأن زوج أمي خطفها مني مثلما اختطف الموت أبي وتوقعت أن يشعر أبناؤك تجاهي بنفس المشاعر لو أدركوا أنني زوجة عمهم."
أومأت(هالة) برأسها في صمت وهي تنظر في ساعة يدها بقلق ثم قالت بتوتر ـ"هل تأخروا بالداخل أم يهيأ لي فقط؟"
ربتت(سمر) على كتفها بتعاطف قائلة ـ"المفروض أن يكونوا في مرحلة خياطة الجرح الآن، لا تقلقي. ريثما تنتهين من شرابك سيكون(هيثم) في غرفته بإذن الله."
ارتشفت قليلًا من الشاي الدافئ الذي انساب عبر حلقها إلى معدتها الخاوية وكأنه يكوي كل مكان يمر به، ثم ما لبثت أن سألت شريكتها في زوجها قائلة ـ"هل سيحقن(هيثم) بمخدر كلي؟"
ابتسمت(سمر) قائلة ـ"كلا.لا بد وأن تكون المعدة فارغة لمدة لا تقل عن ١٢ساعة قبل الحقن بالمخدر الكلي، أما في حالات الجراحة المفاجئة كالزائدة الدودية والولادة القيصرية يكون التخدير نصفيًا و..."
وانطلقت(سمر) تشرح لـ(هالة) مزايا المخدر الكلي والنصفي وكأنها

تشرح لطلبة كلية الطب، والأخيرة غائبة بعقلها بعيـدًا، والغليـان يتزايـد بداخلها؛
ترى ماذا قال عنها أيضًا لزوجته الحبِيبة؟
هل أخبرها أن زواجهما أصبح حقيقيًا؟
وهل أخبرها أنه سيصبح أبًا لطفل من زوجته الأخرى؟
وفي عقلها أضاء مصباح قوي أنار لها ما لم يكن واضحًا من قبل؛
فالأمر كله لم يتعد كونه مجرد تمثيلية سخيفة صدقتها كالبلهاء،
فيخبرها (طارق) بأنه طلق(سمر) حتى يستدر عطفها، ويصــر عـلى أنـه أخطأ حين تزوجها تاركًا زوجته الأولى بحثًا عن سراب،
وحين يتحقق حلمه وتحمل(هالة) يعود هو إلى حبيبتـه ليسـتمتع بحبـه وبحياته التي يريدها لنفسه.
ولكن ماذا عنها هي؟
وماذا عن هذا الجنين الذي تحمله بين أحشائها؟
هل تنازلت عن كرامتها وقبلت بـه زوجًـا وحملـت طفلـه بـين أحشـائها لينتهي بها الأمر مجرد زوجة ثانية؟
مجرد ضرة؟
وليتها ضرة عادية،
إنها ضرة سعت لتزويج زوجها في البداية،
واليوم يرد لها الجميل باستغفالها واستغلالها لينجب منهـا الطفـل الـذي عجزت حبيبته عن إنجابه.
ألهذه الدرجة وجدها تافهة ورخيصة حتى أنها هرعت إلى أحضانه بمجرد أن أشار لها بإصبعه؟
تزايد بداخلها الشعور بغبائها ووقوعها ضحية خطة محكمة اسـتغل بهـا براءتها وسذاجتها وطيبة قلبها.
وللحظة كرهت نفسها وقلبها وحتى جنينها الذي كانـت سـعيدة بحملـه حتى هذا الصباح.
جنينها الذي تسبب لها في هذا الذل حتى قبل أن يولد.

ولولا إيمانها بالله لفعلت أي حركة مجنونة للتخلص من هذا الحمل كيلا يكون سبباً في ذلها.
أما قلبها، فهي قادرة ومستعدة لأن تطأه بقدميها وتسحقه انتقاماً منه لأنه وضعها في هذا الوضع.
ومع تصاعد الغليان في رأسها وهي تتذكر سعادة(طارق) بحملها، قفزت معدتها إلى فمها ثانية فهرعت إلى الحمام في اللحظة ذاتها التي خرج فيها(هيثم) من غرفة العمليات بصحبة عمه ونُقل إلى غرفة نظيفة بنفس الممر وهو بين النوم واليقظة.

***

دخلت الغرفة خلف (طارق) الذي كان لا يزال يرتدي ملابس العمليات الخضراء وعيناها معلقة بوجه (هيثم) الشاحب الذي تراه لأول مرة، ثم همست لزوجها باهتمام ـ"كيف كانت الجراحة؟"
أجابها بنفس الهمس وهو يعدل من وضع الغطاء على ابن شقيقه قائلًا ـ"الحمد لله..كان واعياً بالداخل ولكنه تحت تأثير المسكن الآن."
اقتربت من الفراش بحذر وهي لا تزال تتأمل الصغير قبل أن ترفع عينيها إلى (طارق) قائلة بابتسامة خفيفة ـ"ألم تقل أن أحدهما يشبهك؟ (هيثم) لا يشبهك البتة."
تلفت (طارق) حوله بحثًا عن (هالة) وهو يقول في سرعة ـ"أنت قلتها..أحدهما. غالباً يأتي الطفل الأكبر أشبه بوالده، مثلما كان (حازم) رحمه الله أشبه بوالدي. (هاني) هو شبيهي، لكنه ورث عناد أبيه."
ثم سألها في قلق ـ"أين(هالة)؟"
أجابته وهي تداعب شعر (هيثم) الأسود الناعم في حنان قائلة ـ"في الحمام؛ المسكينة مصابة بحالة قيء هستيري من فرط خوفها على ابنها."
ثم أردفت وهي تواجهه بعينيها قائلة ـ"لقد كنت على وشك إعطاؤها مضاد للقيء و..."
قاطعها زوجها في حدة قائلًا ـ"كلا، من الممكن أن يؤذي الج..."
قطع عبارته فجأة حين أدرك أنه قال أكثر مما ينبغي، خاصة حينما لمح

انعقاد حاجبيها وشحوب وجهها وهي تسحب أصابعها سريعًا من شعر (هيثم).
وفي نفس اللحظة دلفت (هالة) إلى الغرفة واتجهت من فورها إلى صغيرها تتفحصه والدموع تطفر من عينيها.
لم يخف عن عيني (طارق) النظرة العدائية التي رمقت بها (سمر) ضرتها وكأنها لبؤة شرسة تختلف تمامًا عن الرقيقة التي كانت تمسد شعر الصغير في حنان قبل قليل.
وفي صمت نقلت (سمر) بصرها بين بطن(هالة) ووجه(طارق) في عصبية قبل أن تترك الغرفة في حنق واضح.
إلا أن (طارق) لم يعرها انتباهًا وهو يقترب من (هالة) ويهمس لها بحب ـ"حبيبتي..إنه بخير والحمد لله. لا داعي لدموعك الآن."
مسحت دموعها بأصابع مرتبكة وهي تسأله بصوت مختنق ـ"لماذا لا يجيبني إذًا؟"
مد يده ليربت على كتفها في تعاطف قائلًا ـ"لقد كان واعيًا معي بالداخل أثناء الجراحة بالمخدر النصفي، لكنه الآن تحت تأثير مسكن قوي لأنه لن يحتمل الألم."
أبعدت كفه عنها في ضيق وهي تقول ـ"من فضلك ابتعد عني."
تجاهل ضيقها وهو يتحسس وجنتها بكفه قائلًا بتوتر ـ"(هالة) ماذا أصابك؟ نظراتك وكلماتك وأسلوبك معي متغير منذ الصباح. ماذا حدث؟"
رمقته بنظرة حادة شعر فيها بكراهية غريبة استنكر أن تصدر عنها وهي تبعد يده عنها في حدة وتقول من بين أسنانها ـ"قلت لك ابتعد..نحن في مكان عام."
زفر في ضيق واستغفر ربه بصوت خفيض قبل أن يرجوها قائلًا ـ"حسنًا سأبتعد..ولكن أرجوك اجلسي وأريحي ظهرك...فهو لن يستيقظ الآن."
انحنت تقبل جبهة صغيرها بعد أن مسحت بكفها حبات العرق التي تغرق جبينه قائلة بلهجة غريبة ـ"أخبرتك من قبل أن حبي للقادم لن

يكون أكثر من حبي لابني البكر."
هم بمجادلتها ثانية حينما سمع طرقًا خفيضًا على باب الغرفة أعقبه صوت صديقه (سامي) وهو يقول بلباقة ـ"حمدًا لله على سلامة (هيثم) يا سيدتي."
رفعت عينيها إليه قبل أن تقول بامتنان ـ"أشكرك يا دكتور على عنايتك بابني."
قلب (سامي) كفيه وهو لا يزال عند باب الغرفة وقال ـ"أنا لم أفعل سوى واجبي..والدكتور (طارق) هو من أجرى الجراحة."
لاح شبح ابتسامة منهكة على شفتيها وهي تقول ـ"هذا لا ينفي أنك تستحق الشكر."
شعر بالغيظ وهو يراها تتجاهله تمامًا أمام زميله، ولكن (سامي) لم يمنحه الفرصة للإعراب عن هذا الضيق وهو يقول له في سرعة ـ"دكتور (طارق)..أريدك في مكتبك الآن من فضلك."
أخرج غيظه في غطاء الرأس المعقم الذي يحيط بشعره الكثيف، فنزعه في عنف وهو يستدير إلى زوجته ثانية ويهمس لها ـ"سأكون بمكتبي في الجهة الثانية من نفس الطابق. إذا احتجت شيئًا اطلبيني، وسأحاول العودة سريعًا."
أشاحت بوجهها بعيدًا عنه ولسان حالها يقول 'لن أحتاجك بإذن الله'، لكنها لم تنبس بحرف وتركته يخرج من الغرفة مع زميله في حنق ويغلق الباب خلفه.
حينها فقط تهاوت جالسة على اقرب مقعد لتعلن انهيارها تمامًا بعد يوم من الضغط العصبي القاسي الذي لم تتوقعه يومًا.

*****

(٢٩)

فتح باب غرفة مكتبه في عصبية واضحة لم تخف على عيني صديقه، وخطا إليه قبل صديقه قائلًا بضيق ـ"ماذا تريد يا (سامي)؟"

جلس (سامي) أمامه عبر المكتب البسيط قبل أن يسأله بمكر واضح ـ"ماذا بها (سمر)؟"

سأله في حيرة ـ"ماذا بها؟ ما الذي يدفعك إلى هذا السؤال؟"

هز (سامي) كتفيه وهو يقول ببساطة متعمدة ـ"أبدًا...لقد لمحتها تخرج مسرعة من غرفة ابن أخيك، وأعتقد أنها كانت تكبت دموعها. فقد كانت عيناها حمراوين."

عقد حاجبيه للحظات قبل أن يقول بلا مبالاة ـ"ربما ضايقتها العدسات اللاصقة. أحيانًا تُلهب عينيها وتدفعها إلى التعامل بعصبية."

رفع (سامي) حاجبيه في دهشة مصطنعة قائلًا ـ"العدسات اللاصقة؟ عجبا. إنها طبيبة عيون."

تأمله للحظات وهو يدرك في قرارة نفسه أن صديقه يرمي إلى شيء آخر، لكنه اكتفى بتبادل نظرات صامتة قطعها (سامي) بقوله ـ"لماذا لا يكون سبب عصبيتها مشهدًا رأته ولم يرقها؟"

حاول التزام الهدوء وهو يسأله ببرود ـ"أي مشهد تقصد؟"

باغته صديقه بسؤال سريع ـ"هل تسمح بتفسير علاقتك بأرملة أخيك؟ حينما دخلت الغرفة وجدتك قريب منها بشكل غير لائق، وأسلوبك الهامس معها أيضًا. أتريد من زوجتك أن تراك هكذا مع غيرها وتسكت؟"

عاد إلى نظراته الباردة وهو ينتظر من صديقه إنهاء لائحة الاتهامات ضده، و(سامي) يتابع في حنق ـ"ماذا حدث يا (طارق)؟ كيف تتغير أخلاقك هكذا؟ كيف تتحرش بمن حملت يومًا اسم شقيقك وتربي أبنائه الأيتام الآن؟"

لاحت ابتسامة جانبية ساخرة على وجهه وهو يسأل صديقه في تهكم ـ"هل أنهيت قائمة الاتهامات؟"

فتح (سامي) فمه ليرد على صديقه الذي تـابع بـنفس اللهجـة التهكميـة ـ"هل تصورت أن صديق عمرك الذي نشأ معك ولم يفترق عنك لأكثر من ثلاثين عامًا قادر على التحرش بأنثى أيًا كانت؟"

حاول (سامي) تبرير موقفه لولا أن رفع (طارق) كفه ليشير لـه بالصـمت ليكمل هو قائلًا بهدوء لا يشي بالقنبلـة التـي سـيلقيها في وجـه صـديقه ـ"السيدة التي تتهمني بالتحرش بها هي زوجتي يا (سامي)."

اتسعت عينا (سامي) وفغر فاه بشكل مضحك وهو يحدق بوجه صديقه الذي ألقى قنبلته غير المتوقعة ووقف يشاهد رد فعله ببرود.

وبصوت متحشرج من أثر الصدمة التي لم يستوعبها بعـد قـال (سـامي) ـ"زوجتك؟ هل تزوجت على (سمر) بهذه السرعة؟"

فرك (طارق) عينيه في إرهاق وهو يجيبه بنفس الهدوء القاتل ـ"(هالة) زوجتي الأولى، و(سمر) كانت تعلم ذلك."

بدا أن الصدمات المتتالية على أسماع (سامي) في هـذه الـدقائق العشـر أكبر من استيعابه، فهز رأسه كمن يتأكد أنه لا يحلم وهو يقـول كالتائـه ـ"(هالة) زوجتك قبل (سمر) وأنا آخر من يعلم؟ والمفترض أنني صديقك الوحيد؟"

ثم تابع في سرعة كمن تذكر شيئًا ـ"ما دامـت (سـمر) تـدرك أن (هالـة) زوجتك، فلماذا خرجت من الغرفة بهذا الشكل وكأنهـا لا تحتمـل البقـاء أكثر من ذلك؟"

خلل شعره الغزير بأصابعه قبل أن يسند جبهته على راحتيه قائلًا ـ"لأنك يا صديقي الوحيد السبب في كل ما أنا فيه من مشاكل الآن."

أشار (سامي) إلى نفسه وهتف مستنكرًا ـ"أنا؟ وكيف ذلك؟"

رفع وجهه لتلتقي عيناه بعيني صديقه وهو يقول بجدية ـ"ألم تكن أنت وزوجتك سببًا في عودة (سمر) إلى عصمتي؟"

دافع (سامي) عن نفسه بقوله ـ"لقد فعلتها من أجلـك. حيـنما أخبرتنـي (ضحى) بوضع (سمر) وقت الطلاق لم أستطع السكوت عن الحق."

***

شرد بذهنه بعيدًا إلى ذلك اليوم قبل نحو أسبوعين، حينما دعاه (سامي) إلى المقهى الذي اعتادا الجلوس عليه على ضفاف نهر النيل، وابتدره بسؤال بدا عاديًا لا يحمل في طياته أي مضمون خفي -"ماذا تنوي بعد انتهاء عدة (سمر)؟ "
ارتشف قليلًا من شرابه الساخن وهز كتفيه قائلًا -"لا شيء..سأمنحها كل منقولاتها في الشقة وباقي حقوقها لدي..صحيح هي التي طلبت الطلاق ولكنني لن أظلمها."
تظاهر (سامي) باللعب في فنجان الشاي أمامه وهو يسأله بهدوء -"هل تعلم ما هو الطلاق البدعي؟"
عقد حاجبيه وهو يجيبه -"بدعي؟ لأول مرة أسمع بهذا المصطلح."
تنهد (سامي) في عمق وهو يواجهه ويحاول أن يشرح المفهوم ببساطة قائلًا -"الأساس في الطلاق هو أن يتم في طهر لم يُجامع فيه الزوج زوجته. أما إذا كانت الزوجة حائضًا أو حدث اتصال بين الزوجين قبل الطلاق مباشرة يصبح الطلاق بدعيًا...أي أنه لا يلتزم بالشروط الشرعية، وهناك اختلاف بين الفقهاء حول مدى صحته، فبعضهم يقول إنه يُحسب طلقة بينما يقول الآخرون إنه لا يُعتد به."
حاول استيعاب المعلومة قبل أن يهز رأسه متسائلًا -"بغض النظر عن هذه المعلومة التي اسمعها للمرة الأولى...ما علاقتها بي؟"
تنحنح (سامي) في حرج وخفض وجهه أرضًا وهو يجيبه -"(سمر) كانت حائضًا وقت طلاقكما...هي أخبرت (ضحى) بذلك عرضًا ولم تكن تعلم بموضوع الطلاق البدعي..كانت تتساءل عن كيفية حساب العدة وأخبرت (ضحى) في سياق الحديث أنها كانت حائضًا وهذا سبب عصبيتها معك وقتها."
هب واقفًا متناسيًا وجوده في مكان عام وهو يهتف بعصبية -"ماذا تعني؟ أتعني أنها لا زالت زوجتي؟"
جذبه (سامي) من كم سترته ليجلس وهو يتلفت حوله قائلًا بحرج -"اجلس ولا تفضحنا...قلت لك إن هناك خلاف فقهي حوله. اتصل أنت

بـ (سمر) وخذها إلى دار الإفتاء حتى تتأكد من موقفكما."
وضع رأسه بين كفيه وهو يقول بذهول ـ"يا إلهي...كيـف يحـدث هـذا؟ لقد أوشكت العدة عـلى الانتهـاء وظننـت أننـي طويـت هـذه الصـفحة للأبد."
عقد (سامي) حاجبيه وهو يسأله مستنكرًا ـ"طويت الصفحة للأبد؟ ألهذا الحد صرت لا تطيقها؟ أين ذهب حبكما يا (طارق)؟"
رفع وجهه إلى صديقه واكتسى صوته بنبرة قاسية وهو يجيبه ـ"حبنا؟ لقد باعـت (سـمر) هـذا الحـب بكـل بسـاطة وكأنـه لم يكـن..لم تأبـه لي ولا لتمسكي بها وإصراري عـلى اسـتمرار حياتنـا دون أطفـال...حبيبتي التـي تتحدث عنها أهانتني أمام الجميع لتجبرني على طلاقها. أهذه مـن تريـد مني العودة إليها؟"
حاول (سامي) الدفاع عن (سمر) بقوله ـ"أنت تعلم كيف كانت جريحـة باكتشاف أمر عقمها وكيف كانت ترفض الحياة معك بدافع من الشـفقة عليها. أنت أدرى بكبريائها وأسلوب تفكيرهـا، أضـف إلى ذلـك التغـيرات الهرمونية التي...."
هتـف بـه مقاطعًـا ـ"لا يوجـد مـا يـبرر إهانتهـا لي أمـام الجميـع...أين احترامها لي؟"
تابع (سامي) وكأنه لم يسمع اعتراض صديقه ـ"وربما كانـت هـذه إشـارة إلهية بأنه لم يحن وقت فراقكما بعد، ولا يعلم الحكمة مما حـدث لكـما سوى الله سبحانه وتعالى."
رمقه بنظرة نارية قبل أن يُخرج هاتفه في سرعة فيتأكد مـن الوقـت أولًا ثم يطلب رقم (سمر) المسجل عنده، لكنه فوجئ برسالة مسجلة تخـبره بأن الرقم لم يعد موجودًا بالخدمة.
زادت هذه الرسالة من غيظه فالتفت إلى صديقه وسأله من بين أسـنانه ـ"هل غيرت (سمر) رقم جوالها؟"
قلب (سامي) كفيه قائلًا في حيرة ـ"لا أدري...لحظة سأتأكد من (ضحى)."
وبالفعل اتصل بزوجته وطلب منها الرقم الذي أمـلاه ل (طـارق). وقبـل

أن يُنهي (سامي) مكالمته مع زوجته كان (طارق) ينهض بعيدًا وهو يقول بصوت حاول أن يحافظ على هدوئه ـ"ألو...(سمر)؟ أنا (طارق)."
أتاه صوتها مرتبكًا على الطرف الآخر وهي تسأله بحرج ـ"كيف عرفت رقمي؟"
أجابها بحنق ـ"سؤال لا داعي له..المهم الآن هل ما سمعته من (سامي) صحيح؟ هل كنت حائضًا يوم طلاقنا؟"
شعر بنبرة خجل تغلف صوتها وهي تجيبه بصوت خفيض ـ"أجل صحيح..أتذكر يوم حصلنا على نتيجة التحاليل والأشعة؟ يومها اعتذرت لك بعد عودتنا من العشاء بسبب عذري الشرعي..هل تذكرت؟"
عقد حاجبيه محاولًا التذكر ثم ما لبث أن قال في ضيق ـ"تذكرت..ولكن الطلاق الفعلي حدث بعد ذلك بخمسة أيام."
ازداد الخجل في صوتها وهي تغمغم ـ"ماذا بك يا (طارق)؟ مدة الحيض أسبوع في الغالب."
شعر باختناق شديد بعد عبارتها فزفر في قوة واستغفر ربه قبل أن يقول في سرعة ـ"استعدي..سنذهب إلى دار الإفتاء الآن. أين أنت لأمُرك؟"
سألته في دهشة ـ"الآن؟ حسنًا أنا مستعدة لأنني عدت لتوي من العمل. أنتظرك في بيت أمي."
أنهى الاتصال معها وعاد إلى صديقه الذي كان يراقبه بصمت ويراقب ردود أفعاله العصبية، فابتدره بقوله ـ"آسف على انفعالي يا (سامي)..سأمر على منزل أهل (سمر) وأصطحبها إلى دار الإفتاء الآن. لن يهدأ لي بال حتى أنتهي من هذا المأزق، ف...".

خرج من ذكرياته على صوت (سامي) وهو يحرك كفه أمام عينيه قائلًا ـ"أين ذهبت؟"
هز (طارق) رأسه وأشاح بكفه قائلًا ـ"لا عليك...هل قلت شيئًا؟"
مط (سامي) شفتيه للحظات ثم سأله ـ"لماذا لم تخبرني بزواجك من

(هالة)؟ بل ولماذا أخفيته عني حينما أخبرتك عن (سمر) وموضوع الطلاق البدعي؟"
تنهد وأجابه بضيق ـ"لم أخبرك في البداية بناء على طلب (سمر)..لم يكن زواجي معلنًا سوى أمام والدي ووالدة (هالة) وسكان العمارة التي نعيش بها؟ وبالطبع كان زواجنا معروفًا لدى أقاربنا في القرية عملًا بالتقاليد التي تعرفها. وقد سعت (هالة) إلى رد الجميل بمساعدتي في الزواج من (سمر) وإقناع أبي بهذه الزيجة."
ثم تابع وهو يخلل شعره بأصابعه كعادته ـ"ولم تصبح (هالة) زوجتي فعلياَ إلا بعد طلاق (سمر) بأكثر من شهر. بالطبع لم أخبر (سمر) بذلك، كما لم أخبر (هالة) بعودة (سمر)."
قالها ورفع عينيه إلى صديقه ثانية وهو يسأله ـ"أعلمت الآن لماذا كانت (سمر) عصبية؟ لأنها علمت مني بأن (هالة) حامل في طفلي، ولا أستبعد أن يكون سبب ضيق (هالة) مني ومعاملتها الجافة معي هو معرفتها بشكل ما أن (سمر) عادت إلى منزلي."
ازداد اتساع عينا (سامي) وهو يهتف بصديقه ـ"حامل؟ تزوجت وزوجتك حامل وكل هذا وصديقك الوحيد لا يعلم شيئًا؟ إنك تربكني بكل هذه المفاجآت."
تابع أسئلته وكأنه لم يسمع كلمات (سامي) ـ"أعلمت الآن لماذا أعتبرك سبب المشاكل؟ لأنك السبب في عودة (سمر) وبالتالي غضب (هالة)."
هب (سامي) من مقعده وهتف به مستنكراَ ـ"أنا السبب ثانية؟ لماذا لم تصارح أنت (هالة) بما حدث؟ أي زوجة في موقفها ستسيء فهمك وربما اتهمتك بالخيانة وأنك مثلت عليها حتى تحمل طفلك قبل أن تُعيد زوجتك الأولى إلى عصمتك وكأن شيئًا لم يكن."
تراجع في مقعده وشبك كفيه خلف رأسه وهو يقول بقلق ـ"هذا ما أخشاه بالفعل...لقد كانت تتحدث بلهجة مختلفة عما اعتادت مخاطبتي به من قبل...بل إنها قالت لي مرتين إن محبتها لطفلنا القادم لن تكون قدر محبتها لابنها البكر. أتدري ما يعنيه هذا؟ إنها تخبرني بطريق غير

مباشر أنها لا تريدني ولا تريد طفلنا. طفلنا الذي كانت تتحدث عنه بكل هيام حتى الأمس وكأنه أول طفل لها."
هم (سامي) بالرد عليه حينما سمع كلاهما طرقات سريعة على باب الغرفة أعقبها ظهور ممرضة شابة مرتبكة تحدثت إلى (طارق) في سرعة قائلة ـ"دكتور (طارق)..السيدة التي أجريت لطفلها الجراحة قبل قليل فقدت الوعي."

***

هب من مقعده كالملسوع وهو يهتف بذعر ـ"ماذا؟ كيف ذلك؟"
قالها وهو يهرع إلى خارج الغرفة مع صديقه ويستمع إلى الممرضة التي تجري إلى جواره قائلة بأنفاس متقطعة ـ"ل..لقد ذهبت لأطمئن على الصغير كما طلبت مني ووجدتها ملقاة على أرضية الغرفة فاقدة الوعي، فنقلتها أنا والممرضة (فاتن) إلى الفراش المجاور لطفلها وأتيت لأخبرك."
كان (طارق) قد وصل إلى الغرفة حينها، فعبر بابها المفتوح في سرعة وعيناه معلقتان بوجه (هالة) الشاحب والممرضة تحاول إفاقتها فهتف بها ـ"جهاز الضغط بسرعة."
ناولته الممرضة جهاز الضغط في سرعة وقد أدهشتها لهفته وعصبيته التي لم ترها من قبل.
أما هو فكشف ذراعها وأحكم جهاز الضغط حوله بأعصاب مفككة ووضع السماعة الطبية في أذنيه وهو يحاول سماع نبضها. لكن صوت نبضات قلبه المتسارعة كان أعلى من نبضها، فنزع السماعة عن أذنيه في توتر وناولها لصديقه قائلًا ـ"لا أستطيع سماع نبضها...قس أنت الضغط يا (سامي)."
تناول (سامي) السماعة في هدوء وقد هاله مرأى صديقه بهذه الدرجة من التوتر وهو المعروف بهدوئه واتزانه، وحاول تهدئته قائلًا برفق ـ"لا عليك يا دكتور (طارق)...أنت منهك منذ الصباح."
قالها وعيناه تشيران إلى وجود ممرضات بالغرفة وضرورة تمالك أعصابه حتى لا يثير القيل والقال.

أدرك مغـزى نظـرات صـديقه فحـاول تمالـك أعصـابه والتظـاهر بفحـص (هيثم) ريثما أنهى (سامي) قياس الضغط مرة، ثم مرة أخـرى، ثـم مـرة ثالثة، وفي كل مرة يزداد القلق بداخله.
وفي قلق التفت إلى (طارق) قائلًا ـ"ضغط دمها مرتفع بشكل خطـر عـلى حياتها...ضغطها ١٧٠ على ١٢٠..ما الحل؟"
شعر لحظتها بتبخر كل المعلومات الطبيـة التـي درسـها طيلـة السـنوات الماضية، فأزاح شـعره إلى الخلـف قـائلًا بتـوتر لم يسـتطع إخفـاؤه ـ" لا أدري...لا يمكننا إعطاؤها محلول ملحي، ولا....".
ثم التفت إلى الممرضات وهتف بهما ـ"من طبيبـة النسـاء اليـوم؟ أريـد طبيبة الآن."
ولم تكد الممرضتان تخرجـان حتـى رفـع وجهـه وكفيـه إلى السـماء قـائلًا بتضرع ـ"نجها يا الهي..فلا معنى لحياتي بدونها."

وكان صادقًا في تضرعه.

*****

(٣٠)

تظاهر (هيثم) بمتابعة قنوات التلفاز في غرفته بالمستشفى، بينما كـان في الحقيقة يراقب أمه التي أمسكت بالمصحف الشـريف بين كفيهـا وكأنهـا تقرأ منه، لكنه كان متأكدًا أنها شاردة في وادٍ مختلف تمامًا. فهي لم تغـير الصفحة التي تقف عليها منـذ أكـثر مـن ربـع السـاعة، بـل ولا يبـدو أن عينيها تنظران إلى الصفحة أمامها، وإنما إلى مكان آخر.

وفي رصانة تفوق عمره سألها ـ"أماه..ماذا بك؟"

رفعت إليه عينين ساهمتين وهي تسأله في حـيرة ـ"هل طلبـت شـيئًا يـا حبيبي؟"

ابتسم في هدوء ذكرها بوالده وهو يقول بذكاء ـ"كنت أسـألك عـما بـك. تبدين شاردة بعيدًا عن هنا، رغم أنني بخير."

منحته ابتسامة منهكة وهي تنهض لتحكم الغطـاء عـلى جسـده الصـغير وتداعب شعره الأسود قائلة ـ"لن أشعر بالراحة وأتخلص من قلقي قبـل أن أراك تنير غرفتك في منزلنا."

تناول كفها الأيمن يقبله في حنان قائلًا بصدق ـ"أحبك يا أمي."

احتضنت رأسه بحنان وقبلت شعره قائلة بصـوت مختنـق ـ"أنا الأخـرى أحبك..أنت أول فرحة في حياتي. أول من ناداني أمي، وأول مصادر بهجتي وفخري. حفظك الله لي أنت وأخوتك."

لف ذراعيه النحيلين حول وسطها وهو يغوص بأحضانها أكثر ويستشـعر دفئها الذي يعشقه حينما قطع عليهم اللحظة صوت طرقات سريعة على باب الغرفة أعقبه دخول (طارق) الغرفة وهو يقـول بمـرح مفتعـل ـ"ما هذا؟ تعانق زوجتي أمامي؟ أنا أحتج."

رمقته (هالة) بنظرة عدائية وشددت من احتضان ابنها وهي تقول ببرود ـ"أنا أمه قبل أن أكون زوجتك."

شعر (طارق) بالحرج من كلماتهـا البـاردة، فـاقترب مـن الفـراش موجهًـا حديثه إلى ابن شقيقه ـ"سامحتك هذه المرة لأنك في فترة النقاهة..عامـة ستنتهي نقاهتك قريبًا. هيا استعد لأننا سنعود إلى بيتنا الآن."

التفتت إليه بحركة حـادة قبـل أن تحـاول أن تبـدو هادئـة وهـي تقـول ـ"الممرضة أخبرتني قبل قليل أننا سنمكث يومين آخرين."
أدار عينيه يواجهها، والتقت أعينهما للحظـات قليلـة لم يسـتطع خلالهـا سبر أغوار زوجته التي تظاهرت باللعب في شـعر ابنهـا، فتنهـد في عمـق قبل أن يقول ـ"لا داعي للبقاء في المستشـفى..لقد قبلـوا طلبـي للأجـازة طيلة الأسبوع القادم وسأتابع علاجه من المنزل طالما ترفضين البقـاء مـع الصغار هنا ك. لا يُعقل أن نترك أبنائنا لدى الجيران أكثر مـن ذلـك. ومـع رفضك المستمر للراحة أو تناول الغـذاء الصـحي فالحـل الأفضـل هـو أن نعود جميعًا إلى منزلنا."
لم تجادله لعلمها بأنه على حق.
فقد أجبرها في اليوم السابق على العودة إلى المنزل لرعاية الصغار بعـدما أفاقت واطمأنت على حالة (هيثم)..
واليوم تركت الصغيرين لدى جارتها ثانية منذ الصباح حتى الآن
ربما كان الوضع سيختلف في وجود أمها ورعايتها للصغيرين
لكن الآن..
الحل الأفضل للجميع بالفعل هو العودة إلى المنزل
ولكن كيف تعود معه إلى نفس المنزل بعد ما فعل؟
كيف تطيق التواجد معه تحت نفس السقف؟
كيف تستطيع النظر في عينيه؟
كيف تتحمل أن تراه ولا تستطيع أن تدفن نفسها في أحضانه؟
وكيف تتحدث معه دون أن تفلت أعصابها أو يشعر أبنائها بتوترهما؟
كيف تحفظ لسانها وقت الغضب من أن تتهور وتهينه؟
كيف ترعى الله فيه رغم النيران التي تستعر في كيانهـا كلـه كلـما لمحـت طيفه؟
بل كيف تنظر إليه دون أن تبدو في عينيها نظرات الاحتقار؟
احتقار ضعفها واستسلامها لحبه
واحتقار غبائها الذي جعلها تصدقه في سذاجة

تصاعدت دماء الغضب في رأسها، كما يحدث معها كلما تذكرت الخديعة التي تعرضت لها، ودفعـت معـدتها إلى الانقبـاض في عنـف، فهرعـت إلى الحمام الملحق بالغرفة وهي تحاول منع نفسها مـن القـيء الـذي ألهـب حلقها وبلعومها من مرارة العصارة المعدية

وحينما خرجت كان أمامها (طارق) وعينـاه تحمـلان قلقًـا عارمًـا، لكنهـا تجاهلته وهي تتجه نحـو صـوان الملابـس لتفتحـه وتلـتقط منـه حقيبـة ملابس ابنها هامسة ـ"جهز سيارتك ريثما نستعد."

تأملها للحظات وبداخله حنين بالغ لها ولحركاتها وابتسـامتها بعيـدًا عـن برودها وجمودها معه، ثم ما لبث أن تنحنح ليمنح صوته بعـض القـوة وهو يقول ـ"السيارة بالقرب من الباب الرئيسي..هيا سأساعدكما."

تابعته بعينيها في صمت وهو يساعد (هيثم) في ارتـداء ملابسـه ويحمـل الحقيبة عنها، ثم غادروا المستشفى معًا.

***

لم تحـاول أن تتبـادل معـه الحـديث طيلـة رحلـتهم إلى المنـزل، واحـترم (طارق) ذلك، ربما تفاديًا لتوتيرهـا أكـثر مـن ذلـك أو أن يـدرك صـغيرها مدى التوتر بينهما.

ومـا أن أوقـف السـيارة أمـام بوابـة المنـزل حتـى ترجلـت (هالـة) منهـا وفتحـت لصـغيرها البـاب الخلفـي وسـاعدته في النـزول دون أن تنتظـر مساعدة (طارق) الذي تابعها بنظره صامتًا وهـو يفـتح حقيبـة السـيارة ويلتقط الحقائب منها ويتبعهما إلى داخل المبنى.

فتح(طارق) باب الشقة وأفسح لها ولولدها المجال للدخول، وفي صـمت صحبت هي ابنها إلى غرفته وساعدته في خلـع ملابسـه والاسـتلقاء عـلى الفراش، ثم خرجت بعدما أحكمت إغلاق باب الغرفة خلفها.

وفي طريقها للخارج ثانية لتحضر(هاني) و(هند) من شقة الجـيران وقـف أمامها وسألها في حيرة قائلًا ـ"(هالة)! ماذا بك؟ إنك لم تنظري في وجهـي منذ يوم جراحة (هيـثم)؛ إنـك حتـى لا تخـاطبيني بشـكل مبـاشر. مـاذا حدث؟"

رمقته بنظرة حادة وهي تسأله بحنق ـ"أتسأل عما بي؟ وماذا يهمك من أمري؟ آه نسيت. أنت قلق على ابنك وليس على الحاوية التي تحمله."
أمسكها من مرفقها قائلًا في دهشة ـ"ما هذا الذي تقولين؟ وما الداعي لقوله؟"
جذبت ذراعها من قبضته قائلة بخشونة ـ"الداعي هو أن رائحة الكذب والخيانة فاحت وزكمت أنفي ولم أعد أستطع تحملها أكثر من ذلك؛ لذا أطلب منك وبكل هدوء أن تطلقني."
عقد حاجبيه قائلًا ـ"ماذا تقولين؟ وماذا تعنين بالكذب والخيانة؟ لو أنك تقصدين عودة (سمر) إلى عصمتي، فأقسم لك أنني أعدتها قبل مرض (هيثم) بأسبوع واحد فقط بعد وساطة أصدقاء مشتركين. السؤال هو لماذا تصفين عودتها بالخيانة؟ أنسيت أنك كثيراَ ما طلبت مني إعادتها لعصمتي؟"
أشاحت بذراعيها في عصبية هاتفة ـ"أجل طلبته، ولكن هذا في الماضي...حينما كنت (هالة) أختك أو صديقتك. حينما رضيت بك زوجًا على ورق وكان همي إسعادك. وأنت طالما تحججت برفضها العودة وأخبرتني أنك نادم على كل يوم قضيته بعيدًا عني، ألم يكن ذلك كذبًا؟"
وتابعت بانهيار ـ"لماذا لم تخبرني بأنك ستعيدها؟ ولا تقل أنك نسيت أو أنك كنت في انتظار الوقت المناسب؛ لقد كذبت عليّ وادّعيت سفرك في مؤتمر بالإسكندرية بينما كنت معها؛ وكذبك وحده أكبر خيانة."
أمسكها من كتفيها ونظر في عينيها قائلًا ـ"وأنا بالفعل نادم على كل يوم قضيته بعيدًا عنك، وعودة (سمر) إلى عصمتي كانت لسبب قهري صدقيني؛ لكنني لم أقصد خيانتك، لقد..."
قاطعته في حدة وهي تتملص من قبضته هاتفة ـ"لست بحاجة لسماع تبريراتك، لقد انتهى كل ما بيننا، هدمته بيديك ولم يعد من الممكن إصلاحه. فأنا لا أقبل أن تكون لي ضرة. لذا سأطلبها منك ثانية...طلقني يا (طارق)."
ثم التقطت نفسًا عميقًا لتمنح صوتها بعض الهدوء قبل أن تقول ـ"لو

كنت لا تزال تخاف على ابنك وأبناء أخيك طلقني وسيظل في إمكانك رعاية الأولاد وسيظل البيت بيت أخيك وأولاده. لو كنت تحمل بين ضلوعك ذرة حب تجاهي حقق لي أمنيتي وطلقني."
آلمه طلبها ووصفها إياه بالأمنية،
ألهذا الحد أصبح عبئًا عليها تتمنى الخلاص منه؟
ألهذا الحد تسبب في جرحها دون أن يدري؟
جرحها بمحاولته حمايتها من معرفة الحقيقة، وما دفعه إلى العودة إلى من ظنها طليقته.
أطلق زفرة حارة من أعماقه وهو يتأمل الدموع التي تترقرق في مقلتيها قبل أن يقول بصوت حاول أن يجعله هادئًا ـ"(هالة)..أدري أنني تسببت بجرحك دون قصد وأنك ترفضين الاستماع إلى مبرراتي. لذا لن أعقب على حديثك إلا بعد أن تهدأ أعصابك وتعيدي التفكير فيما تريدين."
ثم تابع بابتسامة جاهد ليرسمها على شفتيه قائلًا ـ"ولكن حتى حينما تهدئين -ولأن قلبي لا يوجد به سواك- فلن أستطع تلبية طلبك، للأسف أنا أناني مثل كل المحبين. يمكنك قول ما تريدين كي تخرجي ما بداخلك لكني لن أطلقك ما دام في صدري نفس يتردد. كل ما سأفعله هو أنني سأترك لك البيت عندما تعود أمي من الحج بسلامة الله. هذا أقصى ما يمكنني عمله في الوقت الحاضر."
رمقته بعينين دامعتين وخُيل إليها أنها ترى(حازم) على قيد الحياة ثانية؛ ففي هذه اللحظة كان(طارق) نسخة من أخيه بنفس التعنت والكبرياء والصرامة،
نفس التحكم والتمسك بالرأي حتى لو كان مخطئًا.
وللحظات اعتراها الندم لمجرد أنها ظنته يومًا مختلفًا عن أخيه، فمنحته قلبها عن طيب خاطر.
مجرد التفكير فيما فعلت ووضعها في مثل هذا الموقف جعل معدتها تقفز إلى فمها ثانية، فهرعت من أمامه إلى الحمام تفرغ معدتها في عصبية علها تخفف من توترها.

حين عادت إلى الردهة وجدته حيث تركته عاقدًا ذراعيه أمام صدره، وما أن رآها حتى اقترب هامسًا بتوسل -"(هالة)! أرجوك حاولي تهدئة أعصابك وإيقاف هذا القيء المستمر. لقد كان في البداية بسبب الوحام، لكنك الآن تقتلين نفسك بهذا القيء الهستيري. على الأقل تناولي شيئًا و إلا ستموتين...إنك..."
قاطعته بإشارة من يدها وهي تبتعد عنه قائلة في ضيق -"لا تأمرني. أنت تعرف جيدًا سبب هذا القيء؛ ابتعد عني وسأشفى و..."
وفي الثانية اللاحقة لكلمتها الأخيرة أظلمت الدنيا أمام عينيها للحظات لم تدر مداها،
وعندما أضاءت ثانية وجدت نفسها على فراشها وأنبوب الجلوكوز معلق بوريدها ليمدها بقليل مما فقده جسمها في الفترة الماضية.
أول ما لفت انتباهها كانت رائحة عطره المميزة وهو ينحني عليها ويحتضن كفها الخالي من المحلول في حنان ويمسد شعرها بكفه الأخرى والحزن يطل من عينيه وهو يتأملها عن قرب قبل أن يقول بلهجة مؤنبة -"إنك تقتلين نفسك ببطء، وتقتليني معك. لو لم أكن أنا بحاجة إليك فهناك ثلاثة أبناء يفتقدونك والرابع لا يريد أن يأتي إلى العالم بعد رحيل أمه. لقد فقدت الكثير من وزنك بسبب القيء الهستيري الذي تعانين منه، والأهم أن ضغط دمك مرتفع وقد يؤذيك هذا؛ ولا أستطيع إعطاءك أية أدوية لخفضه و إلا آذت الجنين، وأنت لا تفعلين سوى ما يضركما."
رغم حاجتها إلى قربه ذلك واشتياقها له، شعرت بدمائها تفور وهي تتنفس أنفاسه ممزوجة بعطره، فأشاحت بوجهها في الاتجاه الآخر علها تتنفس هواءً لا يحوي رائحته، وجذبت كفها من كفه في ضيق
كانت تشعر وكأنها على حافة الجنون
فكيف تعشقه وتتمنى قربه إلى هذا الحد، بينما لا تطيق لمساته وهمساته؟
كيف تشكوه إلى نفسه، وتلقي همومها منه على عاتقه؟

كيف تشكوه وهو الخصم والحكم؟
لم تجد حلًا سوى أن تشكو بثها وحزنها إلى الله العلي القدير..فهو الحكم العدل
تناجيه بدموعها وقلبها وهي ترفع طرفها نحو السماء وتدعوه سرًا أن يفرج كربها ويخرجها مما هي فيه،
وثقتها في عدله واسعة.
أما (طارق) فشعر بضيق يكتم رئتيه ويضغط صدره بشكل خانق، وهو يراها تشيح بوجهها عنه، ويسمع نشيجها الخفيض، لكنه تمالك نفسه وهو يتابع ـ"هذا المحلول سيعيد إليك بعضًا من قواك الخائرة شريطة أن تريحي نفسك. لقد أضفت إليه دواء لمنع القيء حتى تهدأ معدتك قليلًا، وطلبت لنا جميعًا بيتزا احتفالًا بعودة (هيثم)، ستصل ريثما ينتهي محلولك. أرجو أن تحاولي التماسك أمام الأولاد وأن تتناولي العشاء معنا، وسأنام مع(هيثم) والأولاد في الغرفة المجاورة، فلا تقلقي عليهم. مازلت أستطيع العناية بهم وبك أنت أيضًا."
وتركها وخرج في هدوء يخفي الكثير من الآلام والأحزان... والدموع.

*****

(٣١)

جلس خلف مقود سيارته وإلى جواره جلست أم(هالة) بعد عودتها من رحلة الحج، ولم يخف عليها بقلب الأم الحزن الدفين في عينيه فسألته في قلق ـ"ماذا بك يا بني؟ هل حدث شيء في غيابي؟"

تنهد في عمق وهو يدير محرك السيارة مما أثار قلقها فسألته ثانية ـ"ماذا تخفي عني؟ ماذا أصاب ابنتي وأولادها؟"

مط شفتيه في تردد قبل أن يقول ـ"لا شيء، (هالة) حامل."

قالت بثقة ـ"أعلم هذا، لقد أخبرتني قبل سفري؛ ماذا حدث غير ذلك وجعلك حزينًا هكذا؟ هل تشاجرتما؟"

تنهد ثانية وهو يطفئ محرك السيارة ويخفض وجهه أرضًا في ضيق، قبل أن يروي لها في تردد كل ما حدث منذ مرض (هيثم) حتى المساء السابق.

وحين أنهى حديثه هتفت به حماته في حنق قائلة ـ"أهذه وصيتي لك؟ أهذا ما أقسمت بكتاب الله على أن تفعله؟ لماذا يا(طارق)؟ لماذا يا بني؟"

استدار يواجه حماته قائلًا بصدق ـ"أقسم لك أنني لم أجرحها عن عمد؛ وأعلم جيدًا أنني ظلمتها كثيرًا ولذا أحاول ألا أجرح فتاة أخرى. لقد أعدت (سمر) إلى عصمتي حتى لا تّدَّعي هي أو أي من أقاربها أنني ظلمتها. أعترف بأنني تأخرت في إخبار(هالة) لأنني كنت مترددًا حتى آخر لحظة بالنسبة لعودة (سمر)؛ وظننت أنني بذلك أرضي جميع الأطراف لأنني لا أستطيع التخلي عن(هالة) أو أولادها...لا أدري...لقد اختلطت الأمور بشكل لم أتوقعه إطلاقًا، ولا أدري ماذا أفعل."

سألته حماته بحزم قائلة ـ"هل تحب(هالة)؟"

أجابها في سرعة ـ"أحبها كروحي ولا أتخيل حياتي بدونها."

عقدت حاجبيها قائلة ـ"وماذا عن(سمر)؟"

تنهد في عمق قائلًا ـ"لقد أحببتها ولم أكن أرى سواها قبل الزواج؛ أما الآن وبعد كل ما حدث، صدقيني لم تعد مشاعري تجاهها كما كانت في

السابق."
مطت شفتيها قبل أن تتنهد بدورها قائلة -"خذني إلى المنـزل يا(طـارق)، وما قدّره الله عز وجل سيكون."
تنهد ثانية في عمق، ثم أومأ برأسه في صمت وهو يعتدل ويـدير محـرك السيارة ثانية ويعاود الانطلاق في طريقه إلى المنزل.
وطيلة الطريق يتردد في ذهنه السؤال: كيف ستتعامل (هالة) معي أمـام والدتها؟
وكان عقله يجيبه في كل مرة : ستتظاهر بأنها لم ترك
وكما توقع، فما أن فتح باب الشقة أمام حماته حتـى هـرع إليهـا الأولاد والتفوا حولها يتقافزون في سعادة،
أما حبيبته فتهادت نحو أمها بخطوات ثقيلة بسبب ضعفها، وخُيـل إليـه أنها أكثر شحوباً مما تركها عليه هذا الصباح، ربما بسبب خصلات شـعرها المبعثرة حول وجهها، وربما بسبب ذبول عينيها من كـثرة الـدموع، وربمـا بسبب قميصها القطني الأصفر الذي عكس لونه على بشرتها
كان يحتويها بنظراته ويتمنى لو تلتقي أعينهما حتى يبثها حبـه وشـوقه إليها
لكنها تجاهلته -تماماً كما توقع- وهي ترتمي في أحضان أمها تبكي وتشـكو طول غيابها؛
ولوهلة شعر بأنه غريب في هذا المنزل
إذ لم يعره أحد انتباهاً وسط هذا الهرج ما بـين سـعادة الأطفـال بعـودة جدتهم ودموع (هالة) التي أصبحت ملازمة لها مؤخراً
لم يجد أمامه سوى أن يُـدخل حقائـب حماتـه إلى غرفتهـا في هـدوء، وفي طريق عودته مر بغرفته مع (هالة)...
الغرفة التي شهدت أجمل لحظاتهما
وهي نفس الغرفة التي شهدت لقائهما الأخير وابتعادها عنه بعـد عـودة (هيثم) من المستشفى
فقد كانت تلك الليلة المرة الأخيرة التي تجمعهما فيها غرفة واحدة

ومن بعدها تجاهل تام
حتى حينما يدخل إلى الغرفة ليستبدل ملابسه، كانت تتظاهر بالنوم أو تغادر الغرفة
تأمل الغرفة بألم وعيناه تجوبان أرجائها وشريط ذكرياته فيها يتدافع أمامه بسرعة بالغة جعلته يشعر بالاختناق، فتنهد بقوة قبل أن يواصل طريقه إلى الردهة
ثم ما لبث أن عاد إلى الغرفة وفتح صوان الملابس ليلتقط بعضًا من ملابسه ويضعها في حقيبة كتف صغيرة التقطها من قاع الصوان قبل أن يغلقها ويحملها على كتفه ويغادر الغرفة ثانية.
وفي طريقه تناهت إلى مسامعه أصوات الأولاد الجذلة مختلطة بصوت الجدة الهادئ وهي تخبرهم عما أحضرته لهم من هدايا...كان مصدر الصوت غرفة الجدة و(هند)
وهذا يعني أن أي منهم لم ينتبه لغيابه
حينها آثر الخروج قبل أن ينتبهوا له، لولا أن هرع إليه (هاني) هاتفًا ـ"بابا! إلى أين ستذهب؟"
مسد(طارق) شعر ابن أخيه في حنان وهو يحاول أن يداري اختناق صوته قائلًا ـ"لدي بعض الأعمال التي ستتطلب وجودي بعيدًا لفترة."
تعلق(هاني) بيد عمه ورفع إليه عينيه البريئتين والدموع تترقرق فيهما يسأله بانكسار ـ"وهل ستتركني كما تركنا بابا (حازم)؟"
ركع(طارق) على ركبتيه أمام الصغير وضمه إليه في حنان قائلًا والدموع تنسا ب على وجهه ـ"كلا يا حبيبي؛ لن أتركك أبدًا، لن أترككم جميعًا. ألا تعرف كم أحبك؟"
ابتعد الصغير قليلًا وأشار إلى الحقيبة على كتف عمه قائلًا ـ"لماذا هذه الحقيبة إذًا؟"
داعب (حازم) شعره قائلًا ـ"ألم أخبرك بأنني سأضطر إلى الغياب عن المنزل بضعة أيام، ولابد أن تكون معي ملابس إضافية."
انتبه (هاني) لدموع عمه حينها فعاد يسأله في دهشة ـ"هل تبكي يا

بابا؟"
حاول(طارق) إخفاء دموعه وقال بابتسامة مرتبكة ـ"أنا أبكي لأنني سعيد بعودة أمي ولا أريد أن أفارقكم، لكنني أيضًا لا أستطيع ترك عملي ومع ذلك أعدك بالعودة فور انتهاء أعمالي تلك."
دفن (هاني) وجهه في صدر عمه هامسًا ـ"أنهها في سرعة من أجلي، أريد أن أنام في أحضانك مثلما فعلنا أمس. ولا تنس اختباراتي الشهرية، إنها الأسبوع القادم ويجب أن تذاكر معي كما تفعل دومًا."
قَبّله عمه في جبهته ثم نهض يمسح دموعه قائلًا ـ"لن أنس يا حبيبي؛ سأحضر يوم الخميس القادم إن شاء الله لنحتفل بشفاء (هيثم) وعودة أمي بسلامة الله، ثم نستيقظ صباح الجمعة مبكرًا لنراجع الدروس معًا بإذن الله."
ثم داعب شعر الصغير ثانية قائلًا ـ" قَبّل إخوتك من أجلي، واتصل بي دومًا. اتفقنا؟"
أومأ الصغير برأسه وهو يلوح لعمه مودعًا؛ وعندما اقتربت منه شقيقته (هند) بخطواتها الصغيرة أحاطها بذراعيه بحنان يفوق سنه وقَبّلها قائلًا ـ"هذه القبلة من بابا(طارق)؛ لقد وعدني بأن يعود من أجلنا وأنه لن يتركنا مثل بابا(حازم). وأنا أيضًا لن أتركك."

***

خرج من المنزل وهو يشعر بضيق بالغ وكأن حجرًا ضخمًا يجثم على أنفاسه، وقاد سيارته على غير هدى وكأنه يقاتل في شوارع القاهرة المزدحمة وقت الذروة،
وربما كان شروده من حسن حظه حينها حتى لا ينفجر غضبًا من شدة الزحام
فقد كانت سيارته وكأنها تمشي بقوة الدفع الذاتي بين موجات السيارات المختلفة
ولأنه لم يكن من السهل الهروب إلى مكانه المفضل على شاطئ النيل في هذا الوقت من اليوم، فقد فوجئ بنفسه أمام المبنى الذي يضم شقته

الخاصة التي لم تطأها قدماه منذ جراحة (هيثم)
وبخطوات لا تقل شرودًا عن ذهنه ارتقى درجات السلم المؤدية إلى شقته وفتح بابها ودلف إليها في صمت قاتل لم يقطعه سوى صوت (سمر) المندهش وهي تقول من خلفه ـ"(طارق)!! حمدًا لله على سلامتك."
حينها فقط انتبه وخرج من شروده وهو يجيبها بهدوء دون أن يستدير لها ـ"سلمك الله."
اقتربت منه بحذر وهي تسأله ـ"خيرًا؟ ما الذي أتى بك فجأة؟"
التفت إليها ورفع كفه معتذرًا وهو يجيبها بسخرية ـ"آسف. كان ينبغي أن استأذن قبل دخول منزلي."
احتقن وجهها بدماء الحرج من سخريته فقالت في سرعة ـ"العفو..كنت أريد الاطمئنان فحسب."
أدرك غلظة كلماته فقال موضحًا ـ" لقد عادت والدة (هالة) من رحلة الحج. وفضلت أن أتركهما وحدهما قليلًا."
غمغمت وهي تهز رأسها متفهمة ـ" أها..حمدًا لله على سلامتها."
ثم أردفت تسأله ـ" كيف حال (هيثم)؟ هل أزال غرز الجراحة؟"
تنهد في إرهاق وهو يجلس على أريكة الأنتريه ويضع الحقيبة أرضًا قائلًا ـ"سأصحبه إلى المستشفى يوم الخميس لإزالتها بإذن الله."
هزت رأسها ثانية ثم سألته بتردد ـ"هل أضع لك الغذاء؟"
تمدد على الأريكة وهو يضع ذراعه على عينيه قائلًا باقتضاب ـ"كلا. شكرًا..لا أريد."
شعرت بالضيق من تجاهله لها لكنها ضغطت على مشاعرها وهي تقول بهدوء ـ"سأكون في غرفتنا أجفف شعري، لذا ربما لا أسمعك بسبب مجفف الشعر."
لم يغير وضعه وهو يقول بلامبالاة ـ"لا تخافي..أعرف طريق الغرفة إذا احتجت إليك..وأعرف أيضًا كيف أخدم نفسي."
زاد احتقان وجهها وشعرت بأن ضغط دمها سيرتفع إن هي وقفت أكثر

معه، لذا لم تعقب واتجهت في عصبية إلى غرفتهما.
لكنها سرعان ما عادت إلى الردهة ثانية وعقدت ذراعيها أمام صدرها وهي تقول بتحفز ـ"(طارق)..أريد أن نتحدث قليلًا حينما تستيقظ."
رفع ذراعه عن عينيه وأدار رأسه إليها مندهشًا من لهجتها الغريبة قبل أن يعود إلى وضعه القديم قائلًا بضيق ـ"(سمر)...أيًا كان ما سنتحدث بشأنه فأنا لست في مزاج مناسب له. أرجوك امنحيني بعض الوقت حتى أحدد اتجاهاتي."
عقدت حاجبيها الجميلين للحظة وهي تشعر بأنه أساء فهمها، ثم تنحنحت قائلة ـ" الموضوع ليس كما تظن. وعلى أي حال يمكنني الانتظار."
قالتها وهي تهرع إلى الغرفة دون أن تأبه للمنشفة التي سقطت عن شعرها المبلل.

***

وقفت شاردة تتأمل نفسها في المرآة الأنيقة التي تعلو طاولة الزينة
تتأمل ملامحها البريئة ووجهها الخالي من أي مساحيق تجميل، تمامًا كما يحب هو.
شعرها المبلل المحيط بوجهها بلا نظام،
والمنامة الرقيقة التي ترتديها، والتي كانت دائمًا ما تثير (طارق)
كيف لم يشعر بها ولم يلحظها هكذا؟
ألهذه الدرجة أصبحت وكأنها لا وجود لها؟
ألهذه الدرجة خرجت من حياته؟
حتى وإن لم تكن زوجته وحبيبته السابقة فهي أنثى.
أنثى وترتدي ملابس صيفية تكشف أكثر مما تخفي،
وهو رجل،
طبيعي أن تثيره أي امرأة في هذا الملابس...ناهيك عن زوجته،
ورغم ذلك لم يعرها أي انتباه.
ألهذه الدرجة أعمت (هالة) عينيه عن أي أنثى سواها؟

وبحركة ميكانيكية تناولت مجفف الشعر وبدأت تجفف شعرها دون أن تشعر بدموعها التي أغرقت وجهها.
رغم توقعها لتغير (طارق) تجاهها، لم تتوقع أن يكون بهذا البرود معها.
نعم هي تسرعت بطلب الطلاق،
بل وتعاملت مع الأمر بحماقة وتهور.
تدرك جيدًا أنه ما من رجل يحترم رجولته يقبل بمثل هذه الإهانة،
ورغم ذلك كانت تتوقع في كل يوم منذ طلاقهما أن يحاول التقـرب منهـا ثانية.
كأنثى كانت تتمنى ذلك،
لكن (طارق) لم يفعل.
وكأنه أوصد قلبه خلفها بمجرد أن قال لها بكبرياء جريح 'أنت طالق'
بل إنه غير مواعيد عمله كيلا يلتقي بها ولو قدراً في المستشفى،
وحينما كلمها لأول مرة بعد الطلاق لم يخف عليها لهجته العدائية وهـو يسألها عن صحة طلاقهما.
يومها، وحين قابلته للذهاب إلى دار الإفتـاء، أيقنـت أن عدائيتـه لم تكـن وهمًا...بل حقيقة.
فقد عاملها بجفاء وبرود غير مسبوقين طيلة الطريق من بيت والدتها إلى دار الإفتاء.
كانت تشعر به وهو يتكلم مع المسؤول هناك وكأنه يتمنى أن يخبره بأن طلاقهما صحيح وأن عدتهما على وشك الانتهاء،
ولم تخف عليها ملامح الصدمة وخيبة الأمل التـي ارتسـمت عـلى وجهـه وهو يستمع إلى الرأيين الفقهيين في حالتهما.
فهناك رأي بوقوع الطلاق وإن كان مكروهًا،
والآخر أن يراجعها وينتظر أن يطلقها حسب شروط الطلاق الصحيح.
تعلقت عيناها بوجهه وهي تلمح التردد في عينيه،
ثم ما لبث التردد أن تحول إلى ضيق وهو يقبل مراجعتها حتى حين.
أي زوجة في موقفها ربما كانت ستسعد بعودتها إلى زوجها الأول الذي لم

تر منه سوى كل حب وإعزاز وتقدير،
لكن ملامحه المتغيرة أكدت لها أنه كان يتمنى الخيار الأول:
أن يقع الطلاق.
وتأكد حدسها حينما عادا إلى شقتهما ثانية.
كان موقفهما هذه المرة مناقضًا تمامًا لموقفهما في آخر مرة عادا فيها معًا إلى المنزل.
يومها كانت منهارة بعد اكتشاف عقمها، لكنه صحبها إلى العشاء في الخارج،
واستطاع بشخصيته المرحة وحنانه أن يخرجها قليلًا عما بها من كدر،
وحينما عادا إلى المنزل كانا أشبه بعريسين في أول أيام زواجهما،
ولولا عذرها الشرعي ذلك اليوم، لعاشت بالفعل معه ليلة من لياليهما الأولى.
أما يوم عودتها إليه....
كان شخصًا مختلفًا عن زوجها القديم،
كان رجلًا يُساق إلى قبره،
يتعامل معها بضيق وعصبية طوال الوقت،
والأدهى أنه أمضى معها ثلاثة أيام لم يمسها فيهم،
كان يتركها تنام في غرفتهما بينما ينام هو في غرفة الضيوف.
لم يستجب لها ولم يحركه أي من ملابسها التي كانت تلمع لها عيناه من قبل.
وقتها فسرت سلوكه بأنه لا يزال غاضبًا منها ومن أسلوبها الغبي في طلب الطلاق.

ولكن حينما رأت (هالة) في المستشفى ذلك اليوم،
وحينما زل لسانه وهو يعترف بحمل زوجته،
أدركت السبب الحقيقي لبروده معها...
فقد كان يخشى أن يخون (هالة)

(هالة) التي كانت دائمًا الزوجـة المثاليـة حتـى وهـي مجـرد زوجـة عـلى الورق،
فكيف وهي زوجة حقيقية؟
زوجة منحته كل ما يحتاجه من حب واهتمام و.....أطفال!
خرجت من شرودهـا عـلى هـواء المجفـف السـاخن الـذي يلفـح وجههـا فأغلقته في ضجر وتركته على الطاولة،
ثم جمعت شعرها إلى الخلف بشكل عشوائي ورفعته بمشـبك أنيـق قبـل أن تتجه لتجلس وسط فراشها في ضيق وبين الحـين والآخـر تنظـر ناحيـة باب الغرفة وكأنها تنظر إلى الراقد خلفه،
وفي أعماقها اتخذت قرارًا جديدًا...
لابد وأن تضع النقاط على الحروف...سريعًا.

*****

(٣٢)

بخطوات واهنة متثاقلة اقتربت (هالة) من حميها الجالس بردهة المنزل، والذي أدهشها وقوفه لها واستقباله لها للمرة الأولى منذ معرفتها به، وما زاد دهشتها كانت قبلته الأبوية الحانية التي طبعها على جبهتها وهو يصافحها قائلًا بود ـ"أهلًا بك يا بنيتي."
لم تستطع إخفاء دهشتها وهي تجلس إلى جوار والدتها على الأريكة المواجهة له قائلة ـ"مرحبًا بك يا عماه. آسفة لم استطع استقبالك عند الباب."
منحها ابتسامة ذكرتها بابتسامة (حازم) ليلة موته وهو يقول بحنان ـ"لا عليك. أدرك أنك مرهقة بسبب الحمل. أعانك الله وأتم حملك على خير."
كادت تستجيب لشيطانها وتدعو في سرها بسقوط الحمل، لكنها قالت بخفوت وهي تخفض رأسها ـ"آمين."
بادرها بسؤال قلق ـ"ماذا بك يا بنيتي؟ لماذا كل هذا الشحوب؟ ولماذا ذبلت عيناك هكذا؟"
رفعت عينيها إليه مذهولة باهتمامه الغريب وتبادلت نظرة دهشة مع والدتها قبل أن تجيبه قائلة بخفوت ـ"أنت تعلم إرهاق الحمل يا عماه. أما ذبول عيناي فربما لأنك اعتدت رؤية الكحل بهما وأنا لم أضعه اليوم."
مال بجذعه إلى الأمام ليقترب منها قائلًا ـ"ولماذا لم تضعه؟ لقد اطمأننت على (هيثم) والحمد لله، فلا داعي لإهمال صحتك وجمالك و..."
قاطعته بضيق قائلة ـ"معذرة لقطع حديثك يا عماه. لكنني في أسوأ حالاتي النفسية. وأعتقد أن والدتي أخبرتك بالسبب."
تنهد الرجل في عمق وعاد يسند ظهره على خلفية المقعد قائلًا بأسى ـ"نعم أخبرتني. ولهذا أتيت اليوم لأعرف ما الذي يرضيك."
قالت في سرعة وانفعال ـ"لا بد وأن يطلقني، هذا هو ما يرضيني."
مط حموها شفتيه ثم قال مهدئًا ـ"اهدئي يا ابنتي، هذا ليس منطقيًا."
سألته بحنق ـ"وما هو المنطقي؟ أن تكون لي ضُرة؟ أتقبلها أنت؟"

قال بهدوء ـ"ألم تساعديه أنت في الزواج منها؟ ما الجديد إذًا؟"
اندفعت تجيبه بكلمات سريعة منفعلة كطلقات الرصاص ـ"الجديد هو أنني حينها كنت أحمل صفة أخته أو صديقته أو أي صفة أخرى غير صفة الزوجة وكنت سعيدة لسعادته؛ أما الآن فالوضع مختلف. لقد أوهمني بأنه يحبني أنا وأنه كان مخطئًا في زواجه منها. وبعد أن صدقته وحقق غرضه وتأكد من حملي أعادها إلى عصمته وكأن شيئًا لم يكن. ابنك في اختصار شديد مثّل عليّ في براعة منقطعة النظير وصدقته كالبلهاء. ضرب عصفورين بحجر؛ من ناحية ضمن أنه سيصبح أبًا كما يتمنى وتتمنى أنت أيضًا، ومن ناحية أخرى لن يفترق عن حبيبة عمره، وهذا مالا أرضاه. ثم لماذا كذب عليّ بشأن عودتها إليه؟ لماذا الخيانة والكذب؟ أنا لست ضد عودته إليها لأنه من الأساس لها وحدها ولم يكن لي يومًا، لكنه أوهمني بعكس ذلك؛ لذا يكفيني ما أنا فيه وليذهب كل منا في طريق، وسيظل البيت..."
قاطعها حماها بإشارة من يده قائلًا بنفس الهدوء الذي يحمل مسحة حزن ـ"اسمعيني جيدًا يا(هالة)؛ هل تعلمين لماذا زوجتك (طارق)؟ ربما ظننتم جميعًا أنني ظلمتكما بهذه الزيجة، لكنني رأيت شيئًا آخر. رأيت فيك صورة أم (حازم) رحمهما الله. لم يتحملني سواها، ولم يفهمني سواها، ولم أعشق سواها. لكن الأجل لم يمهلني كي أعبر لها عن هذا الحب كما تستحق. هي طبيعة جُبلت عليها وليس لي أن أغيرها بعد كل هذه السنوات. والمشكلة أن (حازم) كان نسخة عني. نسخة في كل شيء، ولم أتخيل أن تتحمله أنثى أبدًا. لكنك تحملته وأسعدته، ولم أره يتذمر منك يومًا. أما (طارق)، فمختلف منذ صغره. عاطفي وحنون كأمه الراحلة، وكان بحاجة إلى زوجة تحيطه بحنانها مثلما يحيطها بحنانه. ربما كنت أنانيًا لأنني شعرت بأن وجودك في أسرتنا بمثابة عودة أخرى لـ(ماجدة) زوجتي الحبيبة. أردتك أن تظلي بيننا وأن تكوني الابنة التي لم أرزق بها."
ثم رفع إليها عينين تلتمعان بدموع لم ترها من قبل وهو يواصل ـ"لقد

زوجتك منه لأنني رأيت فيك الزوجة الأنسب له مثلما كنت لأخيه وليس ليحمي أبناء أخيه فقط كما ظننتم جميعًا. حتى وإن تزوجتما رغمًا عنكما في البداية، فقد كنت على حق لأن الحب ربط بين قلبيكما بعد الزواج، وأسعدكما معًا. لكنك اليوم أنت وأبنائك أهم عندي من أي شيء آخر، حتى ابني. لذا سأفعل كل ما بوسعي كي أعيد لك حقك كاملًا بعيدًا عن الطلاق. فقط أجيبيني بصراحة هل ما يضايقك أنه كذب عليك بشأن عودته لـ(سمر)، لأن هذا حله أبسط مما يمكن، سيعتذر لك ويركع تحت قدميك لو أردت وينتهي الموضوع. أما لو ما يضايقك هو عودته إليها من الأساس بعد أن استقرت حياتكما معًا فهنا الحل هو أن يطلق (سمر) ويعود إليك وإلى أبنائك وابنه القادم."

أجابته في سرعة ـ"لا يرضيني أن يطلق (سمر) لأن ما بها لا يد لها فيه، ولا أستطيع أن أنكر كم ضحت في سبيلي وسبيله. ماداما حبيبين فلا مكان لي بينهما."

تدخلت أمها في الحوار قائلة ـ"إنك تعقدين الأمور هكذا يا(هالة)."

التفتت إليها ابنتها قائلة ـ"أنا لا أعقدها، لقد سألتموني عما يرضيني وأجبتكم بكل صراحة، فأنا لا أستطيع النظر في وجهه ولا أطيق الوجود معه في مكان واحد، كما لا أظنني سأسامحه يومًا على ما فعله معي. وكلما طال الجدل حول هذا الأمر ستزداد حالتي سوءًا وربما أضر هذا بالجنين."

تبادلت أمها وحموها نظرات حائرة قبل أن يقول حموها بهدوء ـ"لقد أخطأ (طارق) حينما أعاد (سمر) إليه دون أن يخبرك من ناحية، وأخطأ في إعادتها من الأساس من ناحية أخرى ويحق لك معاقبته، وسآخذ لك حقك كاملًا منه. لكنك بطلبك الطلاق تعاقبين أبنائك وطفلكما القادم وهذا ما لن أسمح به على الإطلاق، وإذا كان وجوده معك في الوقت الحالي يثير أعصابك فسيظل في شقته أو معي ولن يحتك بك حتى تلدين، وحتى ذلك الحين يمكنك إعادة التفكير في السبب الحقيقي لغضبك، لأنني واثق من أن حبك له ورغبتك في أن يكون لك وحدك هما

المحرك الأساسي لغضبك، وهذا حقك مائة في المائة. وكل مـا أطلبـه منـك في الوقت الحالي هو أن تحافظي على صحتك وأن تعتني بالتغذية قلـيلًا. ألا ترين كيف ذبلت؟ اتفقنا؟"
قالت بعناد ـ"ولكن..".
قاطعهـا حموهـا قـائلًا بحكمـة ـ"بفرض أنـك أصررت عـلى الطـلاق وأن (طارق) وافق عليه ومنحـك إيـاه، سـتظلين زوجتـه شرعًـا حتـى تلـدين، وهذا يعني نحو ستة أشهر أخرى. لذا سأبعده عنـك طيلـة هـذه الفـترة حتى تلدين بسلامة الله، وبعدها لك ما تريدين. ربما تعيدين التفكـير في أمر زواجكما، وربما يظل رأيك كما هو. لكنه على أي حـال سـيكون قـرارًا حكيمًا اتخذته بكامل إرادتك وبعد تفكير عميق واسـتخارة للـه سـبحانه وتعالى. حينها لن يجرؤ أحدنا على الاعتراض. هل يرضيك هذا؟"
تبادلت مع أمها نظرات سريعة جعلتها تومئ برأسها إيجابًا دون اقتنـاع، فعاد يسألها ـ"إذًا تعدينني بالاهتمام بصحتك وأن تلقي بما حدث خلفك وتعودين (هالة) التي أعرفها؟"
هزت رأسها وهي تتمتم ـ"سأحاول."
ثم عادت تنظر إلى حميها قائلة بحرج ـ"بإذنك يا عماه. سأدخل لأسـاعد (هاني) في دروسه ريثما يعود (هيثم) من المستشفى."

***

تابعها ببصره وهي تغادرهما إلى غرفة أبنائها، قبل أن يلتفت إلى والـدتها قائلًا ـ"حاولي أن تقنعيها يا حاجة بالعدول عن فكرة الطـلاق. وسـأحاول أنا مع (طارق) وأفهم منه مبرراته لما فعل. وإذا ثبت لي أنه لا يحبها كما تتخيل (هالة) فثقـي في أننـي سـأقف إلى جوارهـا ضـده. أدرك شـعورها العميق بالجرح والخيانة، حتى أنهـا لم تحتمـل الـذهاب مـع ولـدها إلى المستشفى وتظل إلى جوار (طارق) طوال الطريق، ولـديها كـل الحـق في ذلك، ولكن ربما يتغير رأيها بعدما تهدأ قليلًا."
تنهدت الأم في ضيق وهي تجيبه بنبرة حزينة ـ"صدقني يا حاج (حفني)، أنا لا أقل حزنًا وصدمة عنها. (طارق) كان ابني الذي لم أنجبه، حتى قبل

زواجه من ابنتي. فشهامته معنا وحنانه على أبناء أخيه أمر لا يحتاج إلى إثبات. لكنه خذلنا أيضًا. خـذل (هالـة) مـرتين. مـرة في بدايـة زواجهـما، والأخرى الآن. بالطبع لا أريد طلاق ابنتي ومعها أربعة أطفال، لكننـي لا استطيع إجبارها على البقاء معه ولا على التفريط في كرامتها. أقصـى مـا أستطيعه الآن هو أن أقنعها بالتفكير بروية والاستخارة حتى تلد. لكنني سأساندها في قرارها أيًا كان."

هز الحاج(حفني) رأسه بصمت قبـل أن يعقـب قـائلًا ـ"معك حـق. أنـا نفسي لا أعلم كيف يمكنني الدفاع عنه أمامهـا. سـأنتظر معرفـة مبرراتـه قبل أن أحكم عليـه. مـا يهمنـي الآن بعـد صـحة (هالـة) هـو الأولاد. لا ينبغي أن يشعروا بأي من التوتر الحالي بين (هالة) و(طارق)، ولا ينبغي أن تهتز صورته أمامهم."

وافقته بإيماءة من رأسها وهمت بالرد عليه حينما سمعت صوت مفتـاح يدورِ في باب الشقة الذي فُتح بهدوء ودخل منه (هيثم) بخطوات بطيئة نسبيًا وخلفه عمه حاملًا علبة حلوى كبيرة وضعها على أول طاولة قابلته في الردهة واستدار ليغلق باب الشقة حينما لمح والده فابتسم بود وهـو يقترب منه قائلًا ـ"والدي؟ حمدًا لله عـلى سـلامتك. متـى وصـلت؟ لم أر سيارتك أسفل العمارة."

قالها وهو يصافح والـده ويقبـل ظهـر كفـه في احـترام ثـم يتجـه إلى (أم هالة) فيقبل رأسها بنفس الاحترام وهو يهمس ـ"كيف حالـك يـا أمـاه؟ كنتِ نائمة حينما أتيت لـ(هيثم)."

ربتتَ على كفه بحنان الأم وهي تقول بهدوء ـ"بخير والحمد لله يا بنـي. كيف حالك أنت؟"

ارتسم الحزن في عينيه وهو يتابع بعينيه (هيثم) وهو يقترب مـن جـده ويقبلِ ظهر كفه ويجلس إلى جواره، قبل أن يعـود بنظـره إلى (أم هالـة) هامسًا ـ"ضائع دونكم يا أماه..ضائع."

عادت تربت على كفه وهي حائرة بينه وبين ابنتها الوحيدة.

أما هو فاستدار إلى والده قائلًا ـ"متى أتيت يا والدي؟"

ابتسم والده وهو يـداعب شـعر (هيـثم) النـاعم وأجابـه ـ"بعد نزولـك مباشرة. أخبرني (رويترز) أن الجميـع نيـام وأنـك اصـطحبت (هيـثم) إلى المستشفى."
ضـحك (طـارق) بقـوة محـاولًا أن يفـرغ تـوتره في الضـحك وهـو يقـول ـ"تقصد (هاني) بالطبع. فهو وكالة أنباء البيت. أعتقد أنه سيكون مراسلًا ناجحًـا لأنـه دائمًـا الأول في الوصـول إلى موقـع الحـدث والأول في نقـل الأخبار. بالمناسبة أين هو؟ لم يستقبلني كعادته."
أشار والده إلى غرفة الأولاد وهو يجيبـه مبتسـمًا ـ"بالداخل يـذاكر مـع أمه. لقد دخلا قبل قليل."
نهض (طارق) نحو علبة الحلوى الكبيرة وهـو يقـول ل(هيـثم) ـ"اذهب ونادهما يا (هيثم) وسأعد أنا المائدة."
ثم ما لبث أن عاد يسأل والده ـ"لم تجبني يا والدي..أين سيارتك؟"
أجابه والده برزانته المعهودة ـ"حينما لم أجدك ذهبت إلى صـلاة المغـرب وطلبت من السائق أن يشتري ما ينقص البيت من السـوق ريـثما أبـارك للحاجة (أم هالة) بسلامة العودة من الحج."
تأمل (طارق) علبة الحلـوى الأخـرى عـلى المائـدة، والتـي تحمـل علامـة الحلواني المفضل لوالده قبل أن يقول شاكرًا ـ" سأظل أتعلم الأصول منك يا والدي."
قال والده بثقة ـ"يا بني الريف المصري هو أساس الأصول والتقاليد التي لا ينبغي أن نتنصل منها مهما أبعدتنا المدنية عـن جـذورنا. ثـم إن قـدر (أم هالة) كبير لدينا جميعًا. نعم النسب والله."
تضرج وجه المرأة بحرج ذكر (طارق) بحياء زوجته معه، بينما قالت هي بصوت خفيض ـ"بارك الله فيك يا حاج (حفني). وشكرًا على ذوقك."

***

انهمك في فض العلبة الكبيرة عن الكعكة التي تتوسطها وهم بقول كلمة ما حينما خفق قلبه في قوة.
لم يكن قد رأى (هالة) بعد، ولكنه شعر بقربها...

ربما سمع حفيف خطواتها المتثاقلة بسبب ضعفها وهزالها،
وربما تسللت رائحتها المميزة التي افتقدها إلى انفه،
أو ربما هو قلبه الذي شعر بقرب حبيبته فرقص طربًا وحاول الخروج من موضعه ليستقبلها
المهم أنه رفع رأسه فجأة ناحية غرفة الأولاد وانتظر لحظات بدت له كالدهر قبل أن تشرق شمس حبيبته
تعلقت عيناه بها وبوجهها الشاحب وعينيها الذابلتين،
ورغم ذلك هتف قلبه بمدى اشتياقه لها واحتراقه في بُعدها.
راودته رغبة مجنونة في أن يهرع إليها ويحتويها ليطفئ بعضًا من ظمأه لها،
ظمأ أسبوع لم يرها أو يسمع صوتها أو يتنسم عبيرها فيه.
لكنه عاد إلى أرض الواقع حينما التقت نظراتهما قدرًا ولمح فيهما ضيقها من وجوده،
حينها فقط تنحنح ليخرج من محيط مغناطيسيتها وهو يقول للجميع دون تحديد ـ"هيا جميعًا إلى المائدة. فالكعكة أروع من أن تنتظرنا."
قالها وعيناه تعودان إلى معشوقتهما وهو يمد كفه إليها مرسلًا في نظراته توسلًا صامتًا بأن تأتي إلى جواره وتحاول التظاهر بأن الأمور بينهما طبيعية.
وكعادتها فهمت رسالته، وانتابها الغيظ من أنها لا تزال تجيد لغته
ولوهلة فكرت أن تتجاهل كفه وتقف في الجانب البعيد من المائدة، لولا أن لمحت نظرة أمها الجادة التي تحذرها من أن يشعر الأطفال بأي شيء.
حينها اقتربت منه على مضض، ووقفت إلى جواره بتردد استغله هو وهو ينحني على أذنها هامسًا بشوق ـ"افتقدتك."
رمقته بنظرة حادة رغمًا عنها ثم ما لبثت أن هربت بعينيها إلى المائدة،
ولكن عينيها سرعان ما اتسعتا في دهشة وهي تتأمل الكعكة الكبيرة.
فقد كانت كعكة مستطيلة تحمل في أحد جانبيها قطعة شيكولاتة تحمل

اسم معرض حلوى مشهور،
وعلى الأطراف كانت تحمل أسماءهم جميعًا.
أما أكثر ما أثار دهشتها فكان منتصف الكعكة،
فقد كان يحمل بوضوح صورتها مع (طارق) والأولاد.
نفس الصورة التي كانت تضعها على المنضدة المجاورة لفراشها، والتي أخفتها الآن في درج بعيد.
نفس الصورة التي كانت تتأملها كل يوم في حب وتتحسس فيها وجه حبيبها الباسم.
نفس الصورة التي كانت تحبها لأنها جمعتها به...لكنها أصبحت تحمل ذكرى اكتشافها لخيانته.
كادت معدتها تقفز إلى حلقها كعادتها في لحظات التوتر، لكنه سارع بوضع كفه على ظهرها وهو يقترب منها بابتسامة مدروسة قائلًا
-" تجاهلي معدتك المتوترة يا حبيبتي. وهيا لنقطع الكعكة احتفالًا بعودة أمي وشفاء (هيثم)."
قالها وهو يتناول السكين ويضعها في يد (هالة) ثم يضع كفه فوق كفها ليقطعا الكعكة سويًا وسط تهليل الصغار
أما هي فلم تشعر بأي مما حولها، ولم تسمع أي من تعليقات أطفالها الضاحكة وهم يمدون الأطباق لتناول الكعكة
لم تشعر سوى بتملكه واستبداده وهو يحاول أن يثبت للجميع أن كل شيء على ما يرام
لم تشعر سوى بقشعريرة غزت جسدها كله وهي تشعر براحته تعتقل كفها فوق السكين
لكنها لم تستطع أن تجزم..أهي قشعريرة حب أم قشعريرة اشمئزاز
كل ما استطاعته هو أن تهرع بقوة غريبة نحو حمام غرفتها حتى لا يصل صوت قيئها إلى الباقين
وفي أسى تبادل (طارق) النظرات مع والده وحماته التي أعادت طبقها إلى المائدة وهي تستأذن لترى ابنتها

وما أن وصلت الأم نحو غرفة ابنتها حتى رأت (هالة) تخرج من غرفتها وعلى شفتيها ابتسامة منهكة وهي تقول بسخرية -"لا عليك...إنذار كاذب. لم يحدث شيء."
ربتت أمها على كتفها في تعاطف وهي تصحبها إلى الردهة لتتسع أعينهما بشدة في اللحظات التالية
فقد هرع (هاني) إلى أمه واحتضن ساقيها وهو يقول بلهجة غريبة -"لو لم يكن القادم أخي لقتلته."
تبادلت (هالة) نظرة متوترة مع والدتها وحميها قبل أن تخفض وجهها وتداعب شعره قائلة بمزيج من الحنان والجزع -"لماذا يا حبيبي؟"
ازداد تمسكًا بها وهو يقول بصدق -"لأنه السبب في ضيقك واختفاء بسمتك. وأنا لا أسمح لأحد بأن يضايقك."
حينها ركعت على ركبتيها واغرورقت عيناها بدموع غزيرة خانتها وسالت على وجنتيها وهي تحتضن صغيرها وتقول بصوت متحشرج -"لا حرمني الله منك يا حبيبي.. لا حرمني الله منك أو من أخوتك."
اقترب حينها (طارق) وهو يحمل هاتفه المحمول ويقول بابتسامة هادئة -" دكتور (سامي) يرسل تحياته ويطمئن على (هيثم) لأننا غادرنا المستشفى قبل أن يخرج هو من غرفة العمليات. قلت له فاتتك الكعكة اللذيذة و.."
بتر عبارته حينما لمح (هالة) راكعة على ركبتيها وتحتضن صغيرها فعقد حاجبيه وأدار عينيه إلى والده في تساؤل
ولم يتأخر والده في التعقيب، إذ قال بصوت متهدج -"بل أنت فاتك أهم مشهد."
وعاد الجد ببصره إلى أحفاده قائلًا بفخر -"بارك الله لك يا ابنتي في أبنائك..ربيت رجالًا بحق."
رفعت عينيها الدامعة إليه وحاولت الابتسام وهي تقول -"هذا الشبل من ذاك الأسد يا عماه. فالنخوة ليست بعيدة عنهم ما دمت جدهم."
ثم عادت بنظرها إلى ابنها وداعبت شعره ثانية وهي تقول -"كل أم يا

حبيبي تعاني قليلًا في بداية الحمل، لكنها تنسى كل الآلام حينما تحمل صغيرها بين ذراعيها."
حينها عقد الصغير حاجبيه وهو يسألها ـ"هل أتعبتك أنا أيضًا وضايقتك هكذا؟"
قبلت جبهته في حب وهي تضحك من سؤاله قائلة ـ"مممممم..إلى حد ما نعم..كلكم أتعبتموني. لكنكم أجمل ما في حياتي."
ثم فتحت ذراعيها لتضم (هيثم) و(هند) أيضًا إليها وتشبع رئتيها برائحتهم قائلة ـ"لا حرمني الله منكم."
سالت دمعة حانية على وجنة والدتها التي لم تفقد رونقها بعد فمسحتها في سرعة وهي تقول بمرحٍ ـ"هيا إلى الكعكة..إنها لن تنتظر. سألتهمها كلها ما لم تأتوا جميعًا."
حينها أفرجت (هالة) عن أبنائها الذين هرعوا في مرح إلى أطباق الحلوى يأكلونها في براءة، بينما مد (طارق) كفه لزوجته كي تستند عليها لتقوم.
لكنها تجاهلت كفه واعتمدت على قبضتيها المضمومتين وهي تقوم كما لو كانت في الصلاة وهي تغمغم ـ"لم افقد قوتي بعد. وإذا فقدتها يومًا فسأجد أبنائي حولي إن شاء الله."
تلفت حوله ليجد كل في اتجاه، فعاد بنظره إليها وهمس وهو يقترب منها ـ"(هالة)..ألم تصفحي عني بعد؟ أعدك بأن أخبرك بكل شيء ولكن امنحيني الفرصة أولًا. (هالة) أنا ضائع بدونكم. روحي تفارق جسدي حينما أغادر هذا البيت. اعتدت أن يكون وجهك أول ما أرى في الصباح وآخر ما أرى في المساء. اعتدت ضجيج الأولاد ونزاعهم على من يستقبلني عند الباب ومن ينام في أحضاني كل ليلة. اعتدت هرولتك خلف (هند) في أنحاء البيت كي تطعميها تارة وكي تغيري ملابسها تارة أخرى. اعتدت أن...".
قاطعته وهي تنظر بقسوة في عينيه وتقول بقوة لم تدر من أين أتتها ـ"ألم تنتبه بعد؟ كل هذا البيت مجرد عادات. اعتدت (هالة) كما اعتدت طهيها وأبنائها والجو الذي تعيشه معها. لكنك لم تحبها ولم تحارب من

أجلها ولم تقف في وجه الجميع لتنالها. للأسف هذا هو الحال مع كل ما تحصل عليه بسهولة. لقد كنت سهلة المنال بالنسبة لك منذ البداية، لذا تعاملت معي كما يحلو لك. تعاملت معي بشروط حبيبتك وليس بشروط عقد الزواج الذي ربطنا. لهذا أشعر كل يوم كم كنت رخيصة لأنني ..."

قاطعتها أنامله على شفتيها وهو يرتجف ويهمس بها غاضبًا ـ"كفى..أنت لم تكوني سهلة المنال أبدًا ولم تكوني رخيصة. أنت فوق الجميع، ولن أسمح لك بالتقليل من شأن نفسك."

أبعدت رأسها عن أنامله لكنه اقترب أكثر منها وهو يهمس بدفء ـ"أحبك يا (هالة) ولم تكوني شخصًا ثانويًا في حياتي منذ أحببتك. أحبك و...."

لم تنصت له، وكأنه كان يحدث نفسه

كيف تصدقه بعد ذلك؟

بل كيف تستعذب حروفه وهو يصارحها بحبه؟

كيف تتقبلها وجرح قلبها منه مازال ينزف دمًا ودموعًا؟

حاولت أن تسد أذنيها عن همسه الذي اعتاد أن يدغدغ حواسها، لكنها فشلت.

حتى حينما أغلقت عينيها بقوة محاولة الهرب بعيدًا بذهنها، لم تنجح.

لذا فتحت عينيها فجأة وواجهته قائلة بقوة جديدة عليها ـ"(طارق)...لا داعي لهذا. لقد انتهى كل شيء."

اتسعت عيناه حتى أصبح لونهما أكثر وضوحًا أمامها وهو يضغط على ساعدها الأيسر قائلًا بنفس الرجفة ـ"كيف تقولين انتهى؟ ما بيننا لن ينتهي حتى..".

قاطعته بغيظ وهي تتناول السكين الحاد بيمناها من جوار الكعكة وتغرسه بتهور قائلة ـ"انتهى هكذا."

وأصاب السكين قلب الهدف بدقة.

*****

(٣٣)

أسرعـت بـدخول غرفتهـا، وأغلقـت البـاب خلفهـا في قـوة وهـي تقـاوم دموعها التي تخنقها وتحرق حلقها

وأخيراَ أفرجت عن دموعها وهي تنهار على فراشها باكيـة وكأنهـا تخلـص صدرها من كل الضغوط بداخله.

ورغم أن البكاء غالباَ ما يريح القلب، لم تكن تشعر بذلك،

بل كانت تشعر بمزيد من الاختناق كلما تذكرت الموقف الأخير.

فحينما أمسك (طارق) ساعدها بقوة وسمعته يستنكر عليها حقها في أن تنهي علاقتها به لم تشعر بنفسها.

كل ما شعرت به هو غليان الدماء في رأسها

كيف يتعامل بهذا البرود؟

كيف يتخيل أنها ستسامحه بعد هذا الجرح الغائر؟

بل كيف يعيش الوهم بأنها قد تعود إليه؟

أعماها غضبها عن كل شيء حتى ودت لو تقطع حديثه بأي وسيلة تقطع!!!!

حينها وقع نظرها على السكين التي كانت تحملها قبل دقائق وتقطع بهـا الكعكة معه.

لم تدر بعدها ما حدث،

كل ما تتذكره هو نظرة الألم والصدمة في عيني (طارق)،

بل الأحرى نظرات الذهول.

وفي سرعة التفتـت إلى حيـث كـان كفهـا الأيمـن لتجـده لا يـزال ممسـكًا بالسكين بقوة،

السكين المغروس في.....صورتهم الجماعية.

ربما لم تشعر بما فعلته تحديدًا، لكن السكين كان حاسمَا

فقد فصل الجزء الذي يقف فيه (طارق) من الصورة والكعكة بالتبعية.
كانت رسالة مبطنة قذفها عقلها الباطن في وجه (طارق)
رسالة صامتة تحمل معنى واحد،
لم يعد لك مكانًا في قلبي.
وفهمها (طارق).
رغم ذهوله من حركتها السريعة وعيناه تراقبانها،
فقد فهم الرسالة،
وشعر بالسكين يخترق قلبه.
ربما إذا أصابته جسديًا لكان أهون عليه
ولكن هكذا...
لا يدري لم شعر بأن قطع صورته بهذه الكيفية قد يكون فالًا سيئًا؟
وللحظة لام نفسه لأنه اختار أن يضع صورتهم.
فيم كان يفكر؟
كانت الصورة ستُقطع عاجلًا أو آجلًا،
ولكن ليس بهذه الطريقة.
ظل يطالعها للحظات انتبهت فيها لنفسها وما فعلته
فهرعت إلى غرفتها لتهرب منه إلى دموعها
وصوت خافت في زوايا قلبها يلومها على ما فعلت

***

ظل متجمدًا في موقعه لبرهة حتى بعد أن غادرته
ظل يحدق في الفراغ الذي خلفته وشيطانه يهتف به "امنحها ما تريد وطلقها..لقد أهانتك ولا يمكن أن تصبر على تلك الإهانة."
ليدافع قلبه عنها "لا تقلل من حجم جرحها. فهي لم تكن لتتأثر من عودة (سمر) لولا حبها لك"
عاد ببصره إلى الكعكة وصورته المنفصلة عنها وكاد يدخل في جدل جديد أنقذه منه صوت والده الواثق ـ"(طارق)...هل ستقف عندك طويلًا؟"
حينها انتبه لوالده فالتفت إليه قائلًا بابتسامة شاردة ـ"آسف يا

والدي...سأحضر طبقي وأجلس معك لنتحدث."
نهض والده بوقار وهو يقول له ـ"سنتحدث بالتأكيد ولكن ليس الآن. اجلس أنت مع أبناء أخيك وراجع دروسهم كما اتفقت معهم. وغدًا أنتظرك في مسجد القرية لنصلي الجمعة سويًا إن شاء الله، وبعدها بيننا حديث طويل."
عقد (طارق) حاجبيه وهو يقترب من والده مستفهمًا ـ"القرية؟! خيرًا إن شاء الله. ولماذا لا تبيت معنا الليلة و...".
قاطعه والده بإشارة حازمة من كفه قائلًا ـ"لقد أنهى السائق المشتريات وينتظرني أسفل المنزل، وأنت تعلم أنني لا أستطيع المبيت بعيدًا عن بيتي ومزرعتي. فلابد أن يحضر العمدة صلاة الجمعة في المسجد الكبير كالعادة، وإلا ظن الرجال أنني مريض."
التقط كف والده يقبل ظهره باحترام وهو يقول بحب ـ"أدام الله عليك صحتك وأطال عمرك في طاعته. سأكون عندك مبكرًا بإذن الله لنذهب سويًا إلى المسجد."
ربت والده على كتفه في حنان قلما يظهره وهو يقول بهدوء ـ"بارك الله فيك يا بني. سأذهب الآن واعتن أنت بأسرتك."
رافقه حتى سيارته ولم يتحرك من موقعه إلا حينما غابت السيارة عن ناظريه،
حينها عاد ثانية إلى الشقة وعلامة استفهام كبيرة فوق رأسه...
ترى لماذا يريدني أبي في القرية؟

*****

(٣٤)

انطلق يقود سيارته بشرود في طريق العودة من قرية والده إلى القاهرة وصدى حديثهما الأخير يتردد في ذهنه ويطبق على أنفاسه حتى يكاد يخنقه

فبعد أن أديا صلاة الجمعة في المسجد الكبير كما اتفقا، عاد معه إلى منزله، أو بالأحرى الفيلا الأنيقة التي أقامها من طابقين وسط حديقة كبيرة،

وهناك أصر والده على أن يتناولا الغذاء أولًا من يدي زوجة السائق، وكأنه كان متأكدًا أن الحديث قبل الغذاء سيقضي على ما تبقى من شهية ولده.

وبعد أن وصل ترقبه إلى مداه، تحدث العمدة أخيرًا،

فابتدره قائلًا بهدوء ـ"ماذا ستفعل مع (هالة)؟"

حينها أدرك أن الهدف من هذه الزيارة هو مناقشة حياته الخاصة، وقفز إلى ذهنه تساؤل مفاجئ عما إذا كان والده رأى ما فعلته (هالة) بالأمس أم لا.

لكنه أجاب والده بكل الهدوء الذي توافر لديه في تلك اللحظة قائلًا ـ"لا شيء. لقد تركت لها المنزل منذ عودة والدتها لأمنحها فرصة تهدأ فيها قبل أن..".

قاطعه والده قائلًا بحزن غامض ـ"أتدري ماذا قال (هاني) لأمه وأنت تحادث صديقك هاتفيًا؟ لقد احتضنها وقال 'لولا أن القادم أخي لقتلته لأنه يضايقك وأنا لا اسمح لأحد بأن يضايقك'. هل تتخيل ذلك؟ طفل في السادسة يتحدث بهذا الغيظ عن أخيه القادم لأنه تخيله سبب ضيق أمه، فما بالك إذا اكتشف أن عمه الوحيد الذي يعشقه هو سبب هذا الضيق؟"

اتسعت عيناه بصدمة، وحار للحظات في الرد على والده قبل أن تعود إليه الكلمات باهتة وهو يقول بشرود ـ"ألهذا قلت لي إنني أضعت أهم

مشهد؟"
ربت والده على كتفه قائلًا بتعاطف ـ"اتق الله في أخيك الراحل وزوجته وأبنائه و..".
قاطعه بحدة تختلف عن طبعه الهادئ واحترامه لوالده وهو يهب من مقعده هاتفًا ـ"(هالة) لم تعد زوجة (حازم). إنها زوجتي أنا وتحمل طفلي أنا. علاقتها بـ(حازم) كزوج انتهت منذ وفاته."
غامت عينا والده بسحابة حزن قاتمة انعكست على صوته الذي تهدج لمجرد ذكر ولده الراحل وهو يقول بخفوت ـ"رحمه الله."
وكأنما أعاده صوت والده الحزين إلى هدوءه فعاد يجلس بالقرب منه ويقبل ظاهر كفه في احترام قائلًا ـ"آسف لانفعالي يا والدي. لم أقصد أن يرتفع صوتي عليك. سامحني."
ربت والده على كفه قائلًا بتفهم ـ"أدرك يا ولدي صعوبة الموقف. لكنني لا أستطيع الوقوف صامتًا أمام ما يحدث. ألم تلحظ كيف اختلفت (هالة) عن ذي قبل؟ ألم تلحظ اختفاء ابتسامتها وتزايد نظرة الحزن في عينيها. لقد منحها الهم عمراً يفوق عمرها بعشر سنوات على الأقل بعد أن كانت تبدو كفتاة لم يسبق لها الزواج. (هالة) في تدهور جسدي ونفسي مستمرين، ولن أسمح بالمزيد من ذلك. وإذا حدث لها مكروه فلن تخسر زوجة وطفلًا فحسب، بل ستخسر أبناء أخيك أيضًا لأنهم سيلقون عليك باللوم في ذلك بشكل أو بآخر."
التقت عيناه بعيني والده وهو يقول بصوت يخنقه الضيق ـ" ألم تلحظ أنت كل ذلك في وجهي؟ أنا أشعر بالضياع يا والدي منذ تركت (هالة) والأولاد. لقد أصبحوا حياتي كلها، ولم أعد أستطيع الحياة دونهم."
قال والده بنفس الضيق ـ"لكنك ستضطر إلى ذلك بشكل أو بآخر."
عقد حاجبيه بتساؤل وهو يراقب شفتي والده التي ألقت قنبلة شديدة التفجير في وجهه،
فقد أضاف والده بحزم ـ" امنح (هالة) ما تريد يا ولدي. طلقها واتركها لأبنائها، فهم أولى بها."

للحظات ظل يحدق في والده بـذهول قبـل أن يقـول باسـتنكار ــ"للمرة الثانية تطلب مني نفس الطلب، وكأنني لست ولدك. دفعتني إلى تطليق (سمر) في البداية لأنها لا تنجب. وهـا هـي (هالـة) تحمـل طفـلي، ومـع ذلك تطلب مني أن أطلقها؟ لماذا؟"
أجابه والده بهدوء حـازم ـ"لأنني لا أسـتطيع المخـاطرة بفقـد أحفـادي وأمهم. يكفيني فقدان ابني البكر، ولابد أن أعتني بأمانته. لقـد سـلمتك هذه الأمانة بثقة، لكنك لم تُجد رعايتها."
حينها فقد سيطرته على أعصابه تمامًا وهو يهب ثانية من مقعده ويحرك ذراعيه في الهواء قائلًا بحنق ـ"لا تستطيع المخاطرة بأمانـة ابنـك الراحـل لكنك تستطيع المخاطرة بابنك الباقي، أليس كذلك؟ تتحدث عـن أمانتـه وكأنها صندوق ثمين وضعته أنا في ركن مهمل حتى كسته الأتربـة، ولـيس كأنها مسؤولية أرغمتني عليها آنذاك. أرغمتنـي عـلى الـزواج مـن أرملـة شقيقي وأطعتك كـيلا ابتعـد عـن أبنائـه. أطعتـك وأجلـت حلمـيٍ في أن تكون لي زوجتي الخاصة. وجدتني أهتم بزميلة عـلى النقـيض تمامـا مـن (هالة) لأعيش معها حياتي باختياري. ربما كنت معجباَ بـ(سمر) قبل وفاة (حازم) وأردت أن أخطبها بالفعل، لكنني ازددت تعلقًا بها منذ فـاتحتني في أمر زواجي مـن أرملـة أخـي بمجـرد انتهـاء عـدتها. لم استسـغ تحـول علاقتي بـ(هالة) من خانة زوجة الأخ إلى خانـة الزوجـة، وظلمتهـا كثـيراَ رغمًا عني. أتدري لماذا؟ لأنه من الصعب أن يُجبر رجل بالغ مسؤول على شيء ما، حتى وإن أراده في زوايا قلبه. لكنني أقنعت نفسي بهذه الحياة، وتعايشت معها بشكل أفضل بعـدما صـارحت (هالـة) بحقيقـة علاقتـي بـ(سمر)."
صمت قليلًا ليزدرد لعابه الـذي جـف مـن التـوتر قبـل أن يضـيف في ألم ـ"كنت مستعدًا للبقاء مع (سمر) حتى بعد معرفتي بعقمها. كنت ألهـي نفسي عن عقمها بوهم الحب. لكنهـا كانـت تتوقـع موقفـك، لـذا أصرت على الطلاق. أصرت عليه بطريقة جعلتني أوصد قلبي في وجهها. كلاكـما أصر عـلى الطـلاق دون أن يهـتم بمـا يعنيـه ذلـك لي. ذبحتنـي أنصـالكم

الباردة بلا رحمة وأنا ممزق بينكما حتى كدت أفقد مستقبلي. واليوم، بعد أن وجدت طريقي مع (هالة) وتعافيت من صدمتي السابقة تكرر طلبك لأطلقها؟ على جثتي."

ذُهل الحاج (حفني) من لهجة ولده العصبية التي لم يشهدها من قبل، لكنه هتف به في حزم ـ"ماذا تعني؟"

خلل شعره بأصابعه كعادته وقت التوتر قائلًا ـ" أعني أنه يؤسفني أن ارفض طلبك، ولكنني لن أتنازل عن (هالة) إلا في حالة موتي."

عقد والده حاجبيه قائلًا بحيرة ـ"ماذا دهاك يا (طارق)؟ إنك لم تعص لي أمرًا قط."

لاح شبح ابتسامة ساخرة على طرف شفتي (طارق) وهو يجيبه بمرارة ـ"من الطبيعي أن أتمرد. دخلت كلية الطب بناء على رغبتك بعدما أصر (حازم) رحمه الله على دخول كلية الهندسة. تخصصت في الجراحة بناء على رغبتك رغم موافقتك على إصرار (حازم) على دراسة هندسة النفط. رفضت بعثة إتمام دراستي في الخارج بناء على رغبتك رغم موافقتك على سفر (حازم) للعمل بالخارج. تزوجت (هالة) بناء على رغبتك وطلقت (سمر) أيضًا بناء على رغبتك. دائمًا كنت تسمح لـ(حازم) بما يريد، وتجبرني أنا على ما تريد. بالله عليك ما الذي فعلته في حياتي بناء على رغبتي أنا باستثناء زواجي من (سمر)؟ لماذا تحرمني الآن من حقي في الاعتراض وأن أعيش حياتي كما أريدها؟ كيف يُعقل أن أقترب من السابعة والثلاثين دون أن افخر باختياراتي وحريتي وأنا رجل، بينما تتمتع فتيات بحرية أكبر من ذلك؟ أتريد مبررات أخرى لتمردي أم تكفيك هذه؟"

شعر الحاج (حفني) بمرارة كلمات ابنه الأصغر وملامح الألم المرتسمة على وجهه،

ولأول مرة يلحظ الإرهاق الجسماني والنفسي اللذان ارتسما على ملامح ابنه الشاب وتحت عينيه، وجعلته بالفعل يبدو وكأنه تجاوز الأربعين

حينها نهض بكل وقار مقتربًا من ابنه وربت على كتفه بتعاطف قائلًا

ـ"منذ صغرك وأنت تميل إلى الهدوء والطرق السلمية، بينما كان شقيقك رحمه الله مثابراً طيلة حياته. كنت أعلم بقدراتكما العقلية المتفوقة، ولهذا أردت أن أدفعكما إلى الأمام دوماً. (حازم) رحمه الله كان يعرف ماذا يريد دائماً وكان مستعداً للقتال من أجل تحقيق أهدافه. أما أنت فكنت تتقبل دوماً إرشاداتي وتنفذها دون جدال. لذا كان من الطبيعي أن أرسم لك مسار حياتك طوال الوقت كيلا تتوقف في المنتصف أو تفقد حماسك."

أدار عينيه لتلتقي بعيني والده قائلًا بسخرية مريرة ـ"إذًا كنت تراني عديم الأهلية وغير جدير بالثقة، ولهذا حركتني كقطع الشطرنج كما يحلو لك. وأنا أطعتك بكل سذاجة كيلا أكون الابن العاق."

هتف به والده مدافعًا ـ"أنا لم أقل ذلك. لقد ربيت رجالًا يُعتمد عليهم يدركون قيمة العمل والنجاح والمسؤولية. كل ما هنالك أنك لم تحدد حلمك منذ البداية، ولهذا تطوعت أنا لأرسمه لك. ولو كان اختياراتي لك مخطئة لما نجحت كجراح، ولما سعدت مع (هالة)."

ضاقت حدقتاه وهو يتأمل والده بتمعن ويعترف في قرارة نفسه بذكاء والده ومكره،

فهاهو يربط تحريك حياة ولده بنجاحه في العمل وحتى في زواجه الذي لم يكن متحمسًا له.

ورغم ذلك، خرجت كلماته الجافة وهو يقول ببرود ـ"ومن قال إنني لم أحدد حلمي؟ ربما كانت دراسة الطب حلماً لأغلب الشباب، لكنها لم تكن حلمي...لم تكن حلمي الأول على الأقل. هل لاحظت يوماً شغفي بكتب الفضاء؟ هل لاحظت صورة عالم الفضاء المصري الدكتور (فاروق الباز) على مكتبي؟ هل سألتني يوماً لماذا أضعها؟ كنت أضعها لأنه كان مثلي الأعلى، ولأنني أردت أن أكون مثله. لكنني كما تقول كنت مسالمًا، ولم أحارب من أجل هذا الحلم الذي ضاع كأحلام كثيرة غيره."

قالها وهو يبتعد عن والده الذي وقف ذاهلًا للحظات قبل أن يهمس بصوت متحشرج ـ"عالم فضاء؟ ابني عالم فضاء؟! لماذا لم تصارحني

بأحلامك يا ولدي؟ لماذا لم تصر عليها؟"
تنهد في عمق وهو يولي والده ظهره، ثم ما لبث أن استدار يواجهه قائلًا ـ"لم أصارحك لعلمي بأنني لست (حازم). منذ طفولتنا و(حازم) هو ابنك المفضل لأنه يشبهك، وأنا ابن والدتي المفضل لأنني أشبهها. ربما استطعت تحقيق أحلامي إذا طال عمر والدتي قليلًا لأنها كانت ستدعمني، لكنها إرادة الله. صدقني يا أبي أنا لا ألومك على ماضٍ انقضى. فأنا سعيد بحياتي الآن حتى وإن لم أخترها. لكن أرجوك لا تنه حياتي بطلب جديد. بالله عليك لا تقتلني بطلب الطلاق."
التقط والده شهيقًا عميقًا حبسه في صدره للحظات قبل أن يطلقه قائلًا في ضيق ـ"لماذا أعدت (سمر) إلى عصمتك؟"
شد قامته باعتداد وهو يجيبه بهدوء ـ"لدي أسبابي."
سأله والده بلمحة من العصبية ـ" وما هي أسبابك؟ كيف أدافع عنك أمام زوجتك وأنا لا أعرف مبرراتك؟"
هز رأسه بإصرار قائلًا ـ"لن أصرح بأسبابي ولن أجرح (سمر) بالحديث عنها خلف ظهرها. أشكرك لمحاولتك الدفاع عني، لكني لن أتحدث. وأعتقد أنه لم يعد هناك حاجة إلى المزيد من الحديث...".

***

خرج من ذكرياته على صوت أبواق السيارات المحيطة به وهي تستحثه على التحرك بعد تحول الإشارة إلى اللون الأخضر، وانتبه وهو يحرك سيارته إلى أنه اقترب كثيراً من منزله
وبالفعل لم تكد تنتهي خمس دقائق حتى كان يوقف سيارته أمام المبنى الذي توجد به شقته الخاصة مع (سمر).
وفي تكاسل ارتقى درجات السلم وأنامله تعبث بسلسلة مفاتيحه بشرود حتى اقترب من باب الشقة وفتحه ليجد أمامه مفاجأة
فأمامه، وجد حقيبة ملابس كبيرة وبضعة صناديق كرتونية فوق بعضها تسد -تقريباً- طريق الدخول والخروج.
وفي دهشة -وبعد محاولات عدة لشق طريقه- هتف بـ(سمر) قائلًا ـ"ما

كل هذا؟ هل سنترك هذه الشقة إلى مكان آخر دون علمي؟"
خرجت (سمر) من غرفة النوم وهي تحمل في صعوبة حقيبة ملابس أخرى وضعتها أرضًا وهي تلهث قائلة ـ"حمدًا لله على سلامتك. كنت أنتظرك منذ الصباح."
اقترب منها عاقدًا حاجبيه وهو يسألها بقلق ـ"خيراَ؟ ماذا حدث؟"
أزاحت خصلات شعرها المبعثرة عن وجهها وهي تحاول التغلب على لهاثها قائلة ـ"لا شيء. أعتقد أنه حان وقت حديثنا المؤجل."
تجاوزها إلى الردهة وجلس في إرهاق على أول مقعد صادفه وعيناه تجوبان أرجاء الشقة وتلاحظان اختفاء ما يخص زوجته من مقتنيات، ثم رفع عينيه إليها قائلًا ـ"ماذا تفعلين؟"
جلست على الأريكة المواجه له وحاولت أن تبدو طبيعية وهي تقول ـ"طلبت منك أن نتحدث سويًا منذ فترة ولكنك لم تكن مهيئًا للحوار، وأنا لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك. لذا أرجوك دعنا نتحدث الآن."
تراجع في مقعده محاولًا الاسترخاء وأشار بيده قائلًا ـ"تحدثي، أنا لا أمنعك. رغم أنك اخترت توقيتًا سيئًا."
تنهدت في عمق وهي تقول بخفوت ـ"ومنذ متى لم يكن التوقيت سيئًا؟"
عقد حاجبيه مستفهمًا دون أن ينطق فعادت تقول بضيق ـ"(طارق)..لقد انتهى السبب الذي أعدتني لأجله."
لم يجد بدًا من الاعتدال في جلسته وهو يسألها باهتمام ـ"ماذا تقصدين؟"
تنهدت ثانية وهي تقول بحزن وانكسار ـ"لا داعي للتظاهر بعكس الحقيقة. فأنا أدرك جيدًا أن عودتي إلى بيتك مؤقتة، وأن الهدف منها أن يتم الطلاق بشكل صحيح وبلا رجعة."
هم بالاحتجاج لكنها أشارت إليه بالصمت وهي تضيف بألم ـ"لا داعي للإنكار يا (طارق). لقد رأيت ذلك جليًا في عينيك منذ كنا معًا في دار الإفتاء. كنت مرغمًا على إعادتي، بل وظللت تنام على الأريكة أو غرفة الضيوف ولم تدخل غرفتنا ولو مرة واحدة. لم يخف علي تجاهلك لي

ورفضك الاقتراب مني وتعاملك الجاف معي. في البداية ظننت أنك لا تزال غاضبًا مني بسبب غبائي السابق، ولكن بعدما رأيت (هالة) وعرفت بأمر حملها أيقنت أنه لم يعد لي مكان في حياتك بعدما أضعت اتفاقنا."
تأملها للحظات قبل أن يزفر في قوة ويقول باتهام -"أنت التي أضعت مكانك في حياتي. كنت تعلمين جيدًا أنك وحدك زوجتي وأنني مستعد للتضحية بكل شيء من أجلك ورغم ذلك تركتني...بل وأهنتني أمام الجميع. أتنكرين أنني كنت نعم الزوج لك حتى يوم طلاقنا؟"
اختنق صوتها بألم وهي تقول بمرارة -"كنت نعم نصف الزوج. كنت معي بجسدك فقط، لكن عقلك وروحك كانا هناك مع (هالة) وأبنائها."
لوح بإصبعه محذرًا وهو يقول بحزم -"لا تنس أنهم أبناء أخي الراحل أيضًا وأقسم لك أنني لم أفكر في (هالة) كزوجة إلا بعد انفصالنا."
هتفت بمرارة -"لماذا كنت تقارنني بها دومًا إذًا؟ مجرد محاولة لإغاظتي؟"
أشاح بذراعه مدافعًا -"لقد كنت أحاول أن أجعلك..."
قطع عبارته فجأة حينما لم يدر كيف يكملها وأكملتها هي بسخرية تقطر مرارة قائلة -"أن تجعلني مثلها. لقد رأيت فيها الزوجة المثالية، وكي لا تفعل ما يعاقبك عليه ضميرك حاولت أن تجعلني مثلها كي أروق لك، لكن في أعماقك كنت معجبًا بكل ما تفعله (هالة). لقد أحببتها أكثر مما أحببتني -لو أنك أحببتني من الأساس. أنا بالنسبة إليك كنت محاولة للتمرد، محاولة لتحقيق شيء تريده أنت وليس والدك."
عقد حاجبيه هاتفًا باستنكار -"ماذا تقولين؟ أنا لم أحبك؟ كيف واجهت والدي والجميع بحبنا إذًا؟ كيف..."
قاطعته قائلة بصوت مختنق -"أنت لم تفعل ذلك حبًا فيّ؛ لقد فعلته رغبة في التمرد فحسب، ولو أن والدك كان ضد زواجك من(هالة) لتزوجتها كي تتمرد على أوامره. هذه هي الحقيقة يا(طارق)، للأسف. حبنا لم يكن من القوة التي حسبناها."
هم بالهاتف معترضًا فتابعت هي في سرعة قائلة، ودموعها تنهمر على

وجهها في غزارة ـ"لو كان حبنا قوياً لما انفصلنا، لما انتظرنا اكتشاف خطأ الطلاق حتى نعود ثانية، ولما أصبحت (هالة) أمًا لطفلك القادم. لقد أعدتني إلى عصمتك مجبراً بما قاله الشيخ وليس بدافع الحب، وهذا ما تأكدت منه طيلة الفترة السابقة. لقد رضيت بأن أكون نصف زوجة في البداية لعلمي بأنك تلعب دور الزوج معي أنا فقط، ودور الأب مع أبناء أخيك. أما الآن فستلعب هناك دور الأب والزوج معًا، وحينها سأحمل لقب زوجة دون زوج؛ دون زوج خاص بي وحدي."
وبأصابع مهتزة حاولت مسح دموعها المنهمرة وهي تواصل قائلة ـ"وجودي معك الآن سيعذبك و يعذبني، إذًا لا طائل منه لأنني أعلم جيدًا أن قلبك وروحك هناك معهم. لقد اتفقنا عند زواجك من (هالة) أن يكون زواجكما صورياً من أجل تربية الأطفال، وحيث أنك خالفت الاتفاق فمن حقي أن أطلب فسخ العقد بيننا للأبد. عد إلى زوجتك يا دكتور واتركني لو سمحت. طلقني يا(طارق)."
هاله مرأى دموعها الغزيرة، وشعر بانكسار عجيب بداخلها يختلف عن انكسارها يوم اكتشفت عقمها
شعوره هذا دفعه إلى الانتقال من مقعده ليجلس إلى جوارها ويمد يده في تعاطف ليمسح دموعها، إلا أنها نهضت مبتعدة عنه ومسحت دموعها بعصبية، فسألها بخفوت ـ"هل أنت واثقة هذه المرة؟"
أجابته بثبات ـ"نعم. لقد تهورت وهدمت ما بيننا يوم طلبت الطلاق لأول مرة. وعودتنا لم ينتج عنها سوى الآلام لي ولك ولـ(هالة). ما دمت تحبها وهي تحبك فلماذا تعذب نفسك وتعذبها وتعذبني معكما؟ طلقني يا(طارق) وعد إليها. أنا لا أقبل أن تكون لي ضُرة أو شريكة في زوجي وحبيبي، ولا أعتقد أن(هالة) قد تقبل بذلك."
تنهد في إرهاق وهو يعود برأسه إلى الخلف قائلًا بأسى ـ"(هالة) طلبت الطلاق هي الأخرى. تقول إنك أولى بي منها وإننا متحابان منذ البداية، وعلى هذا فلا مكان لها في حياتي."
اقتربت منه في هدوء قائلة ـ" هذا ما أوهمنا به أنفسنا ومن حولنا،

أكذوبة حبنا الكبير؛ لكن هناك خطأ ما، قد يكون في حبنا أو في زواجنا أو حتى في أسلوب تربية والدك لك ولأخيك، خطأ لا بد من تصحيحه الآن. عُد إليها يا(طارق)."

رفع رأسه ليواجهها وهو يسألها بضيق ـ"هل تعلمين لماذا طلبت (هالة) الطلاق؟ لأنني لم أخبرها بالسبب الحقيقي لعودتنا. لم أرد أن أجرحك ثانية. وللأسف هي تعتقد أنني مثلت عليها أكذوبة الطلاق حتى تنجب هي لي بينما أظل معك ننعم بحبنا. برأيك من المخطئ فينا؟ أنا أم هي أم أنت؟"

لمست كفه بتعاطف قائلة ـ"(طارق) كفى...إلى متى ستحمل نفسك فوق طاقتها؟ لقد كانت عودتنا دليلًا على نبل أخلاقك الذي أعرفه جيدًا، واليوم تؤكد ذلك بعدم حديثك عني في غيابي. ولكن كفى. لن اسمح لك بالمزيد من الضغوط على أعصابك. أنت بحاجة إلى لحظة صدق مع نفسك تتأكد فيها من أولوياتك، وأثق أن (هالة) ستكون على رأس هذه الأولويات. ليس فقط لأنها تحمل طفلك القادم، ولكن لأنك تحبها حقًا. هي أيضًا تحبك، ولولا غيرتها عليك ما تركتك لي. بالنسبة لها إما أن تكون لها وحدها أو تخسرك إلى الأبد."

تأمل ملامحها الهادئة بتمعن قبل أن يسألها بغتة قائلًا ـ"لماذا لا تصرخين؟ لماذا لا تطلبين مني الطلاق بصوت مرتفع وانفعال شديد كما فعلت في المرة السابقة؟"

سمحت لشبح ابتسامة بالتسلل إلى طرف فمها وهي تبتعد مجيبة ـ"لأنني أرى الأشياء بوضوح أكبر الآن. في المرة السابقة كان حزني هو سبب انفعالي، حزني لأنني عاجزة عن تحقيق حلمك وحلمي في أن يربطنا طفل. كنت منفعلة لأنني أفقد إنسانًا أحبه. ولكن بعد انفصالنا عرفت حقيقة مشاعري تجاهك، كما لا بد وأنك فعلت. حتى عودتنا لم تكن برغبة متبادلة منا، وإنما بدافع شرعي، وبالتالي خلت من أي حرارة متوقعة. لهذا طلبي الطلاق هذه المرة بمثابة...لا أدري كيف أصفها لكن...على أي حال يعتبر إنهاء لتعاسة ثلاث أزواج."

قالتها وهي تهم بالهروب إلى غرفتها لتتم ترتيب حقائبها حينما سألها بصوت خفيض ـ"ماذا تنوين بعد الطلاق؟"
التفتت إليه للحظات قبل أن تعود ببصرها إلى اتجاه الغرفة قائلة بصوت حاولت أن تجعله واثقًا ـ"سأرتب لتعاقدي الجديد. لقد أخبرتهم بأن لدي أسباب تمنعني من السفر الآن وهم يقدرون ذلك. وبعد انتهاء العدة سأسافر إن شاء الله إلى المستشفى الذي تعاقدت معه في الخليج."
هز رأسه متفهمًا ثم مط شفتيه للحظات قبل أن يهمس ـ"بالتوفيق إن شاء الله. يمكنك أخذ ما تريدينه من المنزل حسب قائمة المنقولات، وسيصلك مؤخر الصداق على حسابك بالبنك."
تمتمت بكلمة شكر موجزة وهمت باستئناف طريقها إلى الغرفة لكنها عادت فتوقفت واستدارت إليه وهي تلعب بأصابعها في توتر قائلة ـ"(طارق)...أريد أن أخبرك شيئًا أرجو ألا يجعلك تغير رأيك فيّ. قبل أن أقابلك كانت لدي شكوك غير مؤكدة باحتمال صعوبة الحمل، ولذا شجعتك على الزواج من(هالة). وبعد الزواج ماطلت في إعادة الفحوصات كيلا أحرم من سعادتنا. ظننت أنك ستنسى الإنجاب طالما رأيت أبناء أخيك يكبرون أمام عينيك. أعلم أنني كنت أنانية لكن هذا ما حدث. لقد أردت أن أخبرك كي أوقف تأنيب ضميري المستمر، وأرجو بعد أن عرفت الحقيقة أن نظل زملاء عمل وأصدقاء...فقط."
تأملها والدهشة تعقد لسانه للحظات شرد فيها بعيدًا قبل أن يعود بانتباهه إليها قائلًا بهدوء ـ"أنت طالق...طالق يا(سمر)."

*****

(٣٥)

انطلقت تهرول في طرقات المستشفى التي يعمل بها (طارق) بحثًا عن حميها والفزع يرتسم على محياها، وحينما وجدت بغيتها أخيرًا، وما أن وقع بصرها عليه حتى انخلع قلبها من موضعه في عنف وهبط إلى قدميها...

فحميها ذو البنيان القوي -رغم سني عمره الستون- كان شاحب الوجه حتى الهزال وعينيه منتفختين بشكل عجيب يوحي بكثرة بكائه، وهو الصلب رابط الجأش.

ابتدرته بسؤالها المنفعل المذعور ـ"ماذا بك يا عمي؟ لقد أتيت فور أن هاتفتني. كيف تشعر؟"

استند الرجل إلى ذراعها وقال في ضعف وهي تساعده في الجلوس على أقرب مقعد ـ"أنا على وشك الإصابة بذبحة صدرية ثانية."

شهقت في عنف قائلة ـ"لا تقل هذا يا عمي؛ ستكون بخير إن شاء الله. أين أطباء هذا المستشفى؟ ألا يعلمون من أنت؟"

تشبث حميها بذراعها وهو يقول بصوت مختنق ـ"(طارق)."

عقدت حاجبيها في ضيق حينما سمعت اسمه، ثم ما لبثت أن ازدردت لعابها وقالت في هدوء ـ"سأستدعيه لك حالًا و..."

قاطعتها ضغطة قوية من يد حميها رغم ضعفه الواضح وهو يهتف بها في ألم ـ"(طارق) في خطر؛ إنه يموت، ولا أستطيع تحمل مثل هذه الصدمة."

شهقت في قوة رغمًا عنها وهي تهتف بهلع ـ"ماذا به؟ ماذا حدث؟"

طفرت عينا العجوز بالدمع وهو يقول بحنان أبوي ـ"لا أدري، إنه ينزف. لقد اتصل بي زميله وأخبرني بما حدث، وهو الآن في غرفة العمليات. أخشى ألا يستطيعوا إسعافه."

وضعت يدها على فمها في ذعر بالغ قبل أن تسأله والدموع تخنق صوتها ـ"هل فقد الكثير من دمائه؟ وما هو سبب النزيف من الأساس؟"

قلب الرجل كفيه في حيرة قائلًا -"لا أدري؛ لم أره منذ أسبوع منذ كان لدي في القرية. وصديقه يقول إنه كان جالسا معه وفجأة وجده ينزف من أنفه في غزارة قبل أن يفقد اتزانه ويقع فاقدًا الوعي، ولا أعرف أكثر من ذلك."

ارتفعت دقات قلب (هالة) حتى صارت كدقات الطبول في أذنيها وهو تهمس في ضراعة قائلة -"يا إلهي...اللهم الطف بنا في قضائك وقدرك."

لم تكد تتم دعائها حتى لمحت أحد زملاء(طارق) قادمًا نحوهما فابتدرته في لهفة قائلة -"كيف هو الآن؟"

ارتسمت ابتسامة مرهقة على وجه الطبيب وهو يطمئنها قائلًا -"الحمد لله، لقد أعطيناه دمًا بدلًا عما فقده وقمنا بكي الشعيرات الدموية التي كانت السبب في النزيف. لا داعي للقلق. إنه الآن في غرفته ويمكنكم الاطمئنان عليه بعد حوالي ساعة من الآن."

شكره والد (طارق) بحرارة وهو يدعو له بالنجاح في حين سألته (هالة) بقلق -"ماذا حدث بالضبط؟ أنت صديقه الذي أجرى معه جراحة ابني(هيثم). دكتور (سامي) أليس كذلك؟ أصدقني القول... هل هو في خطر؟"

قال (سامي) بهدوء شديد -"لا تخافي؛ سيكون بخير إن شاء الله، وإذا لم يكن لديك ما يمنع أريد التحدث معك بعيدًا عن والده."

رمقت حميها بنظرة جانبية مترددة وهي تشعر بتسارع دقات قلبها من التوتر، قبل أن تمط شفتيها قائلة -"وهو كذلك. أنا بحاجة لمعرفة ما حدث له."

***

تبعته إلى مكتبه حيث جلسا وقال بهدوء يميز شخصيته -"أنا(سامي طولان) زميل دراسة وعمل لـ(طارق) وتقريبا صديقه الوحيد. صداقتنا تعود إلى الطفولة لأننا كنا جيرانًا أيضًا، على اعتبار أن منازل الأرياف كلها جيرة واحدة. وأنت بالطبع تعلمين أن(طارق) كتوم للغاية فيما يتعلق بحياته الخاصة، لذا لم يخبرني بأمر زواجكما إلا يوم جراحة (هيثم) ابنك.

بالطبع كان الخبر مفاجئًا لي خاصة وأنني أنا من شجعه على العودة إلى (سمر) وقربت وجهات النظر بينهما."
عقدت حاجبيها وحاولت ألا تبدو الغيرة في صوتها وهي تسأله ـ"بالمناسبة، أين هي؟ أليس من المفروض أن تكون مع(طارق) الآن؟"
ازدرد(سامي) لعابه قبل أن يقول ـ"لقد انتقلت (سمر) للعمل في مستشفى آخر منذ حوالي أسبوع."
أومأت برأسها متفهمة في صمت لم يعكس علامات الاستفهام الكثيرة بداخلها، ثم ما لبثت أن سألته في اهتمام ـ"ماذا حدث لـ(طارق)؟"
تنهد(سامي) في عمق وهو يقول بحرج ـ"اسمحي لي يا سيدتي أن أتطرق لموضوع شخصي إلى حد ما. لقد كنت آخر من تحدث إلى(طارق)، وما رواه لي يعطيني الشجاعة لأن أحدثك بصراحة."
عدلت من وضع حجابها حول رأسها بحركة عفوية وهي تسأله ـ"أي موضوع؟"
تنحنح(سامي) في تردد ثم ما لبث أن سألها ـ"في البداية...احم...إنه سؤال خارج الموضوع الأساسي لكن...هل عرفت يومًا أن ضغط دم (طارق) مرتفع؟"
عقدت حاجبيها ثانية وهي تسأله في حيرة ـ"ضغطه؟! لقد كان دومًا يقول لي إن ضغط دمه معتدل على عكسي تمامًا؛ هذا عندما كان يفحص ضغطي في بدايات الحمل وكان يقول إن عصبيتي هي سبب ارتفاع ضغطي وبالتالي نوبات الصداع التي كانت تداهمني، ولكن ما السر وراء هذا السؤال؟"
أجابها بهدوء ـ"كل ما حدث لـ(طارق) اليوم كان سببه ارتفاع ضغط دمه المفاجئ؛ ارتفاع غير عادي كان من الممكن أن يؤدي إلى انفجار في المخ لا قدر الله، لكن نزيف الأنف أنقذه والحمد لله."
سألته وحيرتها تتزايد ـ"وما سبب ارتفاع ضغطه إلى هذا الحد؟"
تنهد في عمق قبل أن يجيبها قائلًا ـ"مدام (هالة)، أنت تعرفين جيدًا مدى حساسية (طارق)؛ فهو لا يحب أن يجرح أحدًا ولا أن يجرحه أحد.

وقبل أن ينزف كـان يحـكي-أو بـالأحرى يشـكو- مـن الضـغوط النفسـية القوية المحيطة به؛ وصدقيني أكثر شيء كان يؤلمه هو ابتعادك عنه."
ثم تابع في سرعة ـ"كما أخبرتـك مـن قبـل فـ(طارق) كـان يخفـي عنـي زواجكما كعادته الكتومة، ولم يكن ليتحدث معي اليـوم إلا لأنـه لم يعـد يحتمل كبت ضيقه ومشـاعره أكـثر مـن ذلـك، وهـذا يعنـي أن (طـارق) بالفعل وصل حدًا لا يتحمله بشر. لا تتخيلي مدى حزنه حين كـان يـروي لي ما حـدث في زياراتـه الأخـيرة لمنـزلكم. في المـرة الأولى حيـنما فصـلت صورته عن صورتكم في الكعكة، والمرة الثانية أمس عنـدما أتى كـما وعـد الأطفال ليراجع معهم دروسهم كعادته كل أسبوع وطلب رؤيتك ولكنك رفضت، بل وأدرت وجهك بعيدًا عنه حيـنما دخـل حجرتـك، ولم تنطقـي بحرف واحد ردًا على أي مما قاله. موقفك هذا كان يمزقه من الداخل."
لاحظ بعض الضيق على وجهها الذي تضرج بحمرة حرج خفيفة زاد مـن وضوحها حجابها الأسود الأنيق الـذي عدلتـه بارتبـاك عـلى رأسـها وهـي تخفض وجهها أرضًا، فتنحنح بحرج هو الأخـر قـائلًا ـ"لا أدري هـل مـن حقي أن أقول هـذا أم لا..لكن(طـارق) يشـعر بالـذنب الـذي ارتكبـه في حقك وضميره يؤرقه في كل وقت؛ لقد كان منهارًا للغايـة وهـو يحـدثني حتـى أننـي لاحظـت شـيئًا غريبـًا أخـافني، لقـد كانـت يـداه ترتجفـان بشكل...بشكل مرعب. من الممكن أن يفقد مستقبله كجراح لو استمرت هذه الحالة طويلًا معه."
أعـادت كلماتـه إلى ذهنهـا مشـهد (طـارق) حيـنما كـان منهـارًا بعـد طلاقه(سـمر)، ووجـدت نفسـها ترفـع وجهها لتسـأله بغتـة ـ"هل عـاد للتدخين؟"
اتسعت عيناه في دهشة وهو يسألها ـ"كيف عرفـت؟ لقـد كـان يـدخن بشراهة بالفعل قبل أن ينزف."
مطت شفتيها قائلة ـ"إنه يعود دومًا للتدخين كلما واجه موقفًا صعبًا."
هز رأسه في أسف قبل أن يقول ـ"أرأيت كم هو بحاجة إليك إلى جواره؟ بل إلى أبنائه أيضًا؟ إنه بحاجة للشعور بأن لديه أسرة خاصة به تحبه كما

يحبها."
كاد لسانها يقول في سخرية 'لديه أسرة أخرى بالفعل'، وضغطت فكيها كي لا تنطق. لكنها لم تستطع منع نفسها عن الانفجار وهي تقول بتهكم ـ"ألا ينبغي أن تكون زوجته الأخرى إلى جواره الآن؟ فهما على الأقل متحابان."
تنهد (سامي) في ضيق مجيبَا ـ"للأسف لست مخولًا بأن أخبرك الأسباب الحقيقية خلف عودتهما، أو بأن أخبرك بوضعهما الآن. فهذه أسرار (طارق) وله وحده حق الإفصاح عنها. كل ما استطيع قوله هو إنني لم أكن اعلم بزواجه منك حينما سعيت وزوجتي لإعادتهما وظننا أننا نسديهما صنيعًا سيدركانه فيما بعد. حتى حينما كنت أرى ضيق (طارق) من العودة إليها لم أتخيل أن هذا بسبب زواجكما. وصدقيني هو لم يعترف لأي شخص بأسباب العودة الحقيقية حتى لا يجرح (سمر)."
رفعت احد حاجبيها قائلة في كبرياء جريح ـ"واضح أنه لم يرد جرح مشاعرها، أما مشاعري أنا فلا بأس أن يجرحها، بل لا داعي للاهتمام بها من الأساس."
تنهد (سامي) في عمق وهو ينظر إلى كفيه للحظات قبل أن يرفع وجهه إليها قائلًا ـ"هذا ما تظنينه. لو أن مشاعرك لا قيمة لها عند (طارق) لما كان بين الحياة والموت اليوم."
ثم عدل من وضع نظارته الطبية على أنفه بارتباك وهو يحاول السيطرة على مشاعر جاش بها صدره ودفعت بغصة في حلقه ليخرج صوته مختنقًا ـ"لقد كنت على وشك فقدان صديقي الوحيد اليوم وأنا أقف عاجزًا مشلولًا من الصدمة. لم أتصور أن غياب امرأة من حياته قد يدمره هكذا، حتى حينما ترك (سمر) لم يكن بهذا الضعف. ألا يعني هذا لك شيئًا؟ ألا يعكس أهميتك في حياته؟"
شعرت بثقل غريب يجثم على صدرها ويكتم أنفاسها وهي ترى الصدق واضحًا في عينيه وصوته، فتنحنحت لتجد صوتها وهي تقول بارتباك ـ"أنا لا انتقم منه، ولكن جراح قلبي منه أعمق من أن أتغاضى عما فعل بي."

ثم تابعت وهي تعتصر كفيها في تـوتر ـ"لقد اهتـزت صـورته في عينـي وأخشـى ألا تعود لسابق عهدها أو أن يلحظ أبنـائي ذلـك في عينـي. لـذا أتجنب لقاؤه."
قـال بخفـوت حـزين ـ"ألا تخشـين أن تفقديـه إلى الأبـد؟ وقتهـا كيـف ستواجهين نفسك وأولادك وطفلكما القادم؟ ربما اخطأ (طارق) في حقـك، ولكنه نادم. بل إن ندمه ينهشه من الداخل ويقضـي عليـه. ألا يسـتحق منك أن تمنحيه فرصة ثانية؟ ألا يستحق أطفالـك هـذه الفرصـة في بيـت طبيعي بين أب وأم كسـائر الأطفـال؟ أنـا لا أتـدخل في حيـاتكما، لكننـي أقول ما يمليه علي ضـميري كانسـان وكصـديق لا يحتمـل رؤيـة صـديقه يتعذب."
ثم رفع عينيه وهو يضـيف بحـزم ـ"ولست في حاجـة لأن أنبهـك إلى أن (طارق) كان في حالة موت مؤكد اليوم إذا أصيب بنزيـف في المـخ؛ ومـن الممكن أن يتعرض لنفس الحالة مـرة أخـرى وتكـون نهايتـه، خاصـة مـع استمرار الضغوط النفسية المحيطة به."
خفق قلبها في قوة وهي تسـمعه بـاهتمام حتـى أنهـا نهضـت تهتـف في لهفة دون أن تشعر قائلة ـ"أريد أن أراه الآن."
تأملها قليلًا ثم أشار لها بيده قائلًا ـ" وهو كذلك، لكن أرجـو ألا تحدثيـه في أي من أمور الخلاف بينكما. من المهم أن يبقى في حالة هدوء أعصاب تام كي لا يرتفع ضغط دمه ثانية. أهذا صعب عليك؟"
هـزت رأسـها نفيـا وتبعتـه إلى غرفـة(طارق) ودقـات قلبهـا تتزايـد، وفي داخلها تتصارع قوتان؛ بل في داخل قلبها لو أردنا الدقة.
فقد كان أحد شطري قلبها يهتف باسم (طـارق) في لوعـة؛ بيـنما يـرفض الشطر الآخر مجـرد دخـول الغرفـة، ومـبرره في ذلـك أنـه لا يسـتطيع أن يسامح من تسبب في ذبح بنصل بارد.
كانت حالة فريدة من نوعها؛ فالمعتاد أن يتصارع العقـل والقلـب، لا أن يتصارع القلب مع نفسه. لكن (هالـة) اعتـادت أن تكـون مختلفـة فلـم تعر بـالًا لهـذه الحالـة النـادرة، ربمـا لأنهـا لم تعتبرهـا نـادرة كـما يراهـا

الآخرون.
فقلبها هو الذي أحب (طارق) وكان ضحية هذا الحب.
قلبها هو الذي ذرف دمعاته حين كان (طـارق) بعيـدًا عنـه وذرفهـا أكـثر حين اقترب.
قلبها هو الذي عشق (طارق) حين لم يكن له ويـرفض الآن أن يكـون لـه شريك فيه.
ياه، إنه قلبها ثانية،
قلبها ثانية يوقعها في المشاكل، بل هو أصل المشاكل.
هو أصل الخلاف بينها وبين (حازم) رحمه الله،
والآن...هل ستتركه يعمـق المشـاكل بينهـا وبين(طـارق) حتـى يصـير هـو الأخر في رحمة الله؟
وفي حزم شديد فتحت باب الغرفة لتنهي الصراع، صراع قلبها.

*****

(٣٦)

رغم برودة مقبض الباب المعدني، لم تشعر بها، ربما لأن كفها كان أكثر برودة منه وهي تدلف إلى غرفة (طارق) تقدم خطوة وتؤخر أخرى، ورائحة مطهر قوية تزكم أنفها وتثير أعصابها. واستغرقتها مشاعرها للحظات جعلتها تجفل حين همس(سامي) قائلًا -"كما اتفقنا، حافظي على هدوء أعصابه وسأنتظرك بالخارج."

أومأت برأسها في صمت وبصرها معلق بفراش(طارق)، أو بالأحرى بوجهه.

فالوجه الذي طالما عشقت عينيه وابتسامته الصافية كان شاحبًا مسبل الأجفان.

لم يكن شاحبًا فحسب، بل ناحلًا أيضًا.

لم يكن ذات الوجه المضيء،

كان وجهًا آخر وضعته الهموم والأحزان بدلًا من وجهه المألوف.

واليد التي طالما استعذبت لمستها الحانية كانت راقدة إلى جواره وقد غُرست فيها أنابيب المحلول والدم لتعيد إليه بعضًا مما فقده.

وللحظة، قفز إلى عينيها مشهده وهو يضع أنبوب المحلول بهدوء ورقة في ذراعها حينما فقدت الوعي آخر مرة أمامه.

لقد حملها بين ذراعيه إلى فراشها وظل إلى جوارها حتى أفاقت.

كان يتعامل معها بكل رقة وحنان رغم عنفها معه.

الحنان....

لطالما كان الحنان نقطة ضعفها،

كما كان نقطة ضعفها أمامه.

لطالما افتقدت حنان الأب واعتادت ذلك، وكان أملها في زوج حنون لكنها لم تجد مبتغاها في (حازم).

وحينما أقنعت نفسها بأن تكون مصدرًا للحنان بدلًا من أن تتلقاه، اقتحمها (طارق) بحنانه الفطري وقلبه الكبير.

اقتحم كل حصونها دون أدنى مقاومة منها،
ووجدت نفسها فجأة أسيرة حنانه وصوته الدافئ.
وجدته نبعًا صافيًا تنهل منه دون ارتواء،
نبع عوضها حنان كل الرجال،
حنان الأب والأخ والصديق.
وجدت في حنانه عوضًا عن ابتعاده عنها كزوج وارتضت ذلك، وتأقلمت معه،
بل وساعدته بطيب خاطر كي يحقق حلمه في زوجة تخصه وحده،
وظلت طيلة زواجه المرفأ الذي يلجأ إليه كلما كان ضائق الصدر.
لم تحاول اجتذابه إليها والحصول على حقوقها كاملة رغم حاجتها إليه،
وارتضت أن تكون أخته وصديقته والكتف الذي يتكئ عليه كما كان هو الكتف الذي تتكئ عليه.
وأخيرًا أتاها...
أتاها معترفًا بحبه وحاجته إليها،
ولمحت الصدق في عينيه.
وحتى لو لم تلمحه كانت ستستجيب له،
كيف لا وحلمها يتحول إلى حقيقة!؟
كيف لا وهو يطلب منها أن يكون زوجًا وحبيبًا، وهو في الأساس حبيبها الوحيد!؟
كيف لا وهي تتوق إلى أن يصبح نبع حنانه ومعين قلبه ملكًا لها وحدها!؟
هل كانت أنانية؟
ألا يحق لها أن تستمتع بحبه ودفء قلبه؟
أليس زوجها وأول من أحكم سيطرته على قلبها؟
ليس قلبها فحسب،
بل قلب أبنائها أيضًا...

قفزت ذاكرتها إلى يوم بعيد...في بداية زواجهما
يومها كان صراخ ابنتها الصغيرة يرج أرجاء المنزل وهي لا تدري ما بها.
حاولت هي وأمها إسكات الصغيرة بشتى الطرق دون جدوى،
حتى شقيقاها ظلا يتقافزان أمامها لإلهائها عن البكاء بلا فائدة.
إلى أن وصل (طارق)...
حينما لمحت انعقاد حاجبيه بمجرد دخوله المنزل هوى قلبها بين ضلوعها.
توقعت أن يهتف بها أن تُخرس طفلتها وتتوقف عن إزعاجه،
أو أن يتأفف ويلعن حظه السيئ الذي أوقعه في أرملة وثلاثة أطفال.
أي أبٍ في موقفه سيفعل ذلك، فما بالك بزوج الأم، حتى وإن كان الزواج صوريًا؟
لكنه لم يفعل ذلك...
يومها اكتفى بدخول غرفتهما وتغيير ملابسه في هدوء،
ثم عاد إليها ومد كفيه ليلتقط الصغيرة من بين ذراعيها.
لا تدري لم انقبض قلبها في هذه اللحظة وهي تحاول مقاومته،
لكن نظرة عينيه الباسمة جعلتها ترخي ذراعيها عن الطفلة التي أصبحت فجأة بين ذراعيه وهي لا تزال تصرخ.
وابتعد عن ناظريها...
للحظات ظلت مشدوهة في مكانها وهي ساهمة في نظراته
لكن شيطانها دفعها إلى الإسراع إلى غرفتهما خلفه، لاسيما بعدما اختفى صوت الصغيرة.
لا تدري لماذا تخيلته ألقى بالصغيرة من الشرفة
وزادت هواجسها قبل أن تصل إلى الغرفة حينما شعرت بلفحة هواء بارد تستقبلها
حينها أسرعت بدخول الغرفة ثم الشرفة ذات الباب المفتوح لتجد (طارق) يعطيها ظهره ويقف في هدوء
لم تستطع التماسك وهي تهتف به في انهيار ـ"أين ابنتي؟"

وكم كانت دهشتها في اللحظات التالية
فقد استدار إليها بهدوء ونفس النظرة الباسمة لتجد صغيرتها مختبئة بين ذراعيه وقد أسندت رأسها الصغير على صدره واستكانت كأنها تستمع إلى دقات قلبه.
خرجت من دهشتها على صوته الهامس ـ"ششش...لقد نامت."
سألته والدهشة تملأ قسماتها ـ"كيف نامت بهذه السرعة؟"
أجابها بهمس كمن ينقل سراَ ـ"سأخبرك ولكن لا تضحكي."
بدا الاهتمام على ملامحها وهي تقترب لتسمعه يهمس بجذل ـ"لقد غنيت لها."
تراجعت بحدة وكادت تهتف بشيء ما لولا أن تابع بابتسامة ساخرة ـ"وبالطبع اضطرت المسكينة إلى النوم هرباً من صوتي النشاز."
يومها ظلت تحدق فيه وقد عقدت الدهشة لسانها وعقلها يهتف بها معنفًا 'أين غابت عنك هذه الفكرة'؟
وعادت تتأمله وهو يحيط الصغيرة بذراعيه بحنان بالغ وقد أخبأ قدميها الصغيرتين في جيبي معطفه الصوفي ليقيها البرد
هكذا وبكل سهولة توصل إلى ما لم يخطر ببالها وهي أم لثلاثة أطفال وهو لم يجرب الأبوة بعد
هكذا هداه تفكيره إلى ما كان والدها يفعله معها في صغرها، رغم أنها لم تخبره بذلك.
غريزة الأبوة فيه كانت أقوى مما تخيلت،
إذا كان هذا هو المسمى الصحيح.
دائمًا كان يتعامل مع أبنائها بأسلوب عفوي يجعلهم يتعلقون به في كل دقيقة أكثر من سابقتها،
دائمًا كان حنانه الغريزي يحركه معهم.
يومها تنازعتها مشاعر متضاربة تجاهه،
لكن هذا الموقف رفع رصيده في قلبها.
وتوالت المواقف،

وتزايد الرصيد...
تزايد حتى أصبحت لا تطيق تنفس هواء لم يمر على رئتيه أولًا.
تزايد حبه في قلبها حتى أعمتها الغيرة وتناست أنه كان لغيرها قبل أن يكون لها، وأن هذه الأخرى لها في قلبه مكانة خاصة شاءت أم أبت.
وبسبب هذه الغيرة ابتعدت عن قلبه الحنون وتفننت في عقابه انتقامًا لكرامتها الجريحة. ولكن هل انتقمت؟
هل انتقمت منه أم من نفسها؟
فإذا كان هو يتألم في غيابها درجة...فكيف بها وهي التي اعتادت على وجوده كطفل لا يفارق أباه؟
كيف بها وهي التي أصبحت تتلمس رائحته في صوان ملابسه وزجاجة عطره ووسادته المجاورة لها؟

عادت إلى الحاضر وهي تتأمل حبيبها
ودون أن تدري انسابت الدموع من عينيها وهي تراه عاجزًا هكذا أمامها؛
يا الله... من أين أتتها هذه القسوة؟
كيف تحملت غيابه عنها كل هذه الفترة؟
وكيف وصل به الحال إلى ذلك؟
ألهذا الحد فقد رغبته في الحياة حتى نحل جسده وذبلت نضارته؟
ألهذا الحد يحبها؟
'كلا، إنه يحب طفله القادم ويخاف عليه حتى الموت وليس عليك. أنت بالنسبة إليه حاوية فقط'
هتف شطر قلبها المعارض بهذه العبارة لها وكاد ينجح في تحويل موقفها، لولا أن هتف شطر قلبها الثاني مدافعًا ـ"المهم أنني أنا أحبه، ولا يهمني سوى سلامته. إنني لن أتبعك ثانية حتى أفقد زوجًا آخر."
وفي رد فعل سريع اتجهت إلى(طارق) تتأمله في صمت ومدت يدها تتناول كفه اليسرى لتضغطها في رفق وتهمس ـ"(طارق) هل تسمعني؟"

لم يصلها رد يوحي بأنه في وعيه بأي حال، فالتقطت نفسَا عميقًا قبـل أن تقول بصوت مختنق وعيناها لا تفارقـان وجهـه ـ"هل مـن عـادتكم أن ترحلوا دون وداع؟ لقد تركني(حازم) فجأة وظللت لفترة لا أصـدق أننـي لن أراه ثانية أمامي، وها أنت ذا تكرر فعلته؟! تتركنـي فجـأة؟ حتـى لـو فعلتها فلن أصدق أبدًا. ستظل أمامي وفي قلبي. ستظل لأنني أحبك. قـد لا أسامحك لكنني سأظل أحبك. لن أسامحك لأنك تركتني، ولن أسامحك لأنك أهملت في صحتك حتى أصبحت هكذا. لـو كـان أبنـائي بحاجـة إليّ قيراطًا، فهم بحاجة إليك أربعـة وعشـرون قيراطًـا. مـاذا أقـول للقـادم؟ (حازم) ترك أولاده رغمًا عنه، لكنك أنت تفعل هذا بنفسك، أنت لا تريد أن تـرى ابنـك الـذي انتظرتـه طـويلًا، أنـت تريـد أن تهزمـك السـجائر والضغوط رغم انك أقوى منها. نعم أقـوى منهـا وستنتصـر عليهـا، مـن أجلي وأجل أطفالنا، من أجل ابنك القادم."

غلبتها دموعها واندفعت تسيل على وجهها في غـزارة، وشـعرت بـالأرض تميد تحت قدميها فاستندت بحركة عفوية إلى منضدة مجـاورة للفـراش. ويبـدو أن حركتهـا كانـت عنيفـة حتـى أنهـا صـدمت المنضـدة بالحـائط وسقط من فوقها شيء معدني تدحرج حتى توقف أمام قدم(هالة).

وفي سرعة مسحت وجهها وعينيهـا كي تـرى جيـدًا مـا هـو موضـوع عـلى المنضدة، فقد كانت ساعة يد(طارق) وهاتفه الخلـوي؛ وحينهـا خفضـت عينيها أرضًا لترى ما وقع...

كانت دبلته الفضية. لا بـد وأن الممرضـة خلعتهـا مـن يـده مـع السـاعة حينما كان في غرفة العمليات.

انحنت لتحضر الدبلة وتعيدها إلى المنضدة ثانية،

ولكن شيء ما جعلهـا تنظـر في داخـل الدبلـة قبـل أن تضـعها في مكانهـا القديم،

ربما الفضول، وربما غيرتها الأنثوية.

المهم أنها نظرت، ثم أعادت النظر، ثم دققت النظر جيدًا، وفي كـل مـرة كانت ترى ما يزيد دهشتها.

***

فحصت الدبلة من الخارج وأعادت الفحص،
إنها هي نفس الدبلة التـي يرتـديها (طـارق) حـول إصـبعه منـذ زواجـه من(سمر)، لا يمكن أن تخطئها عيناها لأن شكلها غير تقليـدي ولا يوجـد مثلها. فقد كانت هدية والدته له من رحلة الحج وهو نفسه استأذنها في أن تظل دبلة زواجهما لأنها من أمه فقط.
يومها لم تعترض لأنها كانت تدرك أنه يبذل جهدًا خارقًا بإصراره على بقاء دبلة شقيقه الراحل حول إصبعها، وكأنه يحاول أن يثبت له ولأبنائـه أنـه لم يحتل مكان أبيهم، وأنه رغم رحيله موجود بينهم.
لذا وجدت أن موافقتها على عدم تغيير دبلته الفضية دليل على أن حبهـا له تجاوز غيرتها من زوجته السابقة.
وفي هذه اللحظة، لم تكن الدبلة هي مصدر دهشتها
وإنما الاسم المحفور بداخلها،
فعلى عكس توقعها لم يكن اسم(سمر)،
بل اسم(هالة).
تأملت الدبلة ثانية في ذهول وهي تنقل بصرها بين وجه(طارق) الهـادئ ودبلته، وعقلها يبحث عبثًا في جميع الاتجاهات.
ما معنى هذا؟!
أكان يحبها منذ البداية؟
وماذا عن(سمر)؟
لقد صارحها بأنه يحب (سمر) ولا يـرى غيرهـا زوجـة لـه، فلـماذا كتـب اسمها هي على دبلته إذًا؟
أيكون كتبها بعد انفصاله عن(سمر)؟
لكن الدبلة لا تحمل أثرًا لاسم غريمتها في أي اتجاه؛
ازدادت حيرتها والأسئلة تتصارع بداخلها، وكل سؤال يناقض ما قبله.
وفي يأس وضعت الدبلة عـلى المنضـدة وهمسـت لنفسـها ـ"أيًا كـان مـا تعنيه الدبلة، فأنا أحبه ولن أخسره هو الآخر. لقد احتملت موت(حـازم)

لأنني كنت أظن نفسـي قويـة، أمـا الآن فـلا أظنني قـادرة عـلى تحمـل فقد(طارق)، ليس بعد أن أشعرني بحاجتي إليـه بجـواري، لـيس بعـد أن أعاد لي ثقتي في أن الدنيا أجمل من أن نراها بمنظار داكن."

قالتها وعادت ببصرها إلى وجه (طارق) المستكين، وعـادت تحتضـن كفـه اليسرى بين كفيها قبل أن ترفعها إلى شفتيها وتلثمها في حنان وعيناهـا لا تفارقان وجهه.

بعد برهة من الصمت همست ثانية له وهي تمسح وجهـه ببـاطن كفهـا في حنان ـ"(طارق)، أما زلت لا تسمعني؟على أية حال يمكنك اعتبـار مـا قلته بعد جراحة (هيثم) لاغيًا. لقد عفوت عنك ولـن أطلـب الطـلاق. لا تتخيل مدى حزن الأولاد لأنك لا تقيم معهم كما اعتـادوا. (هنـد) تسـأل عنك طوال الوقت، و(هاني) واثق من عودتك حسب مـا وعدتـه.(هيثم) هو الوحيد الذي يخشى أن تفعل مثل أبيه، أن تتركه دون وداع."

ورغمًا عنها انسابت دموعهـا ثانيـة وهـي تقـول بصـوت مختنـق ـ"لقد صُدمنا جميعًا بوفاة (حازم) وكانت الصدمة قويـة عـلى (هيـثم) لتعلقـه الشديد بوالده، وهذا ما جعله ينضـج قبـل الأوان. كـان مـن الممكـن أن تظل عمهم فقط وألا تتطور علاقتكم هكذا، لكن بعد ما حـدث وتعلـق الأولاد بك، لو تركتهم أنت الآخر ستهتز صورة العالم أمامهم، لن يحتملوا فقدانك، لن يحتملوا فقدان الأب مـرتين. والـدك هـو الآخـر لـن يحتمـل فقدان ابنه الثاني، ولا تتخيل حالته الآن من قلقه عليك. وأنا، أنـا دفنـت زوجًا ودعوت الله ألا أدفن حبيبًا آخر، وما زلت أدعو الله أن أموت قبل أن أفقد أحدًا من أحبائي، وأنت أولهم. لو كنت تسمعني سـتتعجب مـما أقول، لكن الحقيقة هي أنك ذكرتني كم هي قصـيرة حياتنـا لنضـيعها في خلاف لا طائل وراءه. ولهذا أريد أن نعيش جميعًا كأسرة واحـدة كبـيرة، أنا وأنت وأولادنا و أهلنا و(سمر). لا بد وأن..."

قاطعتها ضغطة مـن أصـابع(طارق) لكفهـا فمسـحت دموعهـا في سرعـة وهي تهتف في سعادة ـ"(طارق)! كيف حالك الآن يا حبيبي؟"

فتح عينيه في تهالك وهو يقول بصوت متحشرج ـ"ماذا حدث؟ هل كنت

أحلم؟"
داعبت وجنته بأناملها قائلة بابتسامة عذبة ـ"ما حدث ليس مهمًا، المهم أنك بخير. حمدًا لله على سلامتك."
فتح عينيه عن آخرهما في ذهول وحاول النهوض وهو يهتف بانفعال ـ"أهذا حقيقي؟ أنت معي يا(هالة)؟"
دفعت كتفيه برفق ليعود ثانية إلى وضعه الأول قائلة ـ"نعم أنا وأنت لا تحلم، وأرجوك لا داعي للانفعال."
حدق في وجهها بعينين ذاهلتين وهو يقول مشدوهًا ـ"لقد كنت معي في الحلم، كنت تبكين وأنت تحتضنين كفي وتلمسين وجهي وقلت كلامًا كثيرًا، كلامًا لم أتوقع أن أسمعه منك. والأهم أنك قلت لي حينها إنك تحبينني وإنك..."
مالت عليه لتضع أناملها على شفتيه تمنعه من الكلام وهمست هي قائلة ـ"لم يكن حلمًا يا(طارق)، كان حقيقة. كل ما سمعته كان حقيقيًا. لقد قلت إنني أحبك بالفعل."
لثم أطراف أناملها قبل أن يزيحها عن فمه قائلًا ـ"أيعني هذا أنك سامحتني؟"
اعتدلت لتجلس على طرف الفراش قائلة بدلال ـ"لقد تنازلت عن حقي في مقابل أن تغادر هذا الفراش."
ثم تابعت بابتسامة خاصة ـ"ولا تظن أنك من الممكن أن تتركنا هكذا بسهولة، لن أسمح لك."
تأمل ملامحها بتمعن وكأنه يراها لأول مرة ثم قال بثقة ـ"لن يبعدني عنكم سوى الموت."
وضعت أناملها على فمه ثانية وهي تشهق في عنف قائلة ـ"لا تقل هذا، لا أريد أن أسمع هذه الكلمة ثانية. مازال أمامنا مشوار طويل لنقطعه سويًا، وليس كل منا على حدة؛ ونحن مازلنا في البداية."
عاد يتأملها بوله ويتناول كفيها بين يديه وهو يسألها باشتياق ـ"كيف حالك؟ وكيف حال الأولاد وأمي؟ لقد افتقدتكم جميعًا في الفترة الماضية،

فالبعد عنكم أقوى من احتمالي."
منحته ابتسامة عذبة وهي تقول ـ"من اليوم لن نبتعد عنك ولن تفتقدنا ثانية. سنعود إلى نظامنا القديم، ثلاثة أيام عندي وثلاثة عند(سمر)، والغذاء عندي في أيامها وعندها في أيامي و..."
قاطعها هو هذه المرة وهو يضع أصابعه على شفتيها قائلًا بهدوء ـ"لا عودة لهذا النظام ثانية، لقد ألغيته."
رفعت حاجبيها في دهشة فتابع هامسًا بصدق ـ"لم يعد هناك سواك، بل لم يكن هناك سواك من الأساس. لقد كنت أنت من خفق قلبي باسمها حين عرف معنى الحب الحقيقي. لقد كانت (سمر) على حق، فقد حاولت أن أجعلها نسخة منك حين ظننتك لا تحبيني. كذلك إحساسي أنك كنت لأخي من قبل جعلني أحاذر في الاقتراب منك. كان بداخلي هاجس أنك ستسيئين فهمي إذا صارحتك بميلي لك بعد عام واحد من وفاة أخي، أحسست بأني سأبدو كمن كان بانتظار وفاة شقيقه ليخلو له الجو مع أرملته. كل هذه المشاعر جعلتني أرى (سمر) كمحاولة للتمرد على أبي، محاولة ساعدتني أنت فيها حينما ظننتِ أن سعادتي بها، وجعلتني أراك في صورة مختلفة. لقد أحببتك ولكنني كنت أنكر هذا الحب؛ والآن لم يعد هناك فائدة من الإنكار، فانا متلبس بحبك ومستعد لتلقي أقصى عقوبة تحددينها... حتى لو كانت الموت تقبيلًا."
ازدردت(هالة) لعابها في صعوبة وهي تسأله ـ"وماذا عن(سمر)؟هل...؟"
قاطعها قائلًا بثقة ـ"(سمر) صفحة طويتها قبل أربعة أشهر حينما طلقتها لأول مرة، وحان الوقت لتعرفي سبب عودتها إلى بيتي."
حاولت جذب كفيها من راحتيه وهي تقول بصوت مختنق ـ"لا أريد أن أعرف."
شدد قبضته على كفيها واعتدل جالسًا بمساعدتها وهو يقول بحنانه الذي يسري في عروقه مسرى الدم ـ"بل لابد أن تسمعيني. لقد حاولت مرارًا وكنتِ ترفضين الإنصات، لكنك ستنصتين الآن. لقد أعدت (سمر) إلى بيتي كي يكون الطلاق نهائيًا ولا رجعة فيه."

عقدت حاجبيها في دهشة فتابع في سرعة ـ"كان طلاقًا بدعيًا لأنها كانت حائضًا، وزوجة (سامي) هي من اكتشفت الأمر وطلبت منا مراجعة دار الإفتاء. كان هناك خلاف فقهي حول وضعنا وكان الأسلم أن تعود إلى بيتها معي إلى أن تتوافر شروط الطلاق الصحيح، وهذا ما كان."
ثم ركز بصره في عينيها قائلًا بصدق ـ"لكن أقسم بأنني لم ألمسها طيلة وجودي معها بمنزلنا. صحيح هي زوجتي، لكنني شعرت بأنني أخونك إذا جلست معها في نفس الغرفة. لذا كنت أنام في غرفة الضيوف بعيدًا عنها حتى طلبت الطلاق ثانية ومنحتها إياه في هدوء، وللمرة الأخيرة منذ أسبوع."
حدقت في ملامحه لثوان وهي تجاهد لتجد صوتها، ثم ما لبثت أن قالت بحرج ـ"وماذا عن حبكما؟"
دفن وجهه في كفيها وهو يتنسم رائحتها ليملأ رئتيه بعبيرها الذي اشتاق إليه، ثم رفع وجهه إليها هامسًا ـ"لقد ظلمنا أنفسنا-أنا وهي- بالجري خلف أكذوبة حبنا. أنا لم أحب سواك، وهي لم تحب بعد. لابد وأنها ستقابل الرجل المناسب يومًا ما، الرجل الذي يستطيع إسعادها ويكون لها وحدها؛ مثلي الآن، أنا لك وحدك."
تأملت تقاسيم وجهه المحببة للحظات عاد فيها مؤشر الفضول يقفز إلى أعلى مستوياته وهي تشير بعينها إلى دبلته الموضوعة على المنضدة المجاورة قائلة بخفوت ـ"ما دمنا في جلسة مصارحة..هل لك أن تشرح لي معنى وجود اسمي داخل دبلتك الفضية التي ترتديها منذ زواجك بـ(سمر)؟"
لمعت عيناه وهو يلتفت بجذعه إلى المنضدة ويلتقط الدبلة بين أصابعه ويتأملها بابتسامة جانبية قائلًا ـ"أنت تعلمين أنها هدية والدتي رحمها الله لي من رحلة الحج وأنني احتفظت بها لسنوات حتى أرتديها حين زواجي. ورغم أنها لم ترق لـ(سمر) فقد كنت مصرًا على ارتدائها، وهي لم تهتم بحفر اسمها على دبلة لا تروقها. وحين اشتريت دبلتك الذهبية وجدتني اخلع دبلتي الفضية وأطلب من الصائغ أن يحفر اسمك

بداخلها. لا أدري لماذا ولكنني كنت سعيدًا وقتها واسمك حول بنصـري. كنت سعيدًا حتى أن سعادتي جعلتني اترك دبلة (حازم) في إصبعك، رغم أن حقي أن يحمل إصبعك دبلتـي فقـط. سـعادتي بـك جعلتنـي أتجـاوز غيرتي من رجل كنتِ له قبلي."

اغرورقت عيناها ثانية بالدموع وهـي تحتضـن وجهـه بـين كفيهـا قائلـة بصوت مختنق ـ"سامحني حبيبي...لقد ظلمتك كثيرًا."

احتواها بكل جوارحه وهو يدفن وجهه في كتفها ويهمس في أذنها بعمق ـ"بل سامحيني أنت لأنني رغم حبي لك أذيتك دون قصد. كنت أحـاول أن أرضي الجميع لكنني فشلت. أدري أنني كنت فظًا في بعـض الأحيـان، وربما عنيـدًا، ولكـن الحمـد للـه أننـي لم أسـتجب لمحاولاتـك المسـتميتة للانفصال عني."

غاصت في أحضـانه وتجاهلـت رائحـة المطهـر التـي زكمـت أنفهـا وهـي تهمس بدورها ـ"غيرتي كانت أقـوى منـي. كلـما تخيلـت أنـك أوهمتنـي بالحب كنت أتمزق من داخـلي. غـيرتي كانـت تقتلنـي وأنـا أتخيلـك مـع غيري."

ابتسم بخفة وهو يشدد ذراعيه حولها بكل ما تبقى لديه من قـوة قـائلًا ـ"لقد قلتها لك من قبل وسأقولها إلى الأبد...أنا لك وحدك."

أبعدت رأسها عن صدره قليلًا لتتعانق نظراتهما قائلـة بشـقاوة يعشـقها ـ"ليس تمامًا، هناك أربعة شركاء لي فيك، (هيثم)و(هاني)و(هند) والأستاذ القادم بعد ستة أشهر."

سألها وهو يداعب ملامحها بأنامله ـ"وماذا لو كانت أستاذة؟"

هزت كتفيها قائلة ـ"لا يهم. المهم أن يشبهك."

سند جبهته إلى جبهتها وسألها مشاكسًا ـ"أمازلت مصـرة عـلى أن تـبلي البشرية بطفل يشبهني؟"

أجابته بدلال ـ"ليس طفلًا واحدًا فحسب."

ضحك قائلًا ـ"وماذا عن تنظيم الأسرة؟"

ضحكت هي الأخرى وأجابته وهي تهز كتفيها ثانية ـ"سيشكرونني لأنني

أحَسِّن السلالات."
تأمل وجهها الباسم ثانية ثم همس بصدق ـ"أحبك."
ابتسمت في خجل وخفضت عينيها وهي تهمس بدورها ـ"أنا أيضًا أحبك."
سألها باهتمام ـ"إذًا نبدأ حياة جديدة؟"
أومأت برأسها إيجابًا في حماس وهي تجيبه ـ"نعم، حياة جديدة بدون دموع وبدون ألم. حياة بالحب وللحب فقط. اتفقنا؟"
ناولها دبلته الفضية ومد لها كفه الأيسر كي تضعها في بنصره قائلًا ـ"اتفقنا. هيا ضعيها أنت في إصبعي ما دامت تحمل اسمك."
أطاعته بابتسامة خجلى وهي تحيط بنصره بدبلتها لتعلن امتلاكها له ولقلبه للأبد.

وحينما أراحت رأسها على كتفه كان قلبها يخفق بحبه وبالتفاؤل بحياة جديدة مع من منحته قلبها عن طيب خاطر وألغى بحبه خفقاتها الدامعة، لتصبح خفقات حب فقط.

تمت بحمد الله

صدر عن دار الفؤاد للنشر والتوزيع:

خفقات دامعة	رواية	رباب فؤاد
أماليا	رواية	ميرفت البلتاجي
شقلب أحوالك	رواية	وليد نبيه
رسم قلب	نبضات أدبية	كتاب جماعي
خيانة واي فاي	رواية	سلافه الشرقاوي
فابريكا	ديوان شعر	عبده نافع

سلسلة تيوليب الرومانسية للجيب:

١_ حقيقة حب	رباب فؤاد
٢_ ذات الوشاح الأخضر	رانيا حجاج
٣_ نصف ملاك	رباب فؤاد
٤_ حكاية سرية	عبير قائد
٥_ حارسة القصر	ميرفت البلتاجي
(عدد خاص) عزيزة مونرو	رانيا حجاج

سلسلة أعازيف للرعب:

١_ رحلة الخلاص	كريم محمد علي

سلسلة قضايا فوق العادة:

١_ بصمات الدم	محمود أحمد عبد المنعم